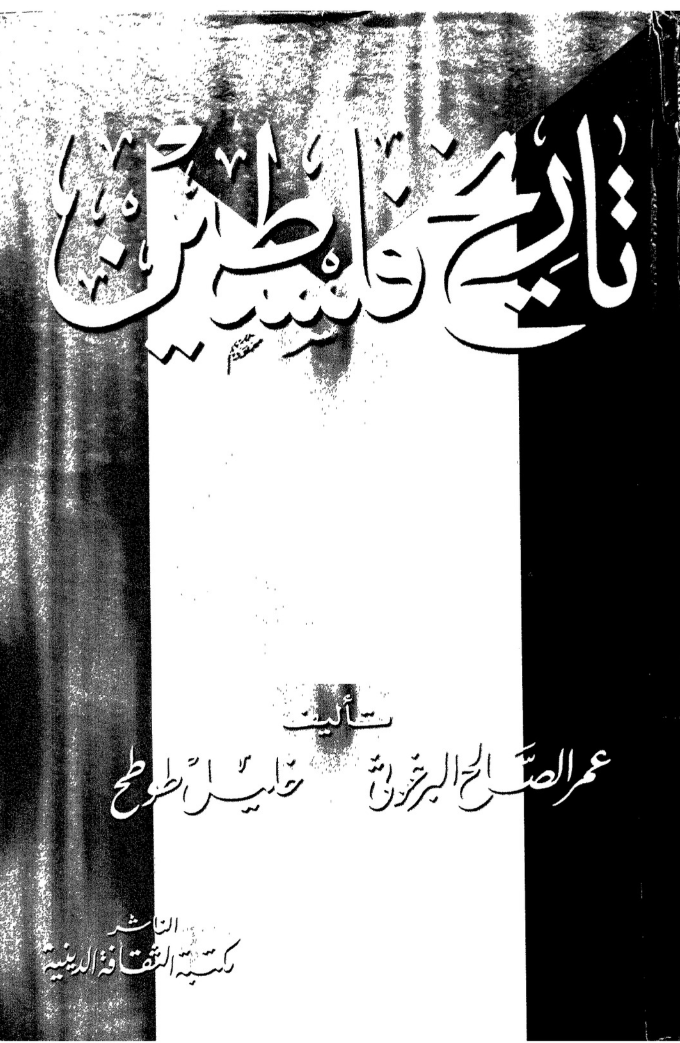

تاريخ فلسطين
تأليف
عمر الصالح البرغوثي
خليل طوطح
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية



تأليف

عمر الصالح البرغوثي خليل طوطح

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

بسم ا لله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق البشر الصادق الأمين، وبعد ..

خير وصف لقضية فلسطين، توصف به فى إيجاز، أنها مأساة، يتناسى أهل الرأى فى سياسة العالم كيف نشأت، فيتعذر عليهم أن يهتدوا إلى حل لها.

والجمهور، فى غير الشرق، لايدرى عن قضية فلسطين إلا أن هناك شعباً أصيلاً، هو الشعب الفلسطينى العربى، يعلن أنه ظلم ولا يزال يظلم، وفى كل يوم يأتى له ظالمه بمضاعفات جديدة، يصفها بأنها مسكنات مؤقتة لمعضلة مستعصية الحل.

وهناك مهاجرون يهود، يقيمون فى فلسطين من نيف وعشر سنوات، يقولون إن البلاد هى بلاد أجدادهم الأبعدين. فهم إذن أهل البيت. أما الذين ولدوا فيه، واستقروا فيه، بعد آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم، أجيالاً بعد أجيال دون انقطاع، فهم فى وطنهم، الذى لا وطن لهم غيره، غرباء عنه، لأنهم ليسوا بيهود. وما فلسطين إلا لليهود. لأن اليهود، قبل عهد المسيح، إنما نشأوا فى فلسطين !!

صحيح أنهم رحلوا عنها.

فأصبح منهم البريطانى الصرف.والفرنسى الصرف. والألمانى الصرف.

والروسى الصرف. وهكذا. وأصبحوا، فى البلاد التى رحلوا إليها، من أزمان بعيدة: يعتبرون فيها من المواطنين، يتمتعون، دون تمييز مجحف بهم، بجميع الحقوق السياسية والمدنية والاجتماعية التى يتمتع بها إخوانهم المواطنون الآخرون. حتى إن كثيرين منهم تولوا فى البلاد التى استقروا فيها رياسة الوزراء.

إلا أن اليهود، دون غيرهم من المواطنين. يجب فى نظر الصهيونيين أن يكون لكل فرد منهم، إلى جانب وطنه السياسى، الذى يشاطره إياه غيره من المواطنين، وطن روحى رمزى فى فلسطين. لأن فلسطين هى أرض الميعاد بالنسبة لليهود. فيجب أن تباح الهجرة إلى فلسطين لكل من رغب فى ذلك، مهما كانت جنسيته السياسية ولونه القومي، بشرط واحد أن يدين باليهودية فيرمن بالصهيونية. وهذا، من الوجهة السياسية، استناداً إلى وثيقة صدرت من جانب واحد: هو جانب الحكومة البريطانية، عرفت "بتصريح بلفور" وسجلت فيما بعد فى قرار أصدره مجلس "عصبة الأمم" بإثبات انتداب بريطانيا العظمى على فلسطين.

فلهذا نقدم للمكتبة العربية كتاباً جديداً وهو تاريخ فلسطين رداً على الإدعاءات الإسرائيلية، وعودة الحق لصاحبه، وا لله الموفق ..

الناشر

مقدمة

لما رأينا الأمة العربية جادة فى بناء جامعتها التي لا تقوم إلا بإحياء تاريخها عمدنا إلى وضع تاريخ فلسطين لما له من الأهمية التاريخية ولأنه يجب على كل إنسان أن يدرس تاريخ بلاده وأمته ثم تاريخ الأمم الأخرى وقد إستطردنا في البحث عن شرقي الأردن وسورية والعراق والحجاز ومصر وما هبط إلينا من الأمم الغريبة ليستفيد منهُ الطالب ويستعين به الأستاد فلم نفرط في أختصار الحوادث الأجنبية كما انا لم نسهب في تفصيل أخبار العرب ونفخنا فيه من الروح الوطنية المفرغة في قالب التاريخ الذي كنا نظنهُ سهل المأخذ قريب المتناول فالفيناه صعب المرام بعيد المنال تعجز الأفكار عن إستجلاء مشاكله وتجمد القرائح في تدقيق متناقضه لا سيما أن تاريخ العرب غامض لم ينخله الناقدون وقد تخلله فترات من الزمن لم يسجلها المؤرخون ولم تكشفها الحفريات والنقوش فلا جرم إن اشتبه علينا الخطأ بالصواب لرغبتنا في سرعة إنجازه لأنا بحاجة ماسة إليه وإنا شاكرون كل من نبهنا لإصلاح أو تكرم بستر عورة فما الكمال إلا ا لله ونرجوا ا لله أن يجني مواطنوناً منهُ نفعاً وهو الموفق للصواب .

" المؤلفان "

القسم الأول

فِي تاريخ فلسطين من بدئه حتى الفتح العربيِ الإسلاميِ

الفصل الأول

في تاريخها قبل الفتح اليهودي

(١) حدود فلسطين التاريخية والسياسية

ورد في التوراة عبارة تدل على حدي فلسطين الشمالي والجنوبي وتثبت أنها كانت "من دان إلى بئر سبع" . ودان إسم لأحد أسباط اليهود أو إحدى قبائلهم التي سكنت عند تل القاضي الذي ينبع نهر الأردن قريباً منه. وبئر السبع مدينة واقعة جنوبي فلسطين. أما حد فلسطين الغربي فهو البحر المتوسط الذي لا يتغير. وأما الحد الشرقي فمختلف فيه والحقيقة أنه كان يتقلص أحياناً إلى نهر الأردن وأحياناً يمتد حتى الصحراء والخط الحجازي وذلك بحسب الظروف وتقلبات السياسة .

حدودها السياسية الحالية

لم تتم الآن المفاوضات بين إنكلترا وفرنسا لوضع الحدين الشمالي والشرقي بين سوريا وفلسطين غير إنه يمكننا أن نعتبر خطاً من رأس الناقورة (وهي نقطة على البحر شمالي عكا يطلب فيها جوازات السفر) إلى شمالي صفد فنجعله حداً شمالاً. والبادية حداً شرقياً كما ورد في صك الأنتداب والبحر المتوسط حداً غربياً. وشمالي الحفير ورفح حداً جنوبياً.

(٢) مساحتها

لا يمكن أن نبت القول في تقدير مساحة فلسطين لأن حدودها الشمالية والشرقية لم تعين حتى الآن ولو إنا ذرعناها من الشمال إلى الجنوب لكانت ٢٤٠ كيلو متراً تقريباً. أي إنا إذا سرنا كل يوم ثماني ساعات وقطعنا في كل ساعة منها خمسة كيلو مترات نجتازها من الشمال إلى الجنوب في ستة أيام.على أن القطار يستطيع أن يطويها فيما بين ٧ أو ٨ ساعات ويتراوح عرض فلسطين ما بين ١١٠ كيلو مترات إلى ١٦٠ فهو على ذلك نصف طولها تقريباً. أما مساحتها فتساوي ثلث مساحة سوريا الممتدة من جبال طورس حتى رفح ومن البادية إلى البحر المتوسط .

(٣) أسماؤها :

كانت فلسطين ولا تزال جزءاً من سوريا لا يفصلها عنها حد طبيعي ولا يبعدها عامل جنسي أو تاريخي لذلك لم يفرد لها المؤرخون أسماً مستقلاً بل كانوا ينسبونها إلى الشعوب والقبائل التي سكنتها. وأهم أسمائها التاريخية هي:

أ- أرض كنعان: وهذا أول اسم سميت به نسبة إلى الكنعانيين الذين هم أسرة سامية. وكانت في عصرهم تشمل جزءاً كبيراً من سوريا حتى حمص وحماه .

ب- فلسطين: أطلقت اليونان والرومان هذا الأسم عليها نسبة إلى سكانها الفلسطينيين الأقدمين الذين لم يتوطنوا إلا الساحل ما بين يافا وغزة وكانت "فلسطيا" لا تشمل سوى هذه البقعة الضيقة فقط ولبقاعها الأخرى أسماء خاصة بها. فيظهر من ذلك أن تسمية جميع البلاد بفلسطين هو من باب تسمية

الكل بأسم الجزء.

ج- أرض الميعاد: سماها اليهود أرض الميعاد زعماً منهم أن ا لله وعدهم بها في أيام إبراهيم وفيما بعد ذلك أيضاً.وقد أمتازت علماء التوراة في ذلك فرقين فرقة تقول أن النبوات تمت وإنقضى زمنها. وفرقة تقول أن ا لله سيعطي البلاد لليهود بعد أن يتنصروا.

د- الأرض المقدسة: يسميها مسيحيو الغرب بهذا الأسم لتقدسها بمن ولد فيها وزارها من الأنبياء والرسل والمصلحين. وكذلك دعا المسلمون "إيليا" القدس وبيت القدس لإنها مهد الأنبياء ولأن النبي أسري به إليها ليلاً.

(٤) تأثير موقعها الجغرافي على تاريخها :

أن علمي التاريخ والجغرافيا صنوان متلازمان وتوأمان لا يستغنى أحدهما عن الآخر. ومن تغلغل في البحث وتأمل في تأثير المناخ على طبائع السكان أمكنه أستنتاج فوائد جمة ومنافع ذات قيمة واتضح له أن سكان المناطق الحارة كالسودان وغيرهم يغلب عليهم الخمول والجمود فيظلون سحابة نهارهم نائمين في ظل نخيلهم وأجواف كهوفهم خلافاً لسكان المناطق الباردة الذين يقضون أوقاتهم في الجد يخوضون غمار العمل بنشاط لا مثيل له بين أبناء المناطق الحارة. وكما أن للمناخ تأثيراً على طبائع السكان كذلك للموقع الطبيعي علاقة كبرى في تاريخ الأمم والأفراد وتطورهم. فمصر لولا النيل لكانت صحراء مجدبة ولما أشرقت عليها شمس هذه المدينة الزاهرة وتجارة نيويورك العظيمة لم تتسع ويحكم بناؤها إلا على أساس موقعها الجغرافي. ولولا

ما لموقع القسطنطينية من علو الشأن لما طمعت فيها الدول وتاقت إليها نفوس الفاتحين. ولقد كان موقع إنكلترا في جزيرة من أكبر العوامل التي جعلتها تعتني بشأن بحريتها حتى أصبحت ذات أسطول ضخم ملكت به البحار وكانت به الدولة البحرية.

وهكذا فلسطين فأننا لا نفهم تاريخها جيداً إلا بعد أن نعرف موقعها الجغرافي وحالتها الطبيعية ولذلك نقول: فلسطين أقليم صغير واقع في المنطقة المعتدلة الشمالية بين بحرين كبيرين الأول الرملي في شرقها والثاني المائي في غربها. بل هي جسر بين آسيا وأفريقيا وأوروبا وطريق عمومي لسكان وادي النيل ودجلة – مهدي مدنية العالم القديم – بل خط إتصال بينهما ولذلك كان كلاهما ينزع لاخضاعها كي يجهز على خصمه ويأمن من شره وغاراته. هي محطة بين الشرق والغرب تتنازع عليها الأمم القديمة والحديثة كي تسيطر على طرق التجارة كانت لا تزال ساحة حرب وميدان قتال للدول القديمة والحكومات الحديثة. فكم من قائد ظفر في سهولها وآخر سقط جيشه أسيراً وخر قتيلاً أو هزيماً. فكأنها ساحة أُعدت لمبارزة القواد والعظماء أمثال: بنوخذ نصر وصحوتميس✿ (طتميس والإسكندر وبومبي ويوليوس وأغسطس وتيطس وكسرى وأبو عبيدة وصلاح الدين وقلب الأسد والسلطان سليم وبونابارت وإبراهيم باشا وليمان فون ساندرس باشا واللنبي نسل إليها الجنود من آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا وأستراليا وزيلاندا الجديدة فكانت مسرحاً يمثل فيه

✿ هذا على حسب اللفظ السامي القديم. وأما الشكل "طوتميس" فهو مأخوذ عن التحريف الأفرنجي.

أجناس البشر بلباسهم الوطني رواية عالمية فالفلسطيني الذي لم يخرج من بلاده شاهد سكان الكرة الأرضية من غير أن يركب لذلك الأهوال أو يتحمل المشاق والمصاعب كأنه طاف الأقطار .

تعاقب في توطن فلسطين والحكم عليها جميع أجناس البشر من سامي ومغولي وارياني لم تقطنها أمة واحد بل كانت في سائر أدوارها أما مندمجة في سوريا أو ملحقة بمصر ولئن إستحال عليها في الماضي أن تكون بلاداً مستقلة لموقعها الجغرافي وصغر مساحتها وتخالف سكانها فستكون في مقبل الأيام كذلك أما متصلة بمصر أو مرتبطة بالعراق . والماضي مرآة الآتي وهو أشبه به من الماء بالماء.

(٥) سكانها:

إن جميع التواريخ القديمة مظلمة فلا يعول عليها ما لم يؤيدها العقل والعلم والحفريات والآثار وأقدم تاريخ لفلسطين يبتدى من ٣٥٠٠ ق. م. بشهادة الحفريات المكتشفة أخيراً فى جازر "أبو شوشه" وهي قرية قرب الرملة وقد قام بهذه الحفريات بين سنة ١٩٠٢م و ١٩٠٥م جمعية إنكليزية **The Palestine Exploration Fund** يرأسها الأستاذ مكالستر **Macalister** وذكر هذا الأستاذ أنه قد سكن فلسطين قديماً أقوام غير ساميين وبرهن على ذلك بما نطقت به الآثار وشهدت له الرسوم والأحجار .

وتلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وهذا ما أستنتج من الآثار المذكورة :

١- كان سكان جازر (أبو شوشه) قصار القامة يتراوح طولهم ما بين ٥ أقدام و٤ بوصات و٥ أقدام و٧ بوصات .

٢- كانوا من أبناء العصر الحجري فزاولوا زراعتهم وجميع أعمالهم وحربهم بادوات صوانية كالفأس والمنجل والحراب .

٣- دجنوا الحيوانات الأهلية كالبقر والماعز والخراف والخنزير وربوا هذه الحيوانات في مغاورهم .

٤- كانوا يقطنون الكهوف التي لا تزال موجودة حتى الآن ولكن بعد ألف سنة من ذلك العهد أي سنة ٢٥٠٠ ق.م. تدفق على فلسطين سيل عرم من سكان العراق وأواسط جزيرة العرب فنزلوا بها وعمروها وشادوا فيها المدن وها نحن نقص نبأ أهم الشعوب التي سكنت فلسطين .

أ- الكنعانيون :

هم قبيلة سامية نزحت من جزيرة العرب وأوت فلسطين وكانت لغتهم القومية اللغة العبرانية التي إقتبستها أمة اليهود منهم بعد أن تركت لغتها. وكانت مساكن الكنعانيين الأولى في منخفضات الأرض ولذلك سموا كنعانيين لأن معنى "كنعان" في لغتهم الأرض المنخفضة. وكانت بلادهم واسعة الأطراف يحدها شمالاً مدخل حماه شمالي لبنان وشرقاً بادية الشام وجنوباً بادية العرب وغرباً البحر المتوسط عكفوا على الزراعة والتجارة زمناً طويلاً حتى

أتت إليهم اليهـود فحـاربتهم وتغلبـت عليهـم وأحتلـت مدنهـم المسـورة ولأن ديانتهم كانت وثنية حرمت اليهود التزوج منهـم والإمـتزاج بهـم. وكثيراً مـا ورد ذكر الكنعانيين في التوراة. قال في سفر التكوين ص٣ : ١١ أن الكنعانيين سكنوا في البـلاد وأن إبراهيـم سـكن معهـم. وقـد ورد أيضـاً في التـوراة ذكـر حروبهم مع اليهود في أريحا وجبعـون وبيـت أيـل ولكـن اليهـود لم تسـتأصلهم فمنهم من ذهب إلى الشمال ومنهم مـن بقـي في البـلاد فسـيطرت دماؤهم في عروق السكان وتمثلوا في سواهم من الأمم الأخرى .

وقد وجد في الكرنك أسماء ١١٩ مدينة من المدن الكنعانية التي إحتلها صحوتميس فرعون مصر حين غزا البلاد وانتصر على أعدائه ومـن هـذه المـدن صور ويافا وعكا.

ب- الحثيون :

قبيلـة أنفصلـت مـن تركستان نحو سنة ١٧٠٠ ق.م. وأنهـالت علـى فلسـطين وهـم فـرع مـن شـجرة مملكتهـم المؤسسـة في شمـالي سـوريا وآسـيا الصغرى. وكانت عاصمـة الحثيـين "ختي" الـتي تسـمى اليـوم "بوغـاز كـوي" وحارب الحثيون فراعنة مصر ويؤيد هذا القول ما شوهد من النقوش والرسـوم المحفورة على الأعمدة في هيكل الكرنك في مصر. وقد حاربهم عرمسيس ١٤ سنة فلم يتمكن من إخضاعهم ولذا أضطر إلى محالفتهم. أما الملك سـتي الثـاني فإنه حار بهم وقهرهم.

والحيثيون الذين سكنوا فلسطين هم بقايا أولئك الذين حـاربوا المصريـين

وسكنوا بين القدس والخليل. وأمتد ظلهم زمناً إلى بيت أيل ونابلس. وذكرأن إبراهيم شرى مغارة المكفيلة (حرم الخليل وقبور الأنبياء) من الحثيين ودفن فيها زوجته ساره وبعض بنيه وأحفاده. وأنهم أنجبوا بعضاً من العظماء مثل أوريا الحثي الذي كان ذا بأس في جيش داود.

جـ- اليبوسيون

جل ما نعرفهُ عنهم أنهم سكنوا القدس ولكن لم يعرف أصلهم حتى الآن. وقيل إنهم بطن من الكنعانيين. وكانت القدس تدعى قديماً ببوس فلعلهم سموا اليبوسيين نسبة إليها. ولما جاء اليهود من التيه بقيادة يشوع بن نون وأحتلوا البلاد حاولوا إستملاك القدس فعجزوا عنها وظلت في أيدي اليبوسيين إلى أن حاربهم داود فحاصرهم وهدم أسوارها ودخلها عنوةً وجعلها عاصمة ملكه وضرب على اليبوسيين الجزية حتى أيام سليمان. وقد ذكر في التوراة أن داود أشترى بيدر أرونة اليبوسي (ساحة الحرم الآن) ليبني هناك هيكلاً فلم يتوفق غير أن أبنه سليمان أنجز هذا العمل. ومن ملوكهم أدوني صادق وملكي صادق .

د- الفينيقيون

هم فرع من الأقوام الذين سكنوا فلسطين وأبوا الخضوع لغيرهم من الشعوب القوية التي هاجمتهم فظلوا يقاومونهم. ولما عجزوا عن حماية بلادهم وعز عليهم الإستسلام والطاعة لأعدائهم أنسحبوا إلى الشمال وكانوا يترقبون الفرص لإسترجاع منطقتهم وإستخلاصها فكانوا في ذلك مع العبرانيين

كالأسبانيول مع العرب حين هاجمهم العرب فأعتصموا بالجبال وظلوا ينتهـزون الفرص حتى سنحت فأنقضوا على أخصامهم وأستعادوا ملكهم غير أن الفينيقيين لم يفوزوا كالإسبانيول في نهاية أمرهم. أما الفينيقيون فأنهم وأن لم يسكنوا فلسطين فقد كانوا من بقايا أهلها وتاخموا حدودها وأثروا على تاريخها. وقد ظهر في نقوشهم المكتشفة حديثاً أنهم كنعانيون لذلك حق لنا البحث عنهم لما لهم من الشهر الفائقة والذكرى الحميدة في العصور الأول ولأنهم كانوا شعبة من الأمة السامية ولغتهم شقيقة لغتنا بشهادة نقوشهم وحروف هجائهم ولا ريب أنهم كانوا أعظم أشهر الأمم القديمة التي سكنت سوريا وفلسطين مع أنهم أكتفوا بالساحل ما بين طرابلس الشام وحيفا. ومن أهم مدنهم صور وصيداء وبيروت وطرابلس. وقد كان الفينيقيون وملكهم حيرام حلفاء سليمان فعاونوه على بناء الهيكل ونقلوا إليه الخشب مع احراج لبنان عن طريق البحر إلى يافا. وكان لهم مهارة فائقة في البناء "المعمار" والصناعة التي كانت مفقودة عند اليهود وتزوج آخاب ملك إسرائيل إيزابل الفينيقية رغم نواهي دينه وإرادة شعبه إذ كان محرماً عليهم أن يخالطوا سواهم لأنهم شعب ا لله الخاص على زعمهم وغيرهم أمم وهذا لعمري منتهى التعصب الجنسي. فرغبة الملوك في محالفتهم ومصاهرتهم دليل بين على عظمتهم وأرتفاع شأنهم. ولقد ورد ذكرهم في أنجيل مرقس عند قوله إن أمرأة فينيقية طلبت من المسيح أن يشفي أبنتها .

تجارتهم : كانت بلاد فينيقية حلقة أتصال بين قوافل العراق والشام ومصر ولذلك كان أهلها دعاة المدنية المصرية والسبب الأقوى في نشرها ونقلها إلى

جميع الأقطار التي ذهبوا إليها. ولأن بلادهم كانت ضيقة يكتنفها البحر من الغرب والجبال من الشرق لذلك أضطروا إلى مزاولة التجارة فخاضوا من أجلها لجج البحار واقتحموا الأهوال والأخطار وكان ذلك عليهم أمراً هيناً لأنهم جاوروا البحر وعرفوه وأجرأ الناس على الأسد أكثرهم رؤية له. وقد تدرجوا في أسفارهم البحرية من جزيرة أرواد إلى قبرص ورودس ومصر والأرخبيل الرومي واليونان وشمال أفريقيا ومرسليا وأسبانيا وإنكلترا. أسسوا مستعمرة عظيمة في شمالي أفريقيا (قرطجه) التي زاحمت رومية وهددت كيانها أما صناعتهم فكثيرة أهمها الزجاج الملون والأرجوان والنحاس. وأما خدمتهم للمدينة فمنها نشر الحروف الهجائية التي أعطوها لليونان فتداولوها بينهم ثم وزعوها على الأمم الأوروبية.

ومنها اختراع المقاييس والعيارات للوزن. وكانت ديانتهم وثنية منحطة ومن آلهتهم "بعل" و"عشتاروث" و "مولوك" التي كانوا يذبحون لها أولادهم ويقدمون لها قرابين .

هـ- الفلسطينيون :

من الواجب علينا أن نعرف تاريخ الفلسطينيين أكثرهم لأنا ورثنا أسماءهم وامتلكنا بلادهم ووطنهم فرأينا لذلك أن نسهب في ذكر تاريخهم إسهاباً لا يمله القارئ ولا يشف كثيراً عن جمود ذلك العصر المظلم فنقول:

ليس الفلسطينيون من أسرتنا السامية وأنما هم من الشعب الأرياني وعلى الغالب أنهم قدموا بلادنا من جزيرة كريت عن طريق آسيا الصغرى

"الأناضول" أو عن طريق مصر عندما قاتلهم رعمسيس وقهرهم وأسكنهم الساحل ما بين يافا وغزة ولما عظم شأنهم حاربوا مدينة صور وهدموها ومن مدنهم العظيمة غزةوأسدود وعسقلان وعقرون "عاقر" وجت. وكانوا وثنيين يعبدون الأصنام والتماثيل وكان عندهم صنم يدعى داجون نصفه الأعلى شبه إنسان والأسفل كالسمكة وكان له هياكل كثيرة في إسدود وغزة وعسقلان وبيت دجن التي سميت بإسمه وهي بقرب يافا ولعل مجاورتهم البحر هي التي جعلتهم يرجحون عبادة الأسماك على سواها من معبودات الوثنيين .

دخلوا البلاد وأستولوا على غربها وجنوبها بعد مجيئ اليهود بستين سنة وقد تنازع الأمتان البلاد وأستمرت بينهما الحروب سنين عديدة وكانت اليهود تستطلع أخبار الفلسطينيين من جبل النبي صمويل الواقع (على بعد ٧ كيلو مترات من شمال القدس الغربي) وترقب من السهل سائر أعمالهم ولم يقو فريق منهما على إخضاع الآخر فأستطال الخصام وأستفحل الشر وغرست البغضاء في النفوس وحقد الفلسطينيون على أعدائهم وحاربوهم في عقر دارهم "مرج ابن عامر" وهزموهم هزيمة منكرة حتى أن شاوول ملك اليهود من شدة غيظه قتل نفسه على جبل جلبوع شرقي مرج بن عامر قرب جنين فأخذ الفلسطينيون جثتهُ وجثة ولده يوناثان وعلقوهما على أسوار "بيسان" في الغور شرقي المرج.

ظهر من الفلسطينيين جبابرة منهم جليات "طالوت" الذي قتله البطل الفتيّ داود بحجر من مقلاعه قبل أن كان ملكاً أو نبياً. أمتدت المشاحنات بين

الأمتين وظهر شمشمون أحد قضاة بني إسرائيل فحـاربهم وأزعجهـم ولكنهـم أخيراً أسروه وقلعوا عينيه وحبسوه حتـى مـات في غـزة وقـبره هنـاك معـروف تحول إلى جامع شرقي المدينة ويقال به "أبو العزم شمشون الجبار" .

أمتزج الفلسطينيون بغيرهم فأنقرضوا وتحوولوا كمـا تحـول سـواهم مـن الأمم الغابرة إلى أجناس وعناصر أخرى أما اليهـود فلكونهـم عاشـوا منفرديـن معتزلين الأمم الأخرى وحرموا التزاوج مـع غـيرهم وحـافظوا علـى جنسـيتهم الأصلية بحرصهم على قواعد الدين ظلوا إلى يومنا هذا منتشرين في سائر أقطار الكرة الأرضية يحنون إلى فلسطين ويطلبون الرجوع إليها كما ورد في شعر إبن اللاوي الأندلسي الذي كانت روحه تطير مـن الأندلـس علـى أجنحـة أشـعاره وترفـرف فـوق صهيـون وفلسـطين قبـل ٨٠٠ سـنة. ومـن أعجـب الحـوادث التاريخية أنهم يطلبون الرجوع إليها والتوطن فيها بعد أن تركوها ١٩ قرناً ومـا ندري ماذا يكون جواب الأمم التي سكنت فلسطين قبل اليهـود وبعهدهـم إذا إستشرناهم في أمرها وسألناهم عمن هو الأحق. والبحث عن الفلسطينيين بحث واسع وأن أراد التفصيل في ذلك فليراجع كتابي الأستاذين جـورج آدم سميـث ومكالستر فأنهما قد وفيا هذا الموضوع حقه .

و- القبائل الأخرى:

(١) الأدوميون: أولاد عيسو بن إسحق وكانت منـازلهم جنـوب البحـر الميـت كانوا قبائل وفرقاً وقد حاول شاوول أن يتغلب عليهم في القرن العاشـر ق.م فلم يحل بطائل. ولمـا تـولى داود أخضعهـم وأحتـل بلادهـم وجعـل

عليها حامية مـن جنـده فهـمَّ أحـد قوادهـم في عصـر سـليمان أن يخلـع الطاعة فلم يفلح وظلوا تحت سيطرة الإسـرائيليين إلى أيـام يهوشـا فـاط فمالاوا أعداءه وأعانوهم على حربه ولما حمل نبوخذ نصر على أورشليم أعانوه على نهبها وذبح أهلهـا فكافـأهم وأيـد سـلطتهم في أدوم ووسـع حدودها من تخوم مصر حتى البحر المتوسط فداهمهم الأنباط "العـرب" وملكوا بلادهم وكان بذلك أنقراض ملكهم دولتهـم. ومـن مشـاهيرهم هيرودس الأدومي حاكم فلسطين ومساعد الرومان في تأييد نفوذهم أيام المسيح وقد لعب دوراً هاماً في التاريخ كما سيأتي.

(٢) المؤآبيون: من أبناء لوط ومنازلهم بين نهر أرنون "الأزرق" وتبوك وعربات مؤآت قبالة أريحا التي أستولوا عليها فوضع سبط بنيـامين الجزيـة عليهـم مدة ١٨ سنة في زمن ملكهم الذي قتله آهود .

(٣) العمونيون: من ذرية لـوط نسـل إبـن عمـي ومسـاكنهم في جهـة السـلط وعمان والزرقاء .

(٤) العمـاليق: كـانت مواطنهـم صحـراء سينا بين المصريـين والفلسـطينيين والكنعانيين ومن ملوكهم كدرلعومر وهم القـوم الجبـارون الذيـن حـاربوا بني إسرائيل وتغلبوا علـى جدعـون وشـاوول حتـى أمتـدت سـلطتهم إلى جوار نابلس ولم يكن لهذه القبائل حكومات منظمة أو إدارات مرتبـة بـل كـانوا أشـبه شـئ بقبـائل جنوبـي فلسـطين وشـرقي الأردن مثـل الـترابين والتياها والعزازمة والجبارات والعدوان وبني صحر والحويطات وغـيرهم.

فكانت كل قبيلة تلتف حول شيخها وهو الحاكم والقاضي والقائد وقد عنوا بأمر الزراعة وتربية الماشية وشن الغارة والسلب والنهب ولم يكن لأحد سلطان عليهم ولا دين لهم يرجعون إليه فالقوي يأكل الضعيف ومن شعر لعجزه وآنس في خصمه القوة أضطر أن يتخذ له حليفاً ليتقوى به شأن القبائل البدوية في يومنا هذا.

(٥) الأنباط: وهم أمة عربية جرفت بقايا الأدوميينوأسست ملكاً في وادي موسى وقد غزاهم إنطيوخوس سنة ١٣٢ ق.م فإرتدّ مخذولاً ولما حاصرهم ديمتريوس أطلّ عليه أحدهم وخاطبهُ قائلاً: "لماذا تقاتلنا ونحن مقيمون في بادية أتحار بوننا لفرارنا من الرق؟ فإنسحب ديمتريوس برجاله وشيدوا حكومة منتظمة بملوك ووزراء وضربوا النقود ومن عظماء ملوكهم الحارث الثالث الذي تغلب على البقاع بسوريا وملك دمشق سنة ٨٥ ق.م وساعد هركانوس المكابي على أخيه أرستو بولس .

والحادث الرابع: وهو حمو هيرودس أنتيباس الذي حاربهُ الحارث لتزوجه على أبنته وكانت أبنة الحارث تحب هيرودس فتزوج عليها زوجة أخيه هيروديا أبنة أرستو بولس فشق ذلك عليها وذهبت إلى بيت أبيها الحارث وذكرت له الخبر فإستشاط غضباً وحارب هيرودس فانتصر عليه إنتصاراً كبيراً ولم ينج هيرودوس منهُ إلا الفرار. وقد أمتدت مملكة الأنباط حتى شملت من الغرب جزيرة سينا ومن الشرق حوران وحدود العراق وبلغت من الجنوب وادي القرى. وظلت بلادها مركزاً تجارياً بين جميع الأقطار المعمورة وكانت

وسائل النقل موفورة لديها كالسكك الحديدية الأوربية والأميركية في القرن العشرين وأخيراً حمل عليهم الأمبراطور تراجان فبدد شملهم وقضى على مدينتهم سنة ١٠٦م فأندمجوا في غيرهم وأصبحوا أثراً بعد عين. ومن أعظم مدنهم بطرا وبصرى وأذرع وعمان وجرش والكرك والشوك وأيله والحجر وصلخد ومادبا ودمشق .

وعدد ملوكهم ١٨ منهم عبادة الأول، عبادة الثاني ومالك والملكة خلد، الملكة شقيلة، ريبال، الملكة جميلة، وهذا مما يثبت أنهُ كان للمرأة في العصور الأولى مثلما كان للرجل من الحقوق والواجبات.

الفصل الثانى

اليهود في فلسطين

(٦) الدور القبائلي – أو دور البداوة:

اليهود قبيلة سامية هاجرت من العراق "أورالكلدانيين" سنة ٢٠٠٠ ق.م برئاسة إبرام الذي صار نبياً وتسمى بعدئذ ابراهيم. ساروا في الطريق التي يسلكها اليوم المسافرون بين العراق وسوريا شمالي نهر الفرات حتى وصلوا شمال سوريا ثم انعطفوا إلى الجنوب حتى أنتهوا إلى أرض كنعان "فلسطين" وكان ابراهيم يرتاد البقاع الخصبةليرعى ماشيته وقد ورد ذكره كثيراً في الكتاب المقدس وقدّم أبنهُ إسحق ذبيحة – على رأي التوراة وعلماء المذهب الحنفي – على جبل موريا مكان الحرم الشريف الآن .

أما مدينة حبرون فقد أهمل أسمها القديم وسميت بالخليل نسبة إلى إبراهيم الذي دعي خليل ا لله لأنهُ سكن هناك وأشترى مغارة المكفيلة (حرم الخليل) وفي الجنوب الغربي من المدينة قرب قرية الظاهرية واد كبير ومرعي واسع يقال له "وادي ابراهيم" يزعمون أنهُ كان يرعى مواشيه فيه ولا يزال حتى الآن وقفاً تنفق غلته على وظائف الحرم الخليلي .

ولد لإبراهيم أبنان إسماعيل من جاريته هاجر وإسحق من زوجته سارة التي كانت من قومه العراقيين فولد لإسحق يعقوب الذي دعي بعدئذ إسرائيل

وأصبح اليهود ينتسبون إليه ويعتقدون أنهم تحدروا من صلبه .

خلف يعقوب ١٢ غلاماً فاضطرهم مجاعـات فلسـطين المتواليـة لإنتجـا ع مصر ملتجئين إلى حوض نيلها الخصب حيث إستعبدهم هناك الفراعنـة غـير أن النقوش والألواح المصرية أغفلت خبر الإسرائيليين ولم تذكر عنهم شيئاً كما أن كثيراً من نقدة التاريخ أغفلـوا ذلـك أيضـاً. وأنكـروا ذهـاب بـني إسـرائيل إلى مصر ولذلك يجمل بنا ألا نتسرع في الحكم بـل ننتظـر مـا سيكتشـف في مصـر وسورية بالحفريات والآثار عليها تهدينا إلى معرفة الحقيقة والصواب .

ظل الإسرائيليون مشرّدين إلى أن نبغ فمنهم موسى فأرسـله ا لله نبيـاً إلى قومـه فـأنقذهم مـن غربتهـم وعـاد بهـم إلى أرض كنعـان عـن طريـق الجنـوب الشرقي .

كان موسى نبياً ورجلاً عالماً بل مشّرع اليهود الكبـير ومصلـح عقـائدهم وإليه تنسب الوصايا العشر التي هي مصدر الأخلاق ونواة الأديـان وأنـا نثبتهـا ههنا وان كانت حفريات العراق الأخيرة تدل على أن الشريعة اليهودية وأكثر النواميس العبرانية مقتبسة من الشرائع الحمورابية لكونها أقدم من موسـى وهـا هي الوصايا المذكورة:

(١). لا يكن آلهة أخرى أمامي.

(٢) لا تصنع تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما .. إلخ.

(٣) لا تنطق بإسم الرب ألهك باطلاً.

(٤) أذكر يوم السبت أي أعمل ستة أيام واسترح اليوم السابع.

(٥) أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض.

(٦) لا تقتل.

(٧) لا تزن.

(٨) لا تسرق.

(٩) لا تشهد على قريبك شهادة زور.

(١٠) لا تشته بيت قريبك ولا شيئاً مما له.

ويظهر من الوصية الأولى أن اليهود أسبق شعوب فلسطين التوحيد وأن موسى أول من قال "لا إله إلا الله" بخلاف غيرهم من الشعوب العربية والبابلية والمصرية الذين أتخذوا من دون الله آلهة كثيرة ونعتها كل فريق بما يناسب أقليمه وبيئته.

وإذا سلمنا بنص التوراة وأقوال المؤرخ الشهير يوسيفوس نجد أن قائد بني إسرائيل الذي فتح فلسطين كان يشوع بن نون وهو الذي عبر بجيشه وأحتل مدينة أريحا من الكنعانيين. ولكن لا يذهل القارئ ولا يتوهم أن جيش اليهود كان منظماً مدرباً كالفيالق العصرية بل كان أشبه بقبائل ألحّ عليها القحط وخافت عدواً ففزعت إلى الرحيل وأمت أقليماً آخر تتلمس فيه الحياة لتنقذ نفسها من براثن الجوع والهلاك. ولذلك كانت كل قبيلة من اليهود وقتئذ خاضعة إلى أميرها منقادة إلى زعيمها على أنهم كانوا كثيراً من الأحيان

يتمردون على مرشديهم وقوادهم ويتذمرون منهم لما يرونه من وعودهم الخلابة وهذا مما يدل على أن الطبائع البدوية لا تخضع لأحد إلا مكرهة مرغمة.

نعم احتل اليهود فلسطين بحد السيف وبقسوة شديدة ولكن ذلك الإحتلال لم يكن منظماً ولم يستطيعوا أن يبيدوا جميع أعدائهم إذ أن الفلسطينيين ما أنفكوا عن مقاومة اليهود حتى أواخر أيامهم وقد أزعجتهم قبائل المديانيين (شعب عربي ورد ذكرهم في القرآن حيث يقول" وإلى مدين أخاهم شعيباً") وضيقت عليهم مذاهبم. فيروى عن شيخ يهودي أسمه جدعون أنه كان يدرس قمحه في المعصرة ليخفيه عن أعين المديانيين ولا يأمن من أن يبقيهُ في البيدر. وقد نحت بنو إسرائيل الكهوف والمغاور وبنوا الحصون أتقاء من شرهم وتخلصاً من غاراتهم ومع هذا فلم يظفروا بأمنيتهم إذ أن المديانيين والعمالقة وأهل المشرق كانوا كلما حان وقت الحصاد ينهبون زرعهم ويأكلون ثمارهم .

وقد شدد زعيم الإسرائيليين جدعون في تحريم المديانيين وفقاً للشريعة اليهودية فلم ينجح وظل اليهود محتكين بهم وتزوجوا بناتهم وتركوا يهوه إلا هم وعبدوا آلهة البلاد وأصنامها فضعفت بذلك الرابطة اليهودية وأنحلت العصبة القومية وظلوا قبائل متفرقة فعجزوا عن إبادة الخيران والسكان مع محاولتهم ذلك حتى أنهم جبنوا عن رد هجمات القبائل البدوية التي يمكننا أن نشبهها للقراء بالغارات التي تحدث شرقي الأردن ولا باعث لها إلا أخذ الثار

أو حب الغزو والتغلب .

(٧) عصر القضاة:

كان بنو إسرائيل كلما أنتابتهم الصدمات ينبت فيهم رجال عظام "القضاة" فكأن الشدائد كانت محكاً لهم تميز منهم الخبيث من الطيب وتظهر من بينهم معدن الرجل العظيم فينتخب قاضياً لسبط ثم يجتمع عليه بعض شيوخ الأسباط فيولونه أمرهم وتبقى الإدارة الداخلية لهم وحكم القاضي ينفذ في الجميع ولم يكن هذا المنصب وراثياً بل كان منحة تتارى في أحرازها همم الأبطال وربما تعددت القضاة في آن واحد فيجتمعون ويحاربون أعداءهم. ودامت مدة حكمهم من سنة ١٥٩٥ ق.م. – سنة ١٤٢٠ ق.م. وتميماً للفائدة نذكر هنا بعض مشاهيرهم.

(أ) جدعون: وهو من قرية عفرة وربما كانت طيبة بني سالم وتبعد عن رام الله ١٢ كيلوا متراً لجهة الشرق الشمالي وقد حارب المديانيين وأراح قومه من شرهم (سفر القضاة ص ٦ : ٨،٧) وحاول أن يجمع كلمة اليهود تحت لواء سلطته إلا أن عراقتهم في البداوة وفقد شعور الاتحاد والتضامن من نفوسهم جعل ذلك عليه مستحيلاً .

(ب) شمشون : وهو من قرية صرعا الحد الفاصل بين السهل والجبل وهي من بلاد الخليل "العرقوب" واقعة بين القدس والرملة ويمربها الخط الحديدي. وكان شمشون جباراً ذا بأس وقوة وله مواقف مشهورة في محاربته الفلسطينيين الذين كانوا أخصاماً الداء لقومه اليهود (سفر القضاة ص١٣) وينسبون سبب

قوته إلى استرسال شعره فإذا طال قوي وأن قصر ضعف ويقال أنه نزل يوماً إلى أشقلون "عسقلان" وقتل ثلاثين رجلاً فلسطينياً وأخيراً أسره الفلسطينيون ومات في غزة كما ذكرنا.

(ج) صموئيل: ولد في قرية الرامة "الرام" التي تبعد ٩ كيلو مترات عن القدس لجهة الشمال الغربي وكان كاهناً تولى القضاء سنة ١١٤١ ق.م. على كل أسباط بني إسرائيل وبقي قاضياً زمناً طويلاً وأشتهر بعدله واصالة رأيه وإصابة أحكامه وإخلاصه وأمانته وغيرته علىمصلحة أمته وهو آخر القضاة وأول من اجتمعت عليه كلمتهم ثم أوحي إليه بالنبوة. وبعد أن مضى عليهم ٤٠٠-٥٠٠ سنة أدركوا أضرار التفرقة وعرفوا منافع الوحدة والتضامن فاقتبسوا من جيرانهم وقلدوهم في ادارتهم ومالوا إلى الحضارة ونسوا البداوة فاتحدت أمیالهم وأتفقوا على أن يقيموا منهم ملكا فطلبوا إلى النبي صموئيل أن يختاره لهم فمسح "توج" شاوول وكان يؤنبهُ إذا حاد عن سنة ا لله وشريعته لأن رئيس السلطة الروحية مسيطر على رئيس الحكومة الزمنية .

(د) دبوره: كثيراً ما قامت النساء بأعمال خطيرة فظلمهن المؤرخون وغضوا من شهرتهن ولكنا نذكر بعض من أشتهر منهم فنقول: كانت دبورة فتاة من سبط إفرايم ومن سكان قرية عطارة عند بناء المعلوف (بين القدس ورام ا لله) فكانت تجلس تحت نخلة وتقضي لشعبها ثم صارت نبية وقادت الجيوش لما جبن باراق اليهودي عن محاربة سيسرا الكنعاني فجندت عشرة آلاف مقاتل ونهدت بهم إلى جبل طابور شرقي مرج ابن عامر وحاربت الكنعانيين

وكسرت جيشهم وبددت شملهم ولقد حجبت شهرتها أسم زوجها لفيدوت حتى أصبح يعرف بها وينسب إليها. أن عمل دبوره هذا لا يقتل عن عمر بواديسيا (Boadicia) البريطانية التي حرضت قومها ضد الإحتلال الرومانى بل يشبه عمل جان دارك الفرنسية التي أخرجت الإنكليز من فرنسا ويماثل مجازفة زنوبيا العربية ملكة تدمر التي قاومت سلطة الرومان واستماتت في حماية بلادها والذود عن ملكها ونظير هؤلاء كثير في النهضة الإسلامية فعائشة أم المؤمنين قادت جيشاً عرموماً وحاربت به علياً في العراق "وقعة الجمل" والفارعة أخت الوليد الشاري وغزالة زوجة شبيب الخارجي واخت ضرار .

(٨) اليهود كأمة:

لما دخل بنو إسرائيل البلاد كانوا فرقاً وأحزاباً لا رابطة تجمعهم ولا عصبية توحدهم بل كانوا منقسمين إلى أثني عشر سبطاً "قبيلة" كل سبط يستمد قوته من نفسه فكان يهددهم أعداؤهم الكنعانيون ويبطش بهم الفلسطينيون ويذلهم المديانيون إلى أن علموا وتحققوا أن لا خلاص لهم إلا إذا اتحدوا وأشتركوا جميعهم في الدفاع عن كيانهم وأن لم يفعلوا آل أمرهم إلى الفناء والدمار .

هذه حالة طبيعية في الأمم متى رأت كيانها الإجتماعى مهدَّداً تتحد كلمتها لدفع الضرر العام الذي يشمل جميع أفرادها فإذا زال السبب العامل رجعوا إلى شيمتهم الأولى. مرَّ على بني إسرائيل ٥٠٠ عام والدهر يلقي عليهم عظاته ويعلمهم أن لا قيمة للشعب المتخاذل أمام الجمع المتماسك مجبور على

أن يتطور بحسب زمانه فيكثر في زمن كانت فيه الغلبة للكاثر ويتعلم في عصر سادت فيه العلماء ويجمع المال في قرن حظي فيه الأغنياء ففقهوا هذه العظة واتفقوا لأول مرة وطلبوا إلى النبي صموئيل أن يختار لهم ملكاً فمسح عليهم شاوول* سنة ١٠٩٥ أميراً عاماً على جميع إسرائيل وبقي لكل سبط أمير خاص يحكم شعبه خاضعاً للسلطة العليا .

(أ) شاوول: كان أول ملوك الأمة اليهودية ولكنه لم يتخذ مركزاً ولم يختط عاصمة لأن حياته كانت عسكرية وحلقات حروب متصلاً بعضها ببعض فلم تمنحه الأعداء فرصة لتكوين أمته وأحداث لوازمها فكان لا يفرغ من جهة إلا انصرف إلى أخرى ولا يصدر عن غزو قوم إلا غزا آخرين. فحارب العمونيين واستأصلهم ثم قاتل العمالقة والموآبيين والأدوميين وخضد شوكتهم وفلّ حدّهم. أما الفلسطينيون فكانوا خصومه الألداء الذين قاوموه وجاوزوا حدودهم الساحلية وتوغلوا في البلاد العبرانية حتى قرية مخماس الواقعة شمال القدس الشرقي والحوا على العبرانيين فهزموا شاوول وجيشه في مرج إبن عامر فقتل نفسه خوف أن يأسره إخصامه الناقمون عليه. وقد دلت الحفريات الأخيرة في تل الفول أن شاول لم يحكم إلا جزءًا صغيراً من فلسطين .

(ب) داود: ولد في بيت لحم وكان له عدة أخوة ثم رعى الغنم في حداثته وهي مهنة الأنبياء. فإبراهيم وموسى ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم)

---

* كان شاوول من أصغر أسباطهم وأحد أسرهم وأنما أجمعوا عليه لما كان فيه من الوسامة والجسامه ولأنه كان يفرع القوم طولاً واشتهر بالبسالة والأقدام .

رعوا الغنم وأطلق هذا اللقب الجميل "الراعـى الصـالح" علـى السـيد المسـيح. فكأن ا لله يجرب الإنسـان برعاية الغنـم قبـل إرسـاله نبيـاً فـإن رآه رؤوفـاً أمينـاً أرسـله إلى البشـر ولا ريـب أن كـل راع يحتـاج إلى ثقـة رعيتـه الـتي تطالبـه بالإخلاص لها. فإن لم تتوفر فيه هذه الشروط نزعوا منه ثقتهـم فعـاد بالخسـران المبين.

كان داود مخلصاً لرعيته فقتل دباً وأسداً علـى تـلال بيـت لحـم ذبـاً عـن قطيعه. وقتل جليات "طالوت" الجتي زعيم الفلسطينيين دفاعـاً عـن قومـه. وفي إبان فتوته نال ثقـة شـعبه فكـان حـاجب الملـك "يـاوره" وبعـد مـوت شـاوول انتخب ملكاً على سبط يهوذا سنة١٠٥٥ ق.م. وحاربه إيشبوثث بن شـاوول مع الأسباط العشرة الذين لما أخفقوا في مبتغاهم انتقضـوا عليـه وقطعـوا رأسـه وقدموه إلى داود. وبعد سبع سنين ونصف من حكمه توجّ ملكاً على الأسـباط كافة وظلت عاصمتـه الخليـل حتـى أنـتزع القـدس عنـوة مـن اليبوسـيين سـنة ١٠٤٩ ق.م. وجعلها مقر مملكته وقضى مدة حياته في الحروب والكفاح يناضل عن أمته ويصد غارات الغزاة ويسكن القلاقـل الداخليـة والفتـوق العائليـةلأن المفسـدين أغروا أبنهُ بشالوم وأطعموه في الملك حتى خرج على والده وحار بـه فلاقى جزاء عمله ومات غير مأسـوف عليـه إلا مـن أبيـه الـذي رثـاه بشـعره الرقيق ونغماته الموسيقية المشهور. ويقـال أن قـبر داود علـى جبـل صهيـون في المحل الذي يسمى "النبى داود" وحارة "الدواهـدة" مجـاورة لضريحـه الشـريف. وبعد وفاته مسح أبنه سليمان ملكاً على جميع أسباط بني إسرائيل.

(ج) سليمان : أن كلمة سليمان مشتقة من سلم ومعناها باللغة الكنعانية "المسالم" ضد المعادي. وبالفعل فإن السلام والأمن سادا طول حياته ومدة ملكه لأن أباه داود كفاه الأعداء بفوزه عليهم وذلل له الصعاب فأسلمه الملك سنة ١٠١٥ هادئاً ساكناً فقام بأعبائه وحول نظره لتوسيع حدود مملكته وبناء مدنيتها فتجاوزت ما وراء فلسطين. ويقول كتاب اليهود أن مملكة سليمان أمتدت "من الفرات حتى حدود مصر" . فضخمت دولته وعظم شأنه وعقد معاهدات سلمية مع جيرانه ومن حوله من الأمم .

فإذا قابلنا هذه الحالة بحالتهم في عهد جدعون لما كان بنو إسرائيل لا يأمنون على بياردهم وكرومهم من غارة أعدائهم عرفنا فائدة الاتحاد والتآزر.

رهت أيام سليمان وأزهرت حضارتها فكثرت الأموال المقنطرة في خرائنه من الجزية المؤداة من خصومه والضرائب التي أثقلت كاهل أمته فانغمس في البذخ والترف فنقمت عليه رعيته هذا العمل ساخطة لتلك الشدة التي كانت من أكبر العوامل الأساسية في انقسامهم إلى مملكتين.

لا ريب أن من أعظم الأسس الأقتصادية لإنماء الثروة هو الأمن الداخلي فإذا أستتب أمنت الناس وتنافسوا في أنتاجها وجدُّوا في أحداثها ومن تتبع عصر سليمان عرف أن البلاد كانت آمنة مطمئنة ولذلك كثرت الأغنام والمواشي والحجارة الكريمة والرياش الفاخرة والعاج الثمين ولو لم يكن الإنسان أميناً لما استكثر من ملذات الحياة وطيباتها.

أرسل ا لله سليمان نبياً حكيماً وهـذه قصة تبرهن على حسن فراسته وفطنته: سكنت امرأتان في بيت وولدتا في يوم واحد فاضطجعت أحداهما على أبنها ليلاً وأماتتهُ فقامت مسرعة وبدلت طفلها الميت بطفل رفيقتها الحي ولما استيقظت أم الولد وجدت الطفل الذي بجانبها ميتاً ولكنهُ ليس بابنها فغضبت وخاصمت رفيقتها عند سليمان وبعد أن سمع قصص كل منهما فكر قليلاً ثم قال إئتوني بسيف وأمر بشطر الولد الحي إلى قسمين وإعطاء كل أمرأة نصفاً فتحرّك حنان أمه وقالت أعطوه لها فإني سامحتها به فأجاب سليمان أعطوا الولد الحي لها فأنها أُمه وأحق به من غيرها. ويروى أن بلقيس ملكة اليمن قطعت الفيافي والصحراء سنة ٩٢٢ ق.م. رغبة في مشاهدة حكمة سليمان واشتياقاً لرؤية عدله .

وسنة ١٠١٤ ق.م. تزوج إبنة فرعون آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين من الدول المصرية وأعطاها والدها مدينة جازر "أبو شوشة" بائنة العرس (دوطة) .

ومن أجل أعماله بناء الهيكل الذي صار مهبط آمال الأمة اليهودية وهو شبيه بالكعبة عند عرب الجاهلية من حيث تكوينه الأمة اليهودية وتوحيدها فكما ربطت الكعبة العرب بقريش لكونها قبلتهم كذلك شأن الهيكل عند العبرانيين.

فوجود أثر مقدس بين ظهراني أمة يمهد لها الاتحاد وعدم التفرقة. ولولا المعاهدة السلمية التي عقدت بين اليهود والفنيقيين لما تم بناء الهيكل لأن

الفنيقيين هم الذين نقلوا إليه الأخشاب من جبل لبنان وساعدوهم في إتقان البناء والنقش والهندسة لأنهم وقتئذ لم يكونوا يحسنون من الصنائع النفيسة شيئاً وقد تم بناء الهيكل في سبع سنوات ويرجح أن أحجاره قطعت من الحجر المسمى مغارة سليمان الآن وهي واقعة تحت المدينة إلى الشرق من باب العمود (راجع تاريخ القدس) .

ومن آثار سليمان الباقية إصطبله الكائن تحت المسجد الأقصى وبرك سليمان الواقعة جنوب بيت لحم وبعض آثار أخرى لا قيمة لها مثل أحجار المبكى فكان هذا العصر خير أيام بني إسرائيل بل واسطة عقد ماضيهم المؤلف من ثلاث خرزات فقط الأولى شاوول والثانية داود والثالثة سليمان وبعد أنتظام الخرزة الأخيرة في القلادة أنقطع السمط وتفرقت الكلمة فأنقسمت المملكة وانحدروا في هاوية الإنحطاط .

(٩) إنقسام المملكة وخرابها

التاريخ يعيد نفسه ولو أيقظتنا مواعظه لما لدغنا من حجر مرتين فأنه ألقى علينا دروساً عملية واثبت لنا مراراً "أن القوة بالاتحاد والضعف مبدأه الانقسام" ولكننا ما زلنا نتغافل عن كل هذا ونؤول الحوادث كما نريد نحن لا كما تريد السنن الطبيعية وربما يستغرب القارئ كيف انقسمت فلسطين إلى مملكتين مع أنها جميعها أصغر وأقل من أن تكون مملكة واحدة ولكن يزول عجبه إذا عرف أن سبطي يهوذا وبنيامين عاشا بعيدين عن أسباط إسرائيل العشرة فاختلفت بينهم مذاهبهم واشتجرت بينهم الضغائن وكان كلما بدرت

غنيمة سيما عند تعيين الملوك ينضم يهوذا إلى بنيامين ويختارون ملوكاً من أنفسهم فتغضب إسرائيل لذلك وقد نفروا من شاوول لأنه كان من سبط بنيامين وخافوا بطش داود فاستسلموا إليه مكرهين وأذعنوا إلى سليمان لأنه كان إدارياً حكيماً فضبط جميع إسرائيل وأخلدوا إلى طاعته وفي أواخر أيامه مقتوا حكمهُ فقسا عليهم وحاول قتِل يربعام بن ناباط ففر إلى مصر معتصماً بالملك شيشق وتربص حتى ولي الأمر رحبعام الذي كان غراً جهولاً وفظاً قاسياً خشناً فعاشر الفتيان ونبذ العقلاء المدربين ونكب عن طريق الحق فسألوه تخفيف ما عليهم من الضرائب والاقلاع عن تبذير الأموال فجابهم قائلاً أنهُ سيعاملهم بأشد مما عاملهم به أبوه واستمر على المغالظة والجفاء والشدة إلى أن أكبروا عمله وجاهروا بعدائه فسار شيشق من مصر ونزل على القدس فأفتتحها وأختلس أواني الهيكل الذهبية وتوج دخيله يربعام ومن ذلك الوقت انقسمت البلاد إلى مملكتين صغيرتين الأولى "إسرائيل" وهي الواقعة في الشمال من القدس والثانية يهوذا وهي الواقعة بين القدس وبئر السبع .

(١٠) مملكة إسرائيل من سنة ٩٧٥ إلى سنة ٧٢٢ ق.م.

انشطرت البلاد شطرين فكان أول ملوك القسم الشمالي يربعام بن ناباط الذي كبر عليه أن تخرج القدس من مملكته وهي مهبط آمال اليهود وقبلتهم التي يوجب عليهم دينهم أن يحجوا إليها ثلاث مرات في السنة وخاف من الحجاج إن هم أبصروا تلك الآثار الفخيمة وأبهة الملك وعظمته أن تنصرف قلوبهم عنه ويضعف إيمانهم به لذلك عزم على بناء مذبح في بيت إيل لإنه محل

مقدس ليرتاح من هذه الأحلام المزعجة فيأمن على مركزه ويكـون قـد أرضـى بذلك قومه والهاهم عن زيارة القدس وأشغلهم عن التعلـق ببـلاد عـدوه وهـذا العمل يشبهُ ما جرى لعبد الملك بن مروان فأنهُ بنى الحرم الشـريف أثنـاء ثـورة عبدالله بن الزبير ليستعيض به مؤقتاً عن الكعبة المكرمة وهكذا رجال السياسـة وأربابها إذا ضاقت بهـم الأمـور بعثوا عاطفـة الديـن وهزوهـا لتنفيـذ مـآربهم وبلوغ أمنيتهم. أن يربعام بن ناباط هو أول من نقل عبـادة الأصنـام والتمـاثيل من مصر ووضعها في الهيكل لإنه انتحل عبادتها أثناء إقامته بينهم فهو مؤسـس عبادة الأوثان وباني حكومة إسرائيل التي تداولها ١٩ ملكاً في مدة ٢٥٤ سـنة ولكنهم لم يكونوا من سلالة واحدة بل من أُسر شتى وكثيراً ما كان يخرج على الملك قائد أو طامع فيختلس الملك منهُ ويغتصب عرشـه ويسـتبد بالأمـة وهـذا منتهى الفوضى والخـلاف الـذي بـه تنقـرض الأمـم فـإذا قابلنـا نظـام الحكومـة الإسـرائيلية بغيرهـا مـن الحكومـات جـاز لنـا أن نقـول أنـه قـام في المملكـة الإسرائيلية تسع حكومات لأن كل ملكين كانا من أسـرة واحـدة فمتـى كـان ينقرض بيت الملك الأول انتقل إلى أسرة أُخرى فيكون معدل حكم كـل ملـك منهم ثلاث عشرة سنة.

وأي عمل أدل على أنهم لا يصلحون لـلإدارة والسياسـة مـن كونهـم لم يجمعوا على رأي قط بل قضوا حياتهم في الانقسامات والقلاقل وفساد النظام. وكانت عاصمـة إسـرائيل طلـوزه ثـم نقلوهـا إلى شـكيم فكـانوا يصيفـون بهـا ويشتون في يزرعيـل "زرعـين" فلمـا ولي الملـك عمـري أسـس مدينـة السـامرة "سبسطية" وجعلها العاصمة وهي الآن بلدة حقيرة شمالي مدينة نابلس .

لم يكتف اليهود بالانقسام فقط بل طفقوا يناوئون بعضهم بعضاً فمملكة الشمال كانت تجرد جنودها وتهاجم مملكة الجنوب وقد وصلت مرة إلى الرامة "الرام" وحصرت حصنها ولقد بلغ من حقد إسرائيل أن حالفت مملكة آرام في دمشق على محاربة يهوذا ومما هو جدير بالذكر أن إسرائيل تركوا عبادة الله وصبوا إلى عبادة الأوثان المصرية وأصنام أهل البلاد سيما لما اقترن آخاب بالأميرة الفينيقية إيزابل بنت الملك إيثبعل الصيدوني فأنها شجعت الناس على عبادة آلهة قومها كبعل وعشتروت فعبدوها واستبدلوا الذي هو خير بالذي هو أدنى إلى أن تلاشت مملكتهم لما عجزت عن رد سيل المملكة الأشورية الجارف التي ابتلعتها لقمة سائغة وهدمت عاصمتها وأسرت رجالها ونقلتهم إلى نينوى فانقرضت مملكتهم سنة ٧٢١ ق.م. بعد أن حكمت قرنين ونصف .

(١١) السمرة:

قدماً كان أسلوب الاستعمار يختلف عما هو اليوم فكان الملوك إذا غضبوا من أمة حاربوها فإن ظفروا بها يسبون زعماءها وأغنياءها ومفكريها إلى بلادهم ويستبدلونهم بأبناء مملكتهم حتى لا يمضي نصف قرن إلا اندمج كل من سبي بمن حولهم فيعتنقون لغتهم ودينهم وعادتهم ويصبحون جزءاً منهم ويكون قد ثبت وأفرغ من أرسلوهم فتصبح البلاد بلادهم والأهالي شعبهم وهكذا فعل شلمناصر بمملكة إسرائيل فأنه نقل سكانها إلى العراق وأرسل السمرة مكانهم وحذا حذوه أسرحدّون فلو إنهما نجحا في خطتهما لصارت فلسطين بقعة من العراق. كان السمرة يدعون كوثيين أو كوفيين

لأنهم أتوا من الكويت كما روى ذلك الأب إنسطاس الكرملي في المشرق السنة السابعة العدد العاشر وكانت ديانتهم الوثنية ولما سكنوا مدينة السامرة أنتسبوا إليها فصاروا سامريين وكان عددهم غير معلوم إلا أنهم يقدرون بعشرين ألف نفس.

هبطوا البلاد ولم يكن فيها سوى الفقراء فأسسوا أمة قوية وكتلة متينة وقد ثقل عليهم عودة بني إسرائيل فوشوا بهم إلى ملوك الفرس وعارض رئيسهم سنبلط نحميا عندما حاول بناء سور أورشليم .

وقد حاربوا فسباسيانوس الروماني فأباد أكثرهم. وبعد ما رجع اليهود من السبي وشرعوا في بناء القدس وترميم الهيكل قاومهم السمرة مقاومة عيفة. وأشتدت العداوة بين اليهود والسمرة حتى أن اليهودي كان إذا أراد السفر من الناصرة إلى القدس ذهب إلى الغور ومنه إلى القدس كي يتجنب بلاد السمرة الذين أصبحوا نجسين في نظر اليهود وتظهر هذه العداوة من حديث المسيح مع المرأة السامرية على بئر يعقوب .

وأما السمرة اليوم فلا يزيد عددهم عن مئة نفس يعيشون في مدينة نابلس ولا يخالطون أحداً. وهذا أكبر عامل في إنقراضهم لأنهم يقلون كل سنة عن العدد السابق. ويقوم السمرة كل سنة بتقدمة ذبيحة الفصح على جبل جرزيم. ويدعون إنهم هم شعب الله الخاص لا اليهود. وديانتهم وكتبهم المقدسة تشبهُ ديانة اليهود وكتبهم إلا أنها تختلف في نقط معدودات .

(١٢) مملكة يهوذا من سنة ٩٧٥ ق.م. – سنة٥٨٦ ق.م.

كانت مملكة يهوذا مؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين ولكنهم كانوا أبطالاً أشداء فحافظوا على إستقلالهم أكثر من إسرائيل بمائة وخمسين سنة وإذا تتبعنا دقائق التاريخ لنتحرى عن أسباب إنقراض إسرائيل قبل يهوذا نجدها كثيرة منها:

١ – تقول التوراة أن إسرائيل ترك عبادة ا لله وأنصرف إلى عبادة الأوثان فعجل في هلاكهم .

٢ – من يدرس التوراة يجد أن سبط يهوذا عرف بالقوة وأشتهرت مشاته لوعورة بلاده كما أمتازت إسرائيل بفرسانها لسهولة أراضيها ووقتئذ كان على المشاة المعوَّل .

٣ – الموقع الطبيعي: لو قابلنا القسم الشمالي بالجنوبي نرى الثاني أحصن موقعاً وأعسر مسلكاً وأمتن الدفاع فالوصول إلى القدس من الشرق والغرب أو من الجنوب أو الشمال أصعب بكثير من مجابهة السامرة المفتحة الأبواب والتي يكتنفها من الغرب سهل طول كرم ومن الشمال مرج إبن عامر فكأنها كانت محطة سهلة في طريق الحكومات المصرية والعراقية في غدوها ورواحها على أن القدس كانت بمعزل ومأمن من كل ذلك فلا يأتيها إلا من يتقصدها .

٤ – تأثير العوامل الإجتماعية والأدبية: امتزجت حكومة السامرة بالأجانب وأقتبست عاداتهم ومالت إلى الحضارة فتفرقت وحدتهم وتهدمت

جامعتهم وأضمحلت مملكتهم وتلاشت قوميتهم .

٥- إدعاء الكهنة أن الحضارة كفر فسمموا أفكار العامة وهاجروا إلى مملكة يهوذا وتبعهم خلق كثير فقويت بهم يهوذا وضعفت إسرائيل .

٦- طمع الزعماء في العرش وتهجمهم على اغتصابه حتى أصبح سلعة يتناولها القوي ويأخذها القدير فينخلع الضعيف ويحرم الجبان ولا حاجة إلى الإسهاب في ذكر هذه المملكة لئلا يملَّ المطالع ومن أراد التفصيل فليراجع التوراة "سفري الملوك الأول والثاني" فأنهما أتم وأوسع ما ورد في هذا الباب. كان أول ملوكهم رحبعام بن سليمان وظل بيت الملك يتحدّر من هذه الأسرة حتى إنقراض المملكة فتولى منهُ عشرون ملكاً. وإنما تقادت يهوذا لهذه الأسرة لكونهم ألفوا الحكم وانتخب منها ثلاثة ملوك متتابعة قبل إنقسامهم فالإعتراف يابن ملك مشهور أسهل من الخضوع إلى ملك جديد. قضت مملكة يهوذا معظم أيامها في الحروب والقتال لأن كل جيرانها عالنوها وناصبوها العداء فلم تك لتكترث بهم بل أنها كانت تخشى حكومتي مصر وبابل المتناظرتين والطامعتين في إخضاع سكان فلسطين الذين لم يكن لهم مناص من أتباع إحدى الدولتين لأهمية موقعهم الطبيعي ولكون الحكومة التي كانت تسيطر عليهم كانت تهدد الأخرى التي لا تقر عينها إلا بإستخلاصها من المتغلبين فكان سكان فلسطين إذا انحازوا إلى مصر تغضب عليهم بابل وتغزوهم فتقهرهم وتخضعهم إليها فتحقد عليهم مصر وتسومهم سوء العذاب وهكذا ظلوا ضعفاء

لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فإذا إلتجأوا إلى دولـة سـخطت عليهـم الآخرى وانتقمت منهم. روي أن الملك آحاز أستعان بتغلث فلصر ملـك أشور على قريبه وجاره ملك السامرة إنتقاماً منـه لكونـه اتحـد مـع رامـين ملك دمشق لمحاربته فأعانه تغلث فلصر وخرّب دمشق ثـم ضـرب الجزيـة على مملكتي يهوذا وإسرائيل. فنـدم أحـاز وقلـب سياسـته وعصـى ملـوك أشور بالمصريين فغضب سنحاريب وساق جيشـاً جـراراً فحـاصر القـدس وعسكر بقرب بركة ماملا حتى أذعنوا لحكمه وأعطوا الجزيـة ولكنهـم لم يفتحوا له المدينة .

أن من تتبع مجرى سياسة يهوذا يجدها تشبه سياسة بعض الدول الحـاضرة الضعيفة الـتي بينهمـا نرأهـا اليـوم حليفـة دولـة فـإذا هـي عدوتهـا غـداً فكـأن المصلحة والفائدة هي العامل الأكبر في تقلب هذه الأحوال فإن مملكة يهوذا قد انحازت في عهد صديقا قبيـل إنقراضهـا إلى ملـوك مصـر والتحقـت بهـم فلمـا استعلت بـابل علـى الحكومـة المصريـة وانتصـرت منهـا سـلخت عنهـا سـورية وفلسطين وضـمتها إليها وأتي نبوخذنصر إلى أورشـليم ونفـى الأشـراف وقـادة الرأي في المملكة اليهودية إلى العراق آملاً أن يكون ذلك خضوعاً تاماً لا نزاع بعده ولكنه لم يمض بضع سنين حتى انتقض اليهود وقلبوا سياسـتهم ومـالوا إلى مصر فإستشاط نبوخذنصر غضباً من خيـانتهم وتلونهـم وسـاق عليهـم جيشـاً كبيراً فحاصر القـدس ١٨ شـهراً وأحتـل المدينـة عنـوة وأعلـن الحكـم العـرفي فهرب ملكها صدقيا إلى أريحا ولكنه لم ينج منهم فأسـروه ثـم أحرقـوا وهدمـوا الهيكل ونهبـوا أثاثـه وسـبا أكـثر السـكان إلى بـابل ولم يـتركوا مـن اليهـود إلا

الصعاليك وشذاذ الآفاق فأقـام عليهـم نبوخذنصـر جدلياً حاكمـاً وأسـكنه في المصفاة "قرية النبى صمويل" .

فأصبحت البلاد مستعمرة بابلية تقاسي من الظلم أنواعـاً فغـلا الحقـد في نفوس اليهود وهب رجل يهودي إسمه إسماعيل بطائفة من الأشرار الذين كـانوا مهاجرين في بلاد عمون فجاسوا خلال فلسـطين وقتلـوا الحـاكم جدليـاًوهربوا إلىمصرخوفاً من هجمات بابل المستقبلة وهنا يمكننـا أن نقـول أن جـد اليهـود خرج من العراق فمر بسورية وفلسطين وبادية التيه ثم رجع بذريته إلى وطنهـم الأول العراق .

لقد سكن اليهود في فلسـطين مـن ١٤٠٠ق.م. – ٥٨٦ ق.م. أى نحـو ثمانية قرون ولكنهم لم يستقلوا مدة إقامتهم إلا وقتاً قصيراً كانوا يختلسـونه مـن ضعف واضطراب القوتين الكبيرتين في دلتي دجلـة والنيـل ويعلنـون إسـتقلالهم ومع ذلك فلم ينجوا مـن تحكـم مصـر وبـابل وكانتـا تتكـلان بهـم وتسـلبانهم إستقلالهم كلما سنحت الفرصة وقد ظلوا حياتهم خاضعين لجـيرانهم فيدفعـون الجزية وتنفذ فيهم أوامرهم وكان يكتسحهم من يخالفونه ويحمل ما لديهـم مـن خيرات عائداً بها إلى بلاده. أما السبب الأكبر في انقراض المملكة اليهودية فهو تفرق الكلمة واعتزالهم جيرانهم وعدم امـتزاجهم بغـيرهم سـيما في المعتقـدات الدينية التي لم يحافظوا إلا علـى قشـورها فقـد عبـدوا الأصنـام ونسـوا الوصايـا العشرة وتشددوا في تعصبهم اليهودي واعتقادهم أنهم شعب ا الله الخاص فقـط وزد على ذلك إسـتحكام النفـرة بـين الأسـر الـتي عملـت علـى انحـلال الأمـة

وهلاكها وهل ترجى حياة أمة قبل إصلاح أفرادها .

(١٣) بعض أنبياء اليهود في فلسطين:

لقد ورث الإنسان الأخلاق الفاضلة والسجايا الحسنة منذ القدم فسارت معهُ وكان كلما عرض عليها الفساد ودب فيها الشر أهاب بها داع من ا لله ينادي بالإصلاح فيخوف العاصي بعذاب جهنم ويعد الصالح بالخير العميم فكان الأنبياء في ذلك العصر دعاة الإصلاح ووسطاء بين ا لله وشعبه بل متشرعوا العزة الالهية ورسلها الذين حفظوا بشرائعهم الأدبية أكثر من القوانين المدنية التي زادت الجناة ولم تصلح منهم شيئاً .

لا ريب أن رجال الدين لعبوا في العصور الأولى أدواراً هامة لما كانت الممالك "ثيوقراطية" وكان الملك هو الكاهن والحاكم والسلطان وما زالوا فصولاً من تلك الرواية المحزنة في عصرنا الذي انتشرت فيه مبادئ العلوم الصحيحة وإنفصل الدين عن السياسة. كان اليهود يسمون النبي رائياً "يرى المستقبل" ويعلم الغيب فيستشيرونه في نتيجة الحرب ويستوضحونه عن حيوان فقد وشخص مرض كما كان يفعل الرومان واليونان مع كهنتهم فهتف أنبياء إسرائيل يبشرون بأنهم شعب ا لله الخاص وأنهم أفضل البشر كافة فيوبخون من ارتكب الشر ولو كان ملكاً ويحضون على عمل الخير وعبادة ا لله الواحد الأحد. وقد نجحت دعوتهم فرفعوا قومهم من الحياة الدنيئة إلى الحياة السامية الشريفة وها نحن ندرج أسماء بعضهم .

(١) ناثان: لم يعد من الأنبياء العظام بيد أن له وقفة رهيبة مع الملك داود لما

شغف بأمرأة أوريا الحثي وطمع فيها ففرق بينها وبين زوجها وأرسله إلى الحرب ثم تزوجها فأتاه ناثان ووبخه على شره وظلمه فأعترف بذنبه وقد وردت هذه الرواية في التوراة سفر صموئيل الثاني والإصحاح الثاني عشر وأيدها القرآن الكريم سورة "ص" الآية ٢٣-٢٥ .

(٢) إيليا أو إلياس: ولد شرقي الأردن وقضى حياته في نشر تعاليمه داخل تخوم المملكة الشمالية وقد جاهد في محاربة الأوثان وقاوم الملكة إيزابل الفنيقية زوجة آخاب ملك إسرائيل التي حاولت تعميم عبادة الأوثان وابتدعت لليهود ديانة جديدة فأخذ يفسد عليها عملها ويبرهن على الحادها وسخافة آلهتها إلى أن سخطت عليه ففرَّ إلى المملكة الجنوبية واجتاز القدس وإستراح برهة في محل "مار إيلياس" الواقع بين القدس وبيت لحم ثم نزل بئر السبع. وقد ورد في التوراة أن الله أمره أن يذهب إلى نهر كريت "واد الفلت" وهو محل يكثر فيه النساك وزاهد والدنيا ومن شاء التوسع فليراجع سفر الملوك الأول "ص١٧، ١٨، ١٩".

(٣) عاموس: أن في سرد حياة هذا الرجل مغزى وعبرة لخاملي الذكر والنفس لأنه ولد في قرية تقوع من بلاد الخليل وإبتدأ حياته برعاية المواشي وكان يقول "لست نبياً ولا إبن نبي بل أنا راع وجاني جميز فأخذني الرب من وراء الضان وقال أذهب وتنبأ لشعبي إسرائيل" فأمتازت تعاليمه بصفتها إجتماعية لأن بني إسرائيل كانوا منهمكين في لذاتهم ورفاهيتهم ومعاقرة الخمور والخلاعة والزنى بل أقترفوا جميع الرذائل والموبقات فذهب إلى بيت أيل

وحذر قومه وأنذرهم بالعقاب إن لم يقلعوا عن المعاصي والشهوات ويرجعوا إلى عبادة ا الله الحق فيكسروا الأصنام ويحطموا التماثيل ومن أعظم صفاته أنه كان يجابه الملوك والأشراف ويؤنبهم ويظهر لهم خطاياهم ويجهر بالحق ومن قوله "بغضت وكرهت أعيادكم، وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم" هؤلاء بعض أنبياء اليهود الذين تنبأوا في فلسطين ومنهم أشعياء الذي عاش في القدس وشهد حصار سنحاريب لها وكان يحرض قومه ليتكلوا على ا لله دون البابليين ومنهم أرميا الذي ولد في قرية عناتا وهي تبعد خمس كيلو مترات إلى الشمال من القدس وكان يقف على جبل الطور ويرثي أورشليم بأقوال مشجية وقد شاهد جيوش نبوخذ نصر تهدم وتحرق القدس وأسوارها وهيكلها وكان من رأيه أن يحالف اليهود البابليين ويباعدوا المصريين فلم يسمعوا منهُ حتى كان ما كان من إضمحلال الدولة اليهودية. ومن تتبع تاريخ اليهود في جميع أدوارهم الدينية يجد أنهم لم يكونوا راسخي العقيدة في التوحيد لأنه ما غاب عنهم موسى أربعين يوماً حتى عبدوا العجل إله المصريين ولما سكنوا فلسطين جنحت نفوسهم إلى عبادة أصنام الكنعانيين والفينيقيين والمصريين وصاهروهم مع أن دينهم يمنع ذلك. وكانوا يسمحون لنسائهم بعبادة الأوثان في بيوتهم فلو كان أعتقادهم متيناً لتغلبوا على غيرهم ولفنوهم ديانتهم وصبغوهم بصبغتهم كما فعل المسلمون.

الفصل الثالث

من نبوخذ نصر إلى بومبي

(١٤) فلسطين في يد الفرس من سنة ٥٣٩ ق.م. – ٣٣٢ سنة ق.م.

غزا الأشوريون فلسطين وافتتحوها فلما سقطت مملكتهم قام مكانها البابليون الذين سبوا اليهود إلى العراق ولما استوى كورش الكبير على العرض أسس على أنقاض الدولتين مملكة الفرس والحق بها فلسطين وسمح لليهود سنة ٥٣٦ ق. م. بالعودة إلى بلادهم الخربة لأنه طمع في فتح مصر والمغرب وأيقن أنه لا يتحقق له هذا الحلم الجميل إلا أذا أرجع اليهود إلى بلادهم ليكونوا له عوناً يتكئ عليه أو مدخراً يستمد منه ما يلزمه لفتح الأقطار التي ينزع إلى استملاكها. فظل حلمه أضغاثاً حتى قام كمبيز وصدق رؤياه ففتح مصر وضمها إلى سلطنته ولعل السبب الذي حمل لويد جورج وبلفور ليعطيا فلسطين وطناً قومياً إلى اليهود هو عين الغاية التي رمى إليها كورش .

طال العهد بفلسطين وهي تابعة للفرس تدفع لهم الرسوم والضرائب وتسهل لجيوشهم الطريق إلى مصر وتمدهم بالزاد والعلف حتى تم لهم فتح إفريقية وأخضعوا بابل العظيمة ومملكة ليديا في آسيا الصغرى فكأن فلسطين كانت حلقة مفرغة ترتبط بها حلقات أخرى فلما انفصمت تداعت منها كل الحلقات فالتقطها ملوك فارس واستولوا على ممالك الشرق الأدنى في آسيا

وإفريقية ثم نهموا إلى امتلاك أوروبا فحاربوا اليونان في آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وتغلغلوا في بلادهم. وبعد معارك هائلة سطرتها التواريخ القديمة معجبة بشجاعة اليونان الممتازة في معركتي ماراثون وثرموبيلي غلب الفرس وانقلبوا مخذولين وهؤلاء عظماء ملوكهم الذين حكموا فلسطين .

كورش ٥٥٨ ق.م –٥٢٩ ق.م

كمبيز ٥٢٩ ق.م –٥٢٢ ق.م

داريوس ٥٢٢ ق.م –٤٨٦ ق.م

زركسيس ٤٨٦ ق.م –٤٦٥ ق.م

وقد قام غيرهم من ملوك الفرس ولكنهم لم يحدثوا حدثاً ولم يبرزوا عملاً يستحق الذكر فطوينا أيامهم وأخبارهم .

(١٥) اليونان في فلسطين ٣٣٢ ق.م –٦٣ ق.م

تعدى ملوك الفرس على البلاد اليونانية فايقظوا همة الفاتح الكبير إسكندر المكدوني والهبوا عزيمته فهجم بجيوشه على آسيا وتشوف إلى إمتلاك الشرق والتغلب عليه فكان بدء تنازع شديد بين الفرس حماة الشرق واليونان أبطال الغرب الذين قوضوا ممالك آسيا الغربية واستولوا على أقطارها وحكموا في أهلها بما لايقاس على ما تقدمه من الفتوحات لأن الحكومات الأشورية والبابلية والمصرية كانت تكتفي بجباية الجزيةّ والخضوع السياسي فقط. أما الحكومة اليونانية فكانت ترمي إلى غاية أسمى وأعظم وهي نشر مدنيتها في

الشـرق وتلقيـح العـالم بالأفكـار اليونانيــة والمبـادئ الهلاســية Hellenism "هلنزم" .

ولا بأس إذا تجاوزنا حدود فلسطين وذكرنا بإيجاز سـيرة الإسـكندر منـذ نشأته لئلا يكون الكلام مبتوراً فنقول: ولي الملك وهو فتى لم يتجاوز العشـرين ربيعاً فساد أثينا ومدن اليونان كافة وهاجم الفرس في ضفة جناق قلعة على نهـر غرانيكوس الذي يصب في بحر مرمره فكسرهم وتبعهم إلى شمال سـورية قـرب خليج إسكندرونه في سهل اسوس وهزمهم شر هزيمة ففر داريوس وترك عائلته وذويه ولكن البطل الإغريقي تربص ولم يتعقب فالة الجيش واتجه جنوباً إلى بلاد فنيقية ليفتحها ويستعين بسفنها على مدينة صور وكـانت آنـذاك علـى جزيـرة فطم البحر ووصلها بالبر وبعد حصار دام سبعة شهور فتحها عنوة وإنتقـم مـن أهلها ثم سار جنوباً فسلمت إليه كل البلاد إلاّ غزة فإن حاميتها العربية قاومتهُ وصدمته ولكنها خضعت أخيراً فنكل بها .

الإسكندر في القدس

قال المؤرخ يوسيفوس أن الإسـكندر ذهـب لفتـح القـدس فقابلـه رئيـس الكهنة على جبل سكوبس فرحب به الإسكندر وطلب إليـه أن يسـلمه المدينـة فرفض معتـذراً أن البـلاد فارسـية وقـد أقسـم أهلهـا يمـين الطاعـة للفـرس فـلا يسلمون المدينة إلا بأمر من ملكهم فأكرمه الإسكندر وقدّم هدايـاه إلى الهيكـل فإغتاظ أتباعه من هذا الرفق واللين. ولكن هذه الروايـة تفتقـر إلى اثبـات. أمـا الأستاذ بورتر فقال أن الإسكندر صعد إلى أورشليم ودخلها بوقار واحـترام ولم

يضرّ بأهلها وقد استأنف منها السير إلى مصر ففتحها وخلد أسمه ببناء مدينة الإسكندرية ثم كرَّ راجعاً ليجهز على الفرس فالتقى الجيشان في أربيلا "أربل" شرقي دجلة وجنوب نينوى عاصمة الأشوريين ففرق شمل الفرس وبدد جيشهم وهدم مملكتهم وسجلت هذه المعركة الفاصلة خضوع الشرق لليونان.

في ثلاث معارك فقط الأولى غربي الأناضول والثانية قرب خليج الإسكندرونة والثالثة شمال العراق هدم الإسكندر مملكة فارس وشاد على انقاضها إمبراطورية يونانية حديثة شهدت له بالتفوق الفكري والنبوغ العسكري وأنه من أعاظم القواد المشهورين مثل يوليوس قيصر وهنيبال وخالد ابن الوليد وصلاح الدين الأيوبي ونابليون إلا إنه يمتاز عن غيره ببعد نظره ونزعته إلى مزج الشرق بالغرب وتوحيد العائلة البشرية وقد توخي طرقاً كثيرة لتحقيق أمانيه نذكر هنا أجلها .

(١) الزواج: تزوج الإسكندر بابنة داريوس وشوق قواده وأجبر رجال على الاقتران بالشرقيات .

(٢) تعميم الروح اليونانية: فأنه أمر بنشر شعرهم وفلسفتهم وعاداتهم والبستهم ومسارحهم وفنونهم وألعابهم وآدابهم ولغتهم .

(٣) تجنيد عساكر فارسية وإدخالهم في جيشه وصبغهم بالصبغة اليونانية مما أغاظ عساكر مكدونية وحملهم على ترك الجيش ناقمين.

(٤) مبادلة الأشجار والنباتات الشرقية بما يماثلها من المزرعات الغربية. وقد نجحت هذه الخطة التي كانت تصدر من مدينة الإسكند ة منهل العلم والأدب والشعر وتتوزع على الأقطار.

فانتشرت اللغة اليونانية في الشرق قبل المسيح وبعده حتى أن المتهذبين كانوا يفتخرون بمعرفتها كتابة وتكلماً حتى أن بعض الأناجيل كتب بلغة سقراط وأفلاطون وأرسطو ولم يكتب بالعبرانية .

ورث الرومانيون فلسطين عن اليونان وعجزت لغتهم اللاتينية عن مباراة اللغة اليونانية التي كانت تشبه في ذلك العصر اللغة الفرنسية والإنكليزية في أيامنا هذه. وأن بين أعمال الإسكندر ونابوليون لمشابهة كبرى لأنهما جاهدا في تنشيط العلم وسعيا في فتح الشرق واستعماره وحاولا الامتزاج بأهله والتقرب منهم .

(١٦) السلوقيون والبطالسة

توفى الإسكندر في بابل سنة ٣٢٣ ق.م وهو في الثالثة والثلاثين من عمره بينما كان ذاهباً لفتح السماء كما زعم فذهب ولم يبق منه إلا شهرته الخالدة وذكره الطيب. فاقتسم قواده الأربعة الإمبراطورية بينهم ولا يهمنا منهم سوى سلوقس حاكم سورية وبطليموس ملك مصر لتناوبهما الحكم في فلسطين. أن في التاريخ عبراً مفيدة ومن لم يستفد من هذه العظات فهو ضعيف خامل ليس بأهل للحياة لأن الدهر سفر عظيم صفحاته الأيام ومواده الحوادث. فإذا استقصينا ماضي الفرد والأمة أو الإقليم نجده سواء تتوالي عليهم أحوال متشابهة وحوادث متماثلة فكأنهم يسيرون حول دائرة إذا إنتهوا من الدورة الأولى إبتدأوا في الأخرى وهكذا دواليك فالذي لا يزرع شيئاً لن يحصد شيئاً ومن فاته عمل فليتعوض من سواه ولكن فلسطين لم تنتبه لهذه الحقيقة وكانت

كرة تتلقفها العراق ومصر وسورية فتهشمها تارة وتحطمها طوراً وإذا فلتت من واحدة خطفتها الأخرى. فلما التحقت بمصر كما كانت في أيام صحوتميس تسامحت معها الحكومة ولم تتعرض لتقاليد الأهلين وأذنت لرئيس الكهنة أن يظل حاكماً دينياً وسياسياً كما كان. وفي هذا العصر ترجمت الكتب المقدسة من اللغة العبرانية إلى اليونانية. فإن بطليموس فيلادلفوس "محب العلم" أخذ سبعين عالماً يهودياً إلى مصر لترجمة التوراة فأحسنوا صنعهم وجاءت طبق الأصل في دقة التعبير وقوة المعنى. ولكن سيطرة مصر على فلسطين لم تدم غير قرنوربع لأن أنطيوخوس الرابع ملك سورية ضمها إلى مملكته سنة ١٩١٨ ق.م بعد معارك قاسية إنتهت بفوزه على الدولة البطليموسية. والغريب هنا أن أهالي فلسطين انقسموا على أنفسهم فبعضهم حاول الإنضمام إلى مصر والآخر أراد البقاء مع سورية. وكذلك كانت الحالة في عهد نبوخذ نصر فإنهم انشطروا إلى شطرين أحدهما يطلب سورية والثاني مصر. وإذا قابلنا تلك الحالات بأيامنا الحاضرة نراها متماثلة فإن المؤتمر الفلسطيني الأول المنعقد سنة ١٩١٩ ق.م. انقسم أعضاؤه إلى قسمين طلب بعضهم الالتحاق بمصر والآخرون أرادوا الانضمام إلى سورية. ولو أمعنا النظر قليلاً لوجدنا أن فلسطين لم تستفد من الانشقاق القديم والانتقال شيئاً لأنها كانت تنتقل من نير إلى نير أو من حكم مصر إلى حكم سورية وكلاهما دولة يونانية على أن البطالسة كانوا يراعون شعور الوطنيين أكثر مما فعله السلوقيون .

(١٧) المكابيون:

المكابيون أسرة تنتسب إلى بطل يهودي يسمى يهوذا ويلقب بمكابيوس

وهو جدير بالاحترام لما أظهره من الوطنية وأبداه من الجرأة فالهب بحماسته صدور بني قومه وأشعل الثورة العامة لدفع ظلم الدولة السلوقية اليونانية والحركة المكابية مثال من الأمثلة المسطرة في بطن التاريخ والدالة على أن الروح الوطنية الحقة إذا اختلجت في الصدور لا يقف أمامها قوة ولا يضعفها بطش وأوضح برهان على ذلك أن شرذمة يهودية غير منظمة قاومت الجيش اليوناني السوري وانتصرت منهُ لأن أفرادها أخلصوا في عملهم وإعتقدوا بصحة قضيتهم واستماتوا في سبيل تحقيقها لما رأوا أن إنطيوخوس عبث بهم وبتقاليدهم واستصغر بلادهم وباع وظيفة الحبر الأعظم إلى يشوع أخي أونياس اليهودي الذي كان مولعاً بالعادات الغربية وربيب المدينة اليونانية فكان ماقتاً لتقاليد قومه والذي افتتح أعماله بتغيير إسمه يشوع بإسم يوناني ياسون وروج الملاهي والألعاب والعادات اليونانية المكروهة عند قومه فحسده أخوه أونياس وذهب إلى أنطيوخوس وشرى منهُ الرتبة الحبرية بأكثر مما شراها أخوه فعينه بعد أن عرض عليه شروطاً مجحفة بحق أمته وقبلها اسمه أونياس بمنلاوس. فعمل أنطيوخوس مع الأخوين يشبه عمل الوزير ابن خاقان الذي كان يعين الوالي فإن زاد عليه أحد عزل الأول وعين صاحب الزيادة حتى قال فيه الشاعر .

وزير قد تكامل في الرَّقاعة يولي ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهل الرشى صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

ولما رجع منلاوس لاستلام وظيفته أبى أخوه أن يسلم إليه المدينة فتحاربا ولم يتمكن أحدهما من قهر الآخر فجاء أنطيوخوس من مصر وأعلن الحكم العرفي فأباح المدينة ونهب الهيكل وعين قائده فيلبس الجائر حاكماً عاماً عليهم

وكانت هذه الضربة أول وميض الشدة والجبروت الذي شرع أنطيوخوس يتمادى في أذكائه فأمر بالغاء الدين اليهودي من أصله وأكرههم على عبادة الآلهة اليونانية وأمر بنصب تمثال لزفس ومذبح في الهيكل لتعتز الخنازير عليه وأرغم اليهود على مشاركتهم في طقوسهم وحظر الاختتان وإضطرهم إلى الشغل يوم السبت وكان يجازي كل من خالف أوامره بالقتل وهذا غاية العسف ونهاية الشدة فلما بلغ الظلم أشده لم يصبر عليه اليهود ونهض الكاهن متاتياس وهو من قرية مودين "المدية" الواقعة شرقي اللد واعتصم بقريته وأخذ معه بتيه الخمسة ومنهم يهوذا مكابيوس "جد المكابيين" وبينما كانت الثورة تختمر في قلبه شعر بدبيب الهمة في نفسه واشتداد العزم بين جوانحه فطفق يبحث عن طريق الخلاص لأمته وإذا برسول يوناني قدم عليه ليكره الأهالي على عبادة الأوثان فغضب الكاهن وفتك به وحرض الشعب على خلع طاعة اليونان فناوأهم مدة ثم خلفه ابنه يهوذا فحارب السلوقيين وظفر بهم في مواقع كثيرة كمعركة بيت عور بين اللد ورام ا لله وبيت صور قرب مدينة الخليل وكانت النتيجة فوز الوطنيين على الأجانب وتخليص البلاد من الدخلاء فتولى المكابيون الإدارة من سنة ١٦٧ ق. م. إلى سنة ٣٧ ق. م. فلما رجعوا إلى سيرتهم الأولى وشجر بينهم الخلاف والنزاع أخذوا يستعينون بمن حولهم من الملوك فالتجأ هركانوس إلى الحارث العربي ملك بطرا "الحجر" واستصرخه على أخيه أرستبولوس فلباه وسار لنصرته بخمسين ألف مقاتل وحاصر أورشليم ولكنهُ لم يتوفق .

الفصل الرابع

الإحتلال الروماني من بومبي إلى عمر بن الخطاب

ورث الرومان "أجداد الإيطاليين" مملكة اليونان ومدنيتهم في الغرب والشرق ونحن نكتفي من هذا البحث بما يتعلق بفلسطين ضاربين صفحاً عن أسباب سقوط اليونان وتغلب الرومان فنقول أنه ظهر في فلسطين قائد روماني يدعى بومبي فاكتسحها وقضى على الحكومة اليونانية السلوقية بلا كبير عناء لأن البلاد كانت فوضى فالكلمة متفرقة والأحكام جائرة والحكام منهمكون في ملذاتهم .

دخل بومبي دمشق فخف لإستقباله زعيما اليهود الشقيقان هركانوس وارستبولوس غصنا الأسرة المكابية الشهيرة وسعى كل منهما ليكون والياً على فلسطين ولما أن تشاغل عنهما بومبي ولم يصغ لقولهما ظنَّ أرستبولوس أنه جفاه وحده وأمل أخاه فشرع يستعد لمحاربة اليونان ولكن نتيجة عمله كانت وخيمة فزحف بومبي بجيشه إلى القدس وحصرها وفتحها عنوة وولى هركانوس والياً عليها خاضعاً للسلطة الرومانية وأمر بالغاء المجمع العام وقسم البلاد أقساماً خمسة وجعل لكل منها مجمعاً خاصاً تديره نظارة رومانية .

(١٨) هيرودس:

عاش هيردوس في عصر الرومان كيوليوس قيصر وبومبي وأنطونيوس أما

أبوه أنيباس فمختلف في أصله والأرجح أنه كان أدومياً ومن رجال هركـانوس وأعوانه المقربين فدفع به جده وهمته العالية إلى أسمى الدرجات وساعده على ذلك انقسام الأسرة المكابية على نفسها ولما اختلف بومبي ويوليوس قيصر تربص حتى رأى رجحان كفة الثاني فسار بجيش إلى مصر وعضده يقال أنه لولا إنتيباس لما فاز قيصر في معاركه على أنه قتل غير مأسوف عليه. أما أبنه هيرودس فكان رجل حرب شجاعاً مقداماً قوي الإرادة ذكياً حاذقاً نزوعاً إلى العلى توفرت فيه شروط الإدارة وكان عسوفاً يضحي أعظم شئ لنيل غايته وتأييد عرشه سفاكاً فتاكاً فظاً قاسياً فقتل زوجته مريمنة لما وجد منها العطف على قومها وبني جنسها وهو المتدله بحبها وقتل من بنيه ثلاثاً وأمر بقتل أطفال بيت لحم. وكان إذا أراد أمراً فمانعه فيه أحد فتك به ولو كان من ذويه. ولما عين والياً على الجليل كسب ثقة بومبي بحسن سياسته فأمَّره أوغسطوس قيصر على اليهودية فقضى على سلطان المكابيين وابتدأت به الدولة الهيرودسية وقد حاول أن يوفق بين اليهود والرومان ليكون بنوه خلفاءه من بعد فلما حبط مسعاه شايع الرومان وساعد على توطيد حكمهم في فلسطين فأخضع الأمة اليهودية التي أقلقت راحة رومية بثوراتها واضطراباتها وله أعمال شاذة في سياسته نأتي على بعضها.

(١) اقترن "بمريمنه" إبنة إسكندر بن أرستو بولس وهي بنت إبنة هركانوس من الأسرة الحسمونية الشريفة ليتصل نسبه بنسب أهل الشرف ويجري دم الملوك في عروق أبنائه (كما فعل السلجوقي مع الخلفاء العباسيين في بغداد) تهوّد وبنى لهم الهيكل وراعى عواطفهم الدينية والقومية فلم يعدوه

إلا أجنبياً غريباً ولم يتقبلوا عطفه إلا بـإشمئزاز وكـانوا ينفـرون منـه كلمـا مـال إليهـم فتكشـف لهـم عـن عـدو في ثيـاب صديق وعـاملهم بعنـف وإضطهدهم بقوة .

(٢) كان كريماً وهاباً يقدم الهدايا الثمينة والتحف النادرة للرومانيين وهـذا مـا ساعده على بلوغ أربه وتفوقد على مناظريه.

(٣) كان متجدداً ليناً شغفاً بالمدينة الرومانية والعادات اللاتينية يتكيف بحسب الظروف والأحوال بخلاف اليهود الذين كانوا ينظرون إلى المدينة اليونانية والرومانية نظرهم إلى الكفر والألحـاد ولقـد تـرك هـيرودس أثـاراً جمـة في فلسطين.

(أ) قيسارية بنى مدينة قيسارية وسماها قيصرية نسبة إلى مولاه وهي واقعة على شاطئ البحر بـين يافـا وحيفـا مشـهورة بجودة بطيخهـا ولطافـة هوآئها.

(ب) رمم مدينة السامرة وعمرها وسماها "سبسـطية" وهـي كلمـة يونانيـة تعني أوغسطوس لقب القيصر في تلك الأيام.

(ج) بنـى قلعـة بـاب الخليـل في القـدس ولا يـزال في أسـاس البنـاء الحـالي حجارة ضخمة من ذلك الأثر الجسيم.

(د) شاد برج انطونيا "القشلة السفلى" "مدرسة روضة المعـارف" وسماهـا باسم أنطونيوس صديق كليوبتره الشهيرة.

واختط وشيد غير هذه القلاع والأبراج في فلسطين وشرقي الأردن هياكل لأوغسطوس وحمامات ومسارح في القدس وقيصرية وسبسطية ونقل الألعاب الرومانية الأولمبية المشهورة في البلاد فهو يشكر على هذه التحفة التي قابلها اليهود بالمقت والإزدراء.

وبعد وفاة هيرودس اقتسم أولاده مملكته ولم تدم طويلاً حتى ألتحقت مباشرة بروما وصار يبعث لها بحكام رومانيين. وأما إبنه هيرودس أنتيباس فهو الذي بنى مدينة طبريا وسماها باسم الإمبراطور طيباريوس .

(١٩) السيد المسيح

لو أردنا أن نفصل تاريخ فلسطين لأجملنا به تاريخ العالم أجمع وأشرفنا على ماضي سالف الأمم لأنها حلقة اتصال الشرق بالغرب وبما أنا توخينا الاختصار في هذا السفر فلا مندوحة لنا عن التوسع قليلاً في سيرة المصلح الكبير السيد المسيح لأنه فلسطيني ويدين بدينه ٥٦٥ مليون نفس[1]. ولد من أبوين فلسطينيين يوسف النجار ومريم على رأي المسيحيين واليهود إلا أن القرآن الكريم ينص "أنه من روح ا لله وكلمته ألقاها إلى مريم" ومثله عند ا لله كمثل آدم" تربى ونشأ في أرض فلسطين وشم عبير أزهارها ونسميها وأكل من خبزها وشرب من مائها وطاف مدنها وعلم أهلها وأختار تلامذته "حوارييه" الأثني عشر من رجالها وصلب على تل من تلالها ودفن في ترابها

---

(١) أثناء كتابة هذا العمل.

(هذا رأي المسيحيين واليهود وفئة قليلة من المسلمين) ولكن أكثر المسلمين يعتقدون أنه لم يصلب بل شبه لهم وعرج إلى السماء حياً.

ولد المسيح في بيت لحم في عهد أوغسطس قيصر وفي أواخر حكم هيرودس فعاش في الناصرة التي ينسب إليها النصارى مع مربييه يوسف ومريم الفقيرين .

كانت حياته هادئة قبل أن بلغ الثلاثين وقد زاول حرفة النجارة عند مربيه يوسف فلما بلغ الرجولية شرع يبث دعوته وينشر مبادئه وتعاليمه بين قومه وأهله في الجليل وبين بسطاء الناس في الناصرة وحول طبريا ونهر الأردن ثم أنتقل إلى أورشليم مركز التعصب الذميم والتقليد الأعمى فجاهر بدعوته وصرح بمواعظه وأجلها ما جاء في إنجيل متى إصحاح ٥ و ٦ و ٧ أي عظة الجبل فمنها:

(١) سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً .

(٢) سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم. لأنه ان أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم وإن سلمتم على أخوتكم فقط فأي فضل تصنعون.

(٣) احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس كي ينظروكم. وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك .

(٤) متى صليت فلا تكن كالمرائين فأنهم يحبون أن يصلوا في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس. فأنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم.

(٥) لا تدينوا لكي لا تدانوا لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم .

(٦) لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض .

فهذه خلاصة تعاليمه الإجتماعية والدينية إما آيته الذهبية فهي: "فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم أفعلو هكذا أنتم أيضاً بهم لأن هذا هو الناموس والأنبياء".

فلم ترق هذه التعاليم في عيون اليهود والبوا عليه الرأي العام وسخروا من أقواله وأتهموه بفريات ثلاث سياسية ودينية وهي:

١- أنه سمى نفسه ملك اليهود.

٢- وأنه قادر على نقض الهيكل وبنائه في ثلاثة أيام.

٣- وأنه سمى نفسه إبن ا لله.

ففر رواحاً كمته لأنه كفر في عرفهم. وقد خانه أحد تلامذته يهوذا الأسخريوطي فسلمه إلى اليهود في بستان الجثسيماني وسيق إلى محكمة الوالي الروماني بيلاطس البنطي الذي حكم عليه بالموت .

عاش المسيح على الأرض ٣٣ سنة فقيراً لا يملك من حطام الأرض

قنيطراً لأنه زهد في الدنيا وما فيها وأما المؤرخ يوسيفوس فقد قال: نشأ في أيام بيلاطس رجل حكيم علم مريديه الحق واستمال إليه العدد الكبير من اليهود وغيرهم وهذا الرجل هو المسيح. ولما حكم عليه بيلاطس بالصلب بإيعاز من زعماء اليهود لم يتركه أشياعه ومريدوه وظهر لهم بعد ثلاثة أيام من موته كما تنبأ عنه الأنبياء .

(٢٠) جلاء اليهود ثانية عن فلسطين

طمع هيرودس في تأسيس مملكة يتوارثها نسله من بعده ولكنه أخفق في سعيه كما أخفق نابليون الذي حذا حذوه بعد ثمانية عشر قرناً وقد رمى كل منهما أن يكون جد أسرة مالكة شريفة. استقلت فلسطين في أيام هيرودس استقلالاً داخلياً تحت السيادة الرومانية وقد عجز أولاده بعد وفاته عن إدارتها فألحقها الرومان بمملكتهم كما فعل الأتراك في سورية وفلسطين فان سياستهم الأولى لهذين القطرين كانت على نهج الأقطاع "اللامركزية" فكان أمير الولاية مطلق اليد والتصرف في البلاد يؤدي الإتاوة والقطائع إلى الأستانة. وأن انتاب الدولة حرب يقدم لها عدداً معيناً من الجند.

ثم تبدلت الحالة وأخذت الأستانة ترسل إلى المدن الكبرى مشاهير القواد وعظماء الرجال لتجتذب الناس إليها فترغبهم في طاعتها وتخوفهم بطشها وتسوس البلاد بأولئك القواد حسب ما تشرع لهم من القوانين وما ألفه السكان من عرف وعادة .

وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن ولي الملك عبد الحميد فكان يرسل

الولاة والحكام من حاشيته وأعوانه رجال "المابين" وهكذا انقلب حكم الرومان في فلسطين من استقلال داخلي إقطاعي إلى نظام إستعماري وأتخذوا قيسارية "قيصرية" مقراً لولاتهم لقربها من ساحل البحر وللحط من شأن القدس في عيون اليهود. ولكن الرومانيين لم يهنأوا بحكم فلسطين ولم يقوموا عليها على ضيق أقليمها وضعف سكانها الذين ظلت نفرسهم جائشة متحفزة تهيم بذكرى إستقلالها وتتغنى بنشيد حريتها. اعترضت هذه اللقمة الصغيرة في حلوقهم ولم يسيغوها فازعجت الولاة واتعبت وأقلقت مدينة نهر التيبر أكثر من الأقاليم التي هي أرحب محلاً وأكثر نفوساً. فلما قدم تيطس ازدردها وهضمها وقد عز بعض المؤرخين هذا الثبات إلى أعتبارات كثيرة منها:

(١) اعتقاد اليهود أنهم شعب الله الخاص الذي اصطفاه على العالمين فهم الخيار وغيرهم خول فحرمت شريعتهم مخالطة غيرهم لأنهم أرجاس كافرون.

(٢) نشر العادات واللغة والألعاب الرومانية مثل المسارح والملاهي والرقص والخمر والتماثيل مما كان يحرمها الدين اليهودي وينفر منها الأهلون فإذا ما أبصروها تنبهت فيهم العاطفة الوطنية والعصبية الدينية وهاجت روحهم القومية فيقاطعونها ويحتقرونها ولو أنهم أقبلوا على ذلك كما نحن نفعل اليوم لتلاشوا في غيرهم من حيث لا يشعرون. ولا يسعنا هنا إلا أن نعجب بانفة اليهود وأقدامهم على محاربة الرومان لما عبثوا بدينهم وذبحوا الخنازير في هيكلهم ونشروا أعلامهم خافقة فوق رؤسهم موشاة

برسوم النسور (الصور محرمة عند اليهود) .

(٣) إيمانهم بأن ا لله إلههم وحدهم وأنه قادر على أنقاذهم من حكم الأجانب وقد إبتلاهم بهذه المصائب ليعلم مقدار صبرهم ومتانة اعتقادهم. فرسخت هذه العقيدة في النفوس وكان الإنسان يكلف ربه كل شيء فلم يلبث ان صار يركن إلى رفقاه ثم إلى الحكومات فليت شعري متى يأتي اليوم الذي يعتمد فيه على نفسه فقط .

(٤) عسف الرومانيين اليهود فأنهم لم ينهجوا معهم نهج الصواب بل سخروا منهم ونبذوا شريعتهم وآدابهم فأكبر اليهود هذا العمل وهتفوا قائلين:

متى تجمع القلب الذكي وصارماً   وانفاً حمياً تجتنبك المظالم

(٥) خوارج اليهود الذين جنحوا للثورة فأخذوا يحرضون قومهم على ركوب هذا المركب الخشن مؤكدين لهم أن ا لله يساعدهم على تطهير الهيكل والبيت المقدس من نجاسة الرومان.

(٦) بطولة سكان فلسطين الذين ما غزاهم أحد وهمّ بأمتلاكهم أجنبي إلا أسقط في يده وباء بخسران كبير.

(٧) وأن كل أمة لا ترضى أن تحكمها أمة أجنبية عنها ولو طال عليها الأمد. فإذا هي حكمت تذمرت وتحفزت للانتقاض فترقب الفرص لتنتهزها وهذا ظاهر لدينا من حالة أرلندا والعرب وبولونيا فأنهم لم ينسوا أنهم محكومون لغيرهم وعملوا على ازعاج حكامهم فظفر بعضهم بما تاق إليه

وكذلك اليهود فإنهم لم يرضوا عن إدارة بيلاطس وأكثروا الشكايات عليه مع أنه تزلف إليهم بجلب مياه العروب إلى القدس وأمر بنحت أنابيب من الأحجار الضخمة ليجري فيها الماء. وفي فناء النوتردام في القدس نماذج منها تشهد بعظمة صانعها وقد أخفق لأنه عزم أن يصرف ريع أوقاف اليهود على عمارتها فمانعوه وقد إنتهت ولايته بعزله. وخلفه شخص حسن السيرة فكان نصيبه أسوأ وأنكد من سلفه ولم يجده لينه نفعاً لأن داخلية البلاد كانت في هياج مستمر فكثر قطاع الطريق وأخصبت الفتن. واستحكم الخلاف بين الحكومة والشعب وتجسم في عهد القائد الروماني الذي تعين سنة ٦٤ب.م لما طمع في أموال الهيكل وهَّم بسلبها فقاومه اليهود بكل قوتهم ومنعوه فأمر جنوده بالبطش بهم ونهب بيوتهم فإضطرمت لظى الحرب الأخيرة التي أدت إلى خراب القدس وتمزيق الأمة اليهودية. والحقيقة ان هذه الشرارة التي طارت من القدس ليست كافية لا ذكاء الثورة في سائر أرجاء فلسطين لو لم تكن جميع البلاد على تمام الأهبة والاستعداد للوثوب ولو لم تكن نفوسهم هائجة وأرواحهم ثائرة متوقفة على اهتزاز خفيف أو نسمة هواء تحركها فتثيرها كما أشار إلى ذلك نصر بن سيار:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

اشتدت الأزمة في أيام نيرون الطاغية الذي روى لنا التاريخ شيئاً من قساوته وشره وفساد أخلاقه فثار ثائر اليهود وطردوا الحامية الرومانية من

القدس فأرسل إليهم قائده فاسباسيان بقوة عظيمة ليخمد الثورة وينتقم من مسببيها فنزل في قيصرية لأنها كانت ميناء فلسطين وعاصمتها وبذل جهده نحو سنتين حتى أخضع القسم الشمالي من البلاد فاسترد طبريا وجسخلة والسامرة وأريحا وقبل أن وصل القدس فوجئ بوفاة نيرون في رومية فارتد مسرعاً إلى إيطاليا ليتبوأ مكانه وأناب عنه أبنه تيطس المشهور في محاربة اليهود واستئصال شأفتهم فقدم القدس بجيش يبلغ ثمانين ألف جندي كان فيه فرقة عربية "نبطية" فخيم على جبل الزيتون ومرتفع سكوبس وعلى تلال المسكوبية والنكفورية وحاصر المدينة التي كانت حصونها قائمة في ثلاثة مواضع :

(١) قلعة هيرودس وبقاياها القلعة الكائنة باب الخليل .

(٢) برج أنطونيا وآثاره لم تزل في القشلة السفلى شمالي الحرم .

(٣) الهيكل "الحرم" .

قال يوسيفوس في تاريخه أنه كان في القدس لما حاصرها تطيس ما يقارب مليون شخص. ونظن أن هذا لا يخلو من المبالغة لكن الرأي الراجح هو أن القدس ازدحمت بالمهاجرين من كل أنحاء فلسطين لاعتقادهم أن ا لله لا يسمح باعطاء مدينته وهيكله وقدس أقداسه إلى غير شعبه فذكر المؤرخ الروماني تاستس أنه اجتمع يومئذ في القدس نحو ٦٠٠ ألف نفس .

لقد تحمل تطيس العذاب المر قبل فتح القدس لأن اليهود حاربوه بشجاعة فائقة واستماتوا في حفظ بلادهم. وجدير بكل أمة تنزع إلى الإستقلال أن تدفع ثمنه مهما كلفها ولو لا ما حدث بين الأحزاب من الشقاق

لما وصل تيطس إلى أمنيته .

ولكنهم إنقسموا إلى ثلاثة فرق "١" حماة الهيكل بقيادة العازار "٢" حرس برج أنطونيا وقائدهم يوحنا الجسخلي "٣" حفظة قلعة هيرودس ورأسهم سيمون "سمعان" ولو تتبعنا ماضي اليهود وحاضرهم لوجدناه مفعماً بالانقسامات والتحزبات السياسية والدينية التي كانت تمهد السبل لإستبعادهم والتغلب عليهم .

كل أمرئ راجع يوماً لشيمته   وأن تخلق أخلاقاً إلى حين

فكانوا إذا اتحدوا سادوا فتدب عقارب الحسد في صدورهم فتطوحهم إلى هاوية الخلاف وينال منهم بسهولة ما كان صعباً. وهكذا داهمهم جيش تطيس وهم أحزاب يتخاصمون ويتناظرون فأيقظتهم مجانيقه وآلات حصاره فحاولوا الاتفاق ولكن سبق السيف العذل فطال الحصار حتى مات الناس جوعاً وانتشر الوبأ وسرى المرض من سوء الغذاء ورائحة الجيف المتننة فرأف بهم وطلب إليهم أن يسلموا المدينة صلحاً ليعاملهم بالحسنى فأبوا وأصروا علىالحرب وكانوا يبنون ليلاً ما يهدم نهاراً ولكن جهادهم لم يغنهم شيئاً وسقطت المدينة السفلى "برج أنطونيا" ثم الهيكل ثم المدينة العليا "القلعة" والتي أبقاها مأوى للجنود. وأمر بهدم برج أنطونيا واحترق الهيكل من يد جندي بغير إرادة تطيس ولكنه أجهز على الأمة اليهودية وفتك بهم بلا عدل ولا رحمة.

ففر أحد الزعماء إلى قلعة "مسادا" وأسر الآخران وهما يوحنا الجسخلي

وسيمون فسيقا إلى رومية ليسيرا في موكب النصر الذي كـان يحتفل فيه بعد عودة قائدهم ظافراً منصوراً فكانت عادة الرومانيين أن يقف القائد المنتظر عند رجوعه إلى رومية في ساحة كمبوس مرتيوس خارج المدينة ويخلعون عليه ثوباً أرجوانياً مزركشاً بالذهب ويتوجونهُ بنسر ذهبي ثم يحف به القواد والعسكر مكللين بغصون الدفلى فيمر من أمامهم العدو المأسور ولو كان ملكاً أو عظيماً وهنالك يبنون قوساً لذكرى تلك الفتوحات وكل من يزور رومية يرى قوس تطيس شاهداً على خراب القدس .

يوجد أمام فندق مرقص عمود شاخص نقش عليه كلمات لاتينية فلو تبيناها لقصت علينا حادثة القدس وخبر الفرقة العاشرة الرومانية التي تركت في القدس للمحافظة على آثارها بعد خرابها .

(٢١) قلعة مسادا

على شاطئ البحر الميت قرب عين جدي بنى هيرودس حصناً فوق صخرة عظيمة وحفر له الآبار وشحنه بالذخائر والأرزاق والعدد اللازمة ليعتصم به إذا داهمه الخطر. فلما قضى تطيس على اليهود خف أحد زعمائهم العازار بألف رجل وإلتجأ إلى هذا الحصن المنيع فلم تحمه البرية على إتساعها ولم تحفظه الحصون المشيدة بمناعتها فقد عقبهم جند تطيس وحصروهم وبينما هم يتوقعون التسليم رأوا ليلاً ناراً مضطرمة في القلعة ولما تنفس الصبح صعد جند الرومان على سلالمهم فلم يسمعوا دبيباً ولا صوتاً فحاروا في أمرهم إلى أن ظهر لهم أمرأتان قالتا لهم قد فاتكم الغنم فإن قائدنا الكبير العازار شعر

بعجزه عن حماية الحصن فطلب إلى رجاله أن ينتحروا خيفة أن يأسرهم أعداؤهم فأستحسنوا نصحه وودع كل منهم زوجه وبنيه وقتلهم بنفسه ثم أنتخبوا عشرة رجال من بينهم من عهد إليهم بقتل الباقين فأنجزوا عملهم وأختاروا أحدهم فقتل التسعة وأحرق كل ما في الحصن وقتل نفسه ولم يبق هنا إلا نحن وخمسة بنين. فعجب الرومان من هذه الجرأة وكان لسان حالهم يقول أن هؤلاء الرجال العظام هم أبطال الوطنية وخليقون بالإجلال والاحترام. سبيت الأمة اليهودية وهدمت عاصمتها وهيكلها مرتين الأولى من البابليين والثانية من الرومانيين فخدمت هممهم وخابت آمالهم بعد أن جاهدوا بأنفسهم وبذلوا أرواحهم دفاعاً عن إستقلالهم .

(٢٢) هدريان

لا ريب أنه يغشى البلاد نعمى وبؤس كما يغشى الأفراد والأمم فبينما نرى القدس عاصمة تصدر منها الأوامر وتبرم فيها الأمور والأحكام إذا هي خراب بباب تنعق على إطلالها الغربان ولكن لم يكن يمضي عليها بضع عقد من الزمن حتى ترأها قد استجمعت قواها واسترجعت جدتها فلو قابلنا صدماتها وما انتابها من المصائب بما أصاب غيرها من البلدان والمدن لعجبنا واستغربنا كيف أنها تحدد حياتها بعد أندثارها وغيرها يبيد ويمحق ولكن مكانتها الدينية في نفوس مقدسيها تحملهم على تعميرها وتجيد بنائها بخلاف البلدان الأخرى التي لا يشفع فيها مركز إقتصادي أو سياسي أو ديني.

إن الزمن الواقع بين عهد تطيس والفتح العمري يقرب من ستة قرون

أي ٥٦٧ سنة فهو مجلد ضخم أكثر صفحاته بيضاء لذلك أجملناها لقلة ما فيها من الأخبار الجليلة حباً بالأختصار ومن شاء التوسع فليراجع مظانها في بطون المطولات.

مضى على القدس ستون عاماً وهي خربة وفلسطين ساكنة مهيضة الجناح منهوكة القوى لأن الرومان تنبهوا وعرفوا أن الفتن والقلاقل في فلسطين كانت تنبعث من القدس فحظروا على اليهود الرجوع إلى عاصمتهم إلى أن ولى الحكم الأمبراطور هدريان "أدريان"✪ فجدد عمارة القدس وسماها "إيليا كابيتو لينا" فحنّ اليهود للرجوع إليها ودبت فيهم روح الأنفة والحمية فقام رجل إسمه باركوخب (إبن كوكب) وجاب البلدان وعرف الكهوف والجبال والبطاح والمداخل والمخارج والأماكن الوعرة الصالحة للدفاع ثم لقح الأفكار سراً ببذور الثورة وبعث في قومه صرخة أدعى بها أنه هو المسيح الذي سينقذ أُمتهُ من استعباد الأجانب ويخلصهم من ظلم الرومان فتبعه نفر ليس بقليل أزعج بهم حزمة رومة وأقلقها ثلاث سنوات. فأوفد إليهم هدريان قائده الجبال العاتي سفروس الذي أخضع الجزر البريطانية فسحق اليهود وقهرهم في معركة بتبر وكان ذلك آخر العهد بالحروب اليهودية.

قف هنا أيها القارئ هنيهة وتأمل في عظمة الإمبراطورية الرومانية وضخامتها وأذكر اسم القائد سفروس الذي فتك ببرابرة بريطانيا وسل نفسك أين ذهبت تلك الدولة وكيف أفل بدرها؟؟ وكيف ترقى أولئك البرابرة

✪ المسماة أدريانوبل "أدرنه" على أسمه .

وورثوا تلك الإمبراطورية العظيمة في سعة حكمها وأقطارها !!

(٢٣) قسطنطين وتنصير فلسطين

في أوائل القرن الرابع للمسيح انشقت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين المملكة الغربية وعاصمتها رومية والشرقية وعاصمتها بيزنطيه✿ وهي الحكومة التي كانت مسيطرة على فلسطين فقدمت الملكة هيلانه أم قسطنطين إلى القدس وبنت كنيسة القيامة التي يحج إليها المسيحيون وكنسية بيت لحم "المهد" ومن ذلك العهد تنصر أهل فلسطين فاضطهدوا اليهود وأجلوهم عن البلاد .

وفي القرن الرابع والخامس ب.م أسست الصوامع والأديرة ومنها دير مارسابا المشهور الواقع في الجنوب الشرقي من بيت لحم وكثر عدد الرهبان والنساك. ولكن مكروب الفساد وسوس الانحلال دبّ في جسم المملكة البيزنطية فنخر عظامها وعظم الخلاف بين رجال الأكليروس إذ ذهب بعضهم أن السيد المسيح ذو طبيعة ومشيئة واحدة وبعضهم قال أنه ذو طبيعتين ومشيئتين إلهية وإنسانية، وقال الأريوسيون أن هو إلا رسول ونبي كريم فمالت الحكومة إلى القائلين الطبيعتين واضطهدت كل من خالفهم وبينما هم يتجادلون ويختصمون هجم الفرس على سورية وفلسطين سنة ٦١٤ ب.م واغتصبوها وأغراهم يهود العراق وسورية بالإنتقام من المسيحيين فهدموا

✿ الأستانة وتدعي أيضاً القسطنطينية نسبة إلى قسطنطين أول أمبراطور تنصر وأمر بتعميم الديانة المسيحية فتبعه خلق كثير وأصبحت الديانة المسيحية دين الحكومة الرسمي .

كنسية القيامة وقسماً كبيراً من القدس وجاهر يهود انطاكية بالعصيان وقتلوا بطريركها وكذلك ساعدوا العرب على فتح فلسطين ودلوهم على مدخل قيسارية وهذه طبيعة كل الأمم المغلوبة على أمزها فما دخلت حكومة بلاداً كان فيها يهود إلا كانوا آلة للفاتحين سنة ا لله في خلقه:

إذا لم يكن للمرء في دولة أمرئ نصيب ولا حظ تمنى زوالها

ولما بلغ هرقل ما فعل الفرس جهز جيشاً ونهض من القسطنطينية وحاربهم وانتصر منهم سنة ٦٢٨ ب.م واسترد سورية وخشبة الصليب. ولكن دولته كانت بالغة من الكبر عتياً وظهر عليها الضعف والفتور فعجزت عن دفع فيضان الحكومة العربية الفتية وتقلصت إلى داخل حدودها .

(٢٤) آثار اليونان والرومان في فلسطين

شهد التاريخ على فلسطين أنها بلاد احتلال واستعمار فإن لم يكن يهودياً كان أشورياً أو بابلياً أو فارسياً أو مصرياً أو رومانياً أو يونانياً أو تركياً أو إنكليزياً ولا نعلم كيف يكون المصير .

فلسطين بلاد أسيوية اغتصبها الغرب من الشرق أزماناً وتناوبتها دوله فأبتدأ هذا المد بالموجهة الفلسطينية وتبعها طوفان اليونان ثم فيضان الرومان وسيل الصليبين المتدفق وختم بالاحتلال الإنكليزي والوطن القومي اليهودي .

ولكن الشرق لم يقف أمامه صاغراً بل كان يثأر منه الكيل كيلين وغزا أوروبا وأحتلها قروناً متعددة وحكم في أهلها فنشط الفنيقيون إلى إستعمار

بلاد اليونان والكلتين وجزر البحر الأبيض وبريتانيا✿ ثم غزا الفرس دولة اليونان واستولوا على بلادهم ثم فتح العرب أسبانيا وجنوب فرنسا وجزر البحر المتوسط وانحدر التتر "المغول" من شمال غربي البحر الأسود والفوا هناك حكومات وإمارات وأُردف كل هذا بفتوح الأتراك العثمانيين وإكتساحهم شرق أوروبا حتى فينا فلو قابلنا المد والجزر في كلتا القارتين لتساويا ولكن ختمت رواية القرن التاسع عشر والشرق قن الغرب سياسة وعلماً وإقتصاداً.

ليست المدة التي بين فتح الأسكندر والفتح الإسلامي قصيرة بل تبلغ ٩٧٠ سنة أي من ٣٣٣ ق.م - ٦٣٧ ب.م وهي كافية لإندغام سكان آسيا بأهالي أوروبا لأنهم الحاكمون ولكن مضى هذا الزمن الطويل ولم يعلق بنا وبيلادنا لا النزر اليسير نفرد له فصلاً خاصاً من هذا الموجز:

(١) اللغة اليونانية:

أن كل قائد فاتح يحمل لغته معه حيث سار فتنازع لغة البلاد وتضارعها فيفوز الأنسب ويبقى الأصلح فلما نهض اليونان كان الشرق وتضارعها فيفوز الأنسب ويبقى الأصلح فلما نهض اليونان كان الشرق محموماً ففتحوا مدنه وأقاليمه ونشروا لغتهم الجميلة فانتبذها الأهالي وانحصرت بين الطبقة المتهذبة وفي مجالس الخاصة وأندية الأدباء فقط كما هي اللغة الإنكليزية والفرنسية الآن وعجزت عن مزاحمة لغة أهل البلاد الوطنية وهي اللغة الآرامية ولكنها

✿ لفظة سامية مركبة من كلمتين بريتا "بلاد" آنيا "أناء التنك" أي "بلاد التنك" أطلق الفنيقيون هذا الاسم على بلاد الإنكليز لكثرة معدن التنك فيها فعلق بهم إلى يومنا هذا .

تغلبت على اللغتين اللاتينية والعبرية الدخيلتين فقد مضى قرن وثلث على حكم الرومان للبلاد واللغة اليونانية ذات السيادة فدَّون المسيحيون أناجيلهم بها وتفننوا في رسائلهم بآدابها وأهملوا اللغة العبرانية ولغة الحكومة اللاتينية .

(٢) المدن :

شاد اليونان في الشرق الأدنى مدناً كبيرة وعظيمة منها الإسكندرية وإسكندرونة وأنطاكية وجرش وعمان أما المدن الرومانيه فهي بعلبك ومن زارها يحني رأسه أعجاباً من تلك المدينة الفائقة والبناء الضخم وقيسارية وسبسطية وطبرية ويروى أن الإسكندر أسس نحو ٦٠ مدينة في الشرق جعلها مراكز لبث الدعوة اليونانية ونشر المدنية الغربية وأسكن بها دعاة اليونان الذي كانوا يبشرون بالروح اليونانية "التفرنج" .

(٣) الروح اليونانية "Hellenism"

ربما كان خير تفسير لكلمة هيلنزم "التفرنج" أي نقل عادات الأفرنج وألعابهم وأخلاقهم ولذلك سعى اليونان جهدهم لجعل البلاد يونانية فبشروا بديانتهم وشوقوا الناس إلى اقتباس عاداتهم وآدابهم فبنوا المسارح وملاهي التمثيل في مدنهم ونحتوا تماثيل لمشاهيرهم وآلهتهم فعبدت الأصنام وآثارها باقية في بعلبك فإن صح لنا أن نشابه بين الماضي والحاضر نقول أن كرة القدم والملابس المقصرة والرقص والسينما وغير ذلك يشبه ذات الروح التي توخاها اليونان في عصرهم .

كانت مدينة الإسكندرية وإنطاكية عش الدعوة اليونانية ومنهما تشع

روحهم وتتوزع على سائر أقطار الشرق. فقد نبغ في سورية من الفلاسفة والأدباء نفر غير قليل وزهت المدنية اليونانية ونضجت المعارف وازهرت العلوم في عاصمة البطالسة وكثرت المكاتب والآلات الفلكية لرصد الكواكب وأدوات الهندسة وآلاتها فاليونان أساتذة العالم وأدلاَّء الشرق ومرشديه ولقد كان لهم عشر مدن في فلسطين تدرس فيها تعاليمهم وتعرض فيها مدنيتهم فتلاشت من ترفض اليهود وكرههم لها .

وإن من تنقل في أطراف فلسطين وتأمل قليلاً يرى آثار القناطر والطرق والهياكل التي تركها لنا الرومان كنا سنفصله في هذا التاريخ عن مدن فلسطين.

القسم الثاني

الفتح العربي الإسلامي

من عمر بن الخطاب إلى السلطان سليم

(٢٥) العرب في فلسطين إلى السلطان سليم

إن كل من شغل بعلم التاريخ يتجاذبه عاملان قويان. أولهما عام وهو حب العلم وثانيهما خاص وهو رغبة الإطلاع على تاريخ قومه وبلاده فالقسم الأول من هذا الموجز يهم العربي الذي طمع في العلم ورغب فيه أما القسم الثاني فمن الواجب المتحتم على كل عربي أن يمزجه بدمه ونفسه لارتباط تاريخ بلاده بأمته الذي ينعش نفسه ويحييها فأني أعجب كيف يكون المرء وطنياً إذا لم يعرف تاريخ بلاده وسيرة أُمته وأبطالها أو لم يتعلم لغتها وآدابها فتصديرنا هذا الموجز بتاريخ الأمم الأخرى ليس لأنها أقدم من أمتنا العربية في سواحل فلسطين الشرقية والجنوبية بل لكونها ملأت صحف تاريخ البلاد أكثر من سواها فالعرب منذ القدم سكنوا فلسطين وكانت فيها مرابعهم ومصايفهم وشيدت فيها منازلهم وحكوماتهم وهذه نبذة مختصرة عن العرب قبل الإسلام في فلسطين نؤيد بها حجتنا:

(١) ورد في التواريخ الموثوق بها إن نرام سين بن سرجون ملك الكلدان غزا فلسطين سنة ٣٨٠٠ ق.م. وصادف في سينا حكومة عربية. ثم حارب

قبيلة مقان "معان" العربية وأسر أميرها وقد ظهـر في آثار بـابل مـا يثبت هذا القول.

(٢) إن سرجون الثاني غزا عرب البادية الذين تعدوا على بلاد السامرة وأخضع قبائلهم ومنها ثمود وهم مديان "مدين" ومساكنهم شرقي الأردن وحارب عباديد وأخذ منهم طائفة وأسكنها في بلاد السامرة .

(٣) في القرن الثامن ق.م. أخضع تغلث فلصر عرب البادية بين فلسطين ومصر وكانت ملكتهم حبيبة فعزلها وولى مكانها أحد رؤسائهم .

(٤) لما جاء الإسكندر إلى فلسطين وحاصر غزة كانت حاميتها عرباً فقاومته أشد المقاومة .

(٥) بشَّر أحد تلامذة المسيح بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد في أعمال الرسل ص ٢ : ١١.

(٦) كان الحارث حاكم دمشق عربياً لما دخلها بولس الرسول كما ورد في رسالته إلى أهل مدينة كورنثوس (كورنثوس ص١١ : ٣٢) .

(٧) لما جاء تيطس لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية.

(٨) التجأ هركانوس المكابي إلى الحارث ملك العرب فأنجده وساعده على أخيه أرستوبولس .

(٩) إن فيلبس الروماني الذي صار أمبراطوراً في رومية سنة ٢٤٤ ب.م. كان

عربياً من بصرى حوران (راجع جبون)

Every mans's Encyclopedia Vol. 10, p298

(١٠) حكومة تدمر وتمدنها وتجارتها ونفوذها في الشرق والبلاد العربية (راجع زيدان التمدن الإسلامي) .

(١١) حكومة بطرا "الحجر" في الجنوب الشرقي من فلسطين إلى خليج العقبة وقد حكموا فلسطين وسورية .

(١٢) الغساسنة حكام الشام وحوران وشرقي الأردن الذين عمروا المدن وشادوا القصور والقلاع وهي دولة عربية مسيحية .

ومن استقرأ صفحات التواريخ القديمة وجد كلمة "العرب" تجول في غزواتهم المظفرة ومحارباتهم الكثيرة في فلسطين وحسبنا دليلاً إن هاشم جد أبي النبي "صلى ا لله عليه وسلم" مات في غزة ودفن فيها وأننا نعرض عن دولة اللخميين والهيكسوس وحمورابي واليمن لأنها بعيدة عن بلادنا ولا اتصال لنا بهم. ولكنا نقول إن سكان فلسطين القدماء كالكنعانيين والعمالقة الذين أتوا فلسطين من جزيرة العرب ربما كانوا من طوائف العرب البائدة طسم وجديس إذ يصعب على الفكر التصديق بأنقراض قبائل كبيرة برمتها. ولكن يجوز أن تستحيل إلى غيرها وتندغم فيها. فيظهر مما تقدم أن العرب لم يفيضوا إلى فلسطين دفعة واحدة بل دخلوها تدريجاً ثم تدفقوا في عهد الفتح الإسلامي وهذا يحملنا على الترجيح إن مجيئ كل فرد أو قبيلة عربية إلى هذه البلاد كان توطئة وتمهيداً للفتح الأخير وفي هذه السطور دليل كاف على أن العرب

سكنوا فلسطين قديماً وشاركوا بها غيرهم قبل الفتح الإسلامي وتمتعوا بها بعده. والمستقبل يتوقف على نشاط الأمة واستعدادها يمليه الأفراد على مدوّني التاريخ فلنحذر أن يكون شراً.

(٢٦) النهضة الإسلامية

كان العرب قبل الإسلام مختلفي الاعتقادات ومتفرقي النزعات فمنهم الموحد والمشرك والصائبي وعابد الأصنام ولكنهم أجمعوا على احترام مكة المقدسة فكانوا إذا حجوا إليها يطوفون حولها وينزعون سلاحهم فلا يحاربون فيها ولا في أشهرهم الحرم وقد سموا أيام الحرب التي حدثت في أحرامهم "الفجار" لأنهم أرتكبوا فيها فجراً. فيظهر أن العرب كانوا وقتئذ في بدء تطور جديد فنفوسهم تتحفز للنهوض وتحركها حروبهم الداخلية وتعديات جيرانهم الفرس والأحباش على اليمن ووقعة ذي قار وانتصار العرب من الفرس كل هذا يدل على تمخض فكري وغليان عقلي وتأهب للانتقال السياسي والديني الذي يطرأُ على الأمم وتلا ذلك ولادة محمد صلى الله عليه وسلم في سنة ٥٧٠ ب.م. في مكة من قبيلة قريش وهي من أشرف قبائل العرب ولها سدانة الكعبة فيتم صغيراً وكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب فأشتهر بالأمانة والخلق الطيب فسمي بالصادق الأمين فتاجر بأموال السيدة خديجة بين الحجاز والشام على حصة من الربح فأرضاها بمعاملته وأعجبت به فخطبها وتزوجها وإنتفع بمالها .

كان في نفس محمد أسرار محجوبة تحركها العوامل والبواغث الخارجية

فتثيرها ثم تخمد إلى أن بلغ من العمر أربعين سـنة وبعثـه ا لله نبيـاً فبـث دعوتـه ثلاث سنوان بين أهله وعشيرته الأقربين فأسلم له نفر وكان يجتمـع بهـم خفيـة في دار الأرقم المخزومي إلى أن أسلم عمر بن الخطاب فقـال لهـم "عـلام نخفـي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل" فأجابه النبي صلى ا لله عليه وسـلم إنـا قليل وقد رأيت ما لقينا فقـال لـه عمـر: والـذي بعثك بـالحق لا يبقـى مجلـس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان فخرج النبي صلى ا لله عليـه وسـلم في صفين من المسلمين حتى دخلوا المسجد فلقبه النـبي صلـى ا لله عليـه وسـلم بالفاروق لإنه فرق بين الحق والباطل فنزلت الآيـة ﴿حسـبك ا لله ومـن أتبعـك من المؤمنين﴾[1] فجهر النبي صلى ا لله عليه وسلم بدعوته وطاف علـى القبـائل وهو يتلو عليهم ﴿أن ا لله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عـن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[2] فاضطهدته قريش وطفقوا يكرهون من آمن به على ترك دينهم بدفنهم في الرمل أحياءً ويسومونهم أنواع العذاب وهم على عقيدتهم ثابتون وأن أعظـم شـرط لنجـاح المبـادئ الجديـدة وطنية كانت أو دينية الجزم بصحة المذهب والثبات عليه مهما إعتراه من المحن.

ظلت الدعوة الإسلامية ضعيفة حتى آمن بها أخوال النبي صلى ا لله عليه وسلم الأنصار ونصروه عصبية وحباً في الدين ومزاحمـة لقريـش علهـم يحولـون وجهة الحج إلى مدينتهم لأن أحد أبطالهم أبا الهيثم قال يا رسول ا لله فهــــل

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٤.

(٢) سور النحل الآية ٩٠.

عسيت أن أظهرك ا لله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا فقال له أنتـم مـني وأنا منكم أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم. فلما طال بهم العسف هاجروا جميعهم خفية إلى المدينة ليحتموا بالأنصار إلا عمر بن الخطاب فأنه تقلـد سيفه وتنكب قوسه وإنتضى في يده أسهماً وطاف بالبيت سبعاً وصلى متمكناً وقال:

"شاهت الوجوه لا يرغـم ا لله إلا هـذه المعـاطس مـن أراد أن تثكلـه أُمـه وييتم ولده ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي" فما تبعهُ أحـد ومـن ذلـك اليوم الموافق سنة ٦٢٢ بدأ تاريخ الهجرة النبوية فنزلت آيات الجهاد وحدثـت المناوشات والسرايا والغزوات فجهـز النـبي صلـى ا لله عليـه وسـلم سـنة ٨هـ جيشاً يبلغ عدده ٣٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين وسورية وأمّر عليـه مـولاه زيـد ابن حارثة فسار حتى وصـل إلى معـان فقـابلهم الـروم بجيـش كبـير مـن قبـائل العرب المتنصرة لخم وجذام وبلي فتحاربوا في قرية مشارف ومؤته✿ من البلقاء فانكسر المسلمون وهزموا وقتل بضعة من قوادهم منهم جعفر الطيـار جـدّ آل هاشم في نابلس فلم ينثن عزم النبي صلى ا لله عليه وسلم ولم يصبر على الغلبـة فسار إلى مكة وفتحها وأسلمت قريش ووفـدت إليـه أمـراء الجزيـرة مسـلمين مؤمنين بدينه الجديـد فكـان يصحبهـم بـالقرّاء ليفقهوهـم في الديـن ويعلموهـم الصلاة وقد ساعد على سرعة انتشار الديـن الإسـلامي نفـوذ حكـم الأمـير في قبيلته فأنه عند ما كان يسلم الأمير تتبعه القبيلة بلا عناء فعم الإسـلام الجزيـرة كلها ووجه النبي صلى ا لله عليه وسـلم نظـره لفتـح سـورية وفلسـطين فجهـز

✿ سميت هذه السرية بسرية مؤتة .

جيشاً وقاده بنفسه إلى تبوك فصالحه أهل أيلة وأهل مقنا راجعاً ثم جهز جيشاً لثالث مرة سنة ١١هـ وأمرّ عليه أسامة بن زيد ففاجأته المنية والجيش على تمام الاستعداد. وإن محاولة النبي صلى ا لله عليه وسلم مرات فتح فلسطين وسورية لحجة بالغة على تطلعه ورغبته في ضمها إلى الجزيرة لأنها جناحها وقادمتها العراق.

(٢٧) النبي محمد صلى ا لله عليه وسلم

كان عظيماً في نفسه أميناً في دعوته صادقاً في نبوته جلياً في شريعته مصلحاً بأخلاقه وتعاليمه جمع كلمة العرب وأزال التفرقة من بينهم برابطة جديدة متينة وهي الإسلام الذي لم يكن مقصوراً على كونه ديناً وحسب بل كان رابطة قومية سياسية إجتماعية ألف بينهم وقذف بهم إلى المعمور ففتحوه بنواة روحه وغرس عمله وانا نورد هنا طائفة من القرآن الكريم والحديث الشريف النفيسة المدبجة بالحكمة والفضائل.

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام، ولا تعتدوا إن ا لله لا يحب المعتدين﴾[١]، ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[٢] الدين المعاملة. الدين النصيحة ﴿ومن عفا وأصلح فأجره على ا لله﴾[٣] ولتكن منكم أُمة يدعون إلى

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٨.

(٢) سورة العصر

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

الخير ويأمرون بالمعروف وينهـون عـن المنكـر ﴿ولا تنـازعوا فتفشـلوا وتذهـب ريحكم﴾[1] ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشد من الغي﴾[2] ﴿من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[3] « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى »[4] « ليس المسلم الذي يشبع ويجـوع جـاره »[5] وقـال في خطبـة حجـة الـوداع: إستوصوا بالنساء خيراً (راجـع نمـوذج الفضـائل الإسـلامية). ولما قبـض النـبي صلى ا لله عليه وسلم إرتد العـرب ورجعـوا إلى دينهـم القديـم لأنهـم أسـلموا عصبية وتبعوا أمراءهم قبل أن يرسخ الدين في نفوسهم أو تعرف القبائل ما هو الإسلام فقتلوا المعلمين وطردوا المفقهين وأمتنعوا عن أداء الزكاة وأدعى كثـير منهم النبوة فحاربهم الخليفة أبو بكر حتـى ثـابوا إلى رشـدهم وأذعنـوا للإيمـان بعد جهاد عنيف.

(٢٨) إنفاذ جيش أسامة

ابتدأ أبو بكر أعماله بأن نفـذ بعـث رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسـلم الذي كـان مجهـزاً بقيـادة أسـامة بـن زيـد وعـدده بـين ٧٠٠-١٠٠٠ وزوَّده بوصية جليلة وهي صفحة نيرة من أخلاق أبي بكر قال:

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٦.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٣) سورة الكهف الآية ١٨.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

"لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا أمرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له".

وقصارى القول إنها خير مثال للوصايا الإنسانية وجديرة بأن تكون قدوة حسنة لقواد جيوش عصرنا المتمدن الذين أمروا بقتل الأطفال وهتك النساء وتخريب البنايات وقطع الأشجار وهدم الكنائس. فسار أسامة بسريته إلى أن وصل أُبنى بناحية البلقاء شرقي الأردن وأوقع بقبائل قضاعة ورجع بعد أربعين يوماً. فأظهر أبو بكر الحكمة بإنفاذ جيش أسامة وهو بحاجة لجند يخمد بهم ثورة الردّة ليوهم العرب الذين مر بهم الجيش أن للمسلمين قوة عظيمة لا طاقة لهم بها.

وقد خسر العرب في هذه الغزوات الثلاث ولكن لم تثبط همتهم وكروا بجيش لا بشرذمة طالبين الفتح لا الغارة قاصدين الإستيطان لا الإصطياف.

(٢٩) وقعة اليرموك

صعب على أبي بكر ظفر الروم بالمسلمين فاستنصر العرب واستجاشهم ووجه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء فذهب وصدمه الروم بجموع كثيرة أكثرها من العرب المتنصرة بهراء وتنوخ ولخم وسليم وجذام وغسان ونزلوا من دون زيزاء بثلاث مراحل فلما قدم خالد أعروا منازلهم وحطوا بين "فحل"

وزيزاء والقسطل* وبعد قتال فل جيش خالد وارتد مخذولاً فعزله الخليفة وولى مكانه يزيد بن أبي سفيان ومعه وجوه مكة وأشرافها وغايته البلقاء وعزّزه بثلاثة أمراء وهم (١) عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين فأخذ عن طريق المعرقة إلى أيله "العقبة" (٢) الوليد بن عقبة ووجهته الأردن ثم استبدله بشرحبيل بن حسنة وسلك طريق تبوك (٣) أبو عبيدة بن الجرّاح وهدفه حمص وطريقه البلقاء وعلياء الشام وأمر يزيد على الجميع وزوّده بوصية وهي:—

"اني قد وليتك لابلوك وأجرّبك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك .. إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وإبدأهم بالخير وعدهم أياه وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً وأصلح نفسك يصلح لك الناس إلخ".

فسار الأمراء وأوغلوا بجيوشهم وتغلغلوا في إحشاء البلاد فنفرت منهم طوالع الروم ظانين انها غيمة عما قريب تقشع. فلما رأوهم اقتحموا المدن وجاسوا عوراتها هبوا من غفلتهم وجمعوا جيشاً من العساكر والمقاتلة زهاء ١٥٠ ألف مقاتل.ويقول جبون أنه كان في هذا الجيش ٦٠ ألف جندي عربي بقيادة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة. فناجزوا المسلمين وهم متفرقون ليزعزعوا قوتهم ويبلغوا أربهم لأن وقفة قوادهم كانت شبه مثلث رأسه في البلقاء مع يزيد "لحفظ خط الرجعة" وطرفاه الواحد في الجنوب الغربي من فلسطين مع ابن العاص والآخر مع أبي عبيدة في الجنوب الشرقي من حوران

* قرى صغيرة متهدمة في شرقي الأردن قرب ماديا .

وفي الوسط "الأردن" شرحبيل "خط المواصلة" ففطن المسلمون لمقصد الروم وعرفوا نياتهم فأشار عمرو بن العاص بأن توحد القوى ويتراجعوا إلى أطراف سورية ويستشيروا الخليفة. أما أبو عبيدة فرأى مبادرة الروم ومحاربتهم فخالفوه وأجمعوا على رأي عمرو وعسكروا في اليرموك✿ وأرسلوا إلى أبي بكر فأشار عليهم بالاتحاد ريثما يأيتهم المدد وأمر خالد بن الوليد قائد جيوش العراق إن يأخذ نصف من معه من الجند وينصرف مسرعاً إلى الشام فامتثل الأمر وسار بقطعة من الجيش فمرَّ بتدمر وأغار على جمع من تغلب وكلب وقاتل بني مشجعة وأتى إلى ثنية العقاب. وأغار على غسان يوم عيد فصحهم ثم وفد على المسلمين في اليرموك فوجد كل أمير يتساند على جنده فقال لهم: إن هذا اليوم يوم من أيام ا لله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم." وأشار عليهم بأن يتناوبوا الإمارة العامة فقنعوا منهُ وولوه أياها فعباهم تعبية فنية "كراديس كراديس". ووضع نفسه في المقدمة يقودهم إلى الأمام وفي القلب أبا عبيدة وفي الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل وفي الميسرة يزيد بن أبي سفيان والقعقاع بن عمرو. وكان قائد الطلائع قباث بن أشيم والقاص أبا سفيان بن حرب يشجع الرجال ويقص عليهم نبأ البطولة والثبات. فلما استعرضوا الروم قال رجل لخالد "ما أكثر الروم وأقل المسلمين" !! فأجابه "ما أكثر المسلمين وأقل الروم إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان" وهنالك

✿ هو نهر صغير يصب في الأردن بعد خروجه من بحيرة طبرية وكلمة يرموك معربة عن اللغة اليونانية "يرومكس" Heiromax .

كان يستعد الجيشـان لمعركـة فاصلـة فأمـا أن يفـوز المسـلمون ويسـودوا علـى سورية وفلسطين ومن هناك إلى مصر والمغرب والأندلس أو يردهم الروم علـى أعقابهم إلى مهدهم وباديتهم. فلما اصطدم العسكران أظهر الروم من البسـالة والصبر مـا كـاد يزيـل المسـلمين عـن موافقهـم لـولا إن النسـاء حملـن العصـي والرماج والعمد وضربن بها وجوه الخيل إذا الوت وحرضنهم قائلات "إلى أين يا حماة الإسلام" فصمدوا وقد شد الروم علـى ميمنتهـم فكشـفوها وسـحقوها ثـلاث مـرات وهـم صـابرون وأبـو عبيـدة يتخطـى الصفـوف فيشـجع الجمـع ويضـمد جروح الجرحـى ويعدهـم بـالنصر إلى أن فـازوا وإنسـحب الـروم مـن أمامهم معتصمين ببيسان تاركين أسلابهم والغنائم. وقـد إختلـف المؤرخـون في عدد الجند فقال ابن الأثير ان جنود العرب كانت ٤٦ ألفاً والـروم ٢٤٠ ألفـاً أي أن الجندي العربي يقابل خمسة من الروم. وقال المطـران الدبـس في "موجـز تاريخ سورية" أن العرب كانوا ٤٠ ألفـاً والـروم مئـتي ألـف ومنهـم مـن بـالغ ومنهم من أعتدل والحقيقة أقرب إلى الصحة كلما قل العدد .

كـانت هـذه المعركـة مفتـاح النصـر ومقدمـة للاسـتيلاء علـى سـورية وفلسطين ربما إن جميع المعـارك الحربيـة الـتي حدثـت بـالقرب مـن هـذه البقعـة كانت فاصلة فانا نورد هنا بعضها:

١- وقائع مجدّو: بين مصر والعراق وما كان يلحق فلسطين من عواقبها .
٢- وقعة اليرموك: التي زال بها ملك الروم عن الشرق .
٣- معركة حطين: بين طبرية والناصرة وهـي المعركـة الـتي قضـى بهـا صـلاح الدين على الأفرنج وأخرجهم من فلسطين .

٤- اصطدام الترك بالمماليك في اللجون ورجوعهم القهقرى .

٥- معركة مرج ابن عامر: بين جنين والناصرة التي هزم فيها اللنبي جنود الألمان والأتراك وأسر منهم خمسين ألفاً .

كانت نتائج هذه الملاحم الكبرى في تلك البقعة الضيقة قاضية وفاصلة بين المتنازعين فمن فاز ملك البلاد وَمن غلب على أمره خسرها ورجع مخذولاً. ولم يك هرقل متوقعاً هذا الإنكسار فلما فل جيشه جزع وإنسحب إلى شمال سورية وولى أخاه "ثيودور" القيادة العامة وبعث إليه القواد والعساكر وطلب النجدات من قومه ليكرَّ ثانية على العرب ويجليهم عن البلاد. أما العرب فأنهم ولوا بشير بن كعب الحميري مدخل اليرموك كي لا يقطع عليهم العدو خط المواصلة ونشطوا إلى فتح دمشق وقد فاجأتهم وفاة الخليفة أبي بكر وإستخلاف أمير المؤمنين عمر. فحاصروا المدينة سبعين يوماً ودخلها خالد عنوة وأبو عبيدة صلحاً. وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي عزل فيه خالد كان قبل فتح دمشق أو بعده والأرجح انه قبله لأن شروط التسليم والمعاهدة ومخابرة الخليفة كانت كلها بإسم أبي عبيدة الذي إستخلف على دمشق يزيد ابن أبي سفيان وإنقلب إلى فحل (آبل) شرقي الأردن لمحاربة رافضة جيش الرومان الذين أووا إلى بيسان فوجد المياه والأوحال والمستنقعات محيطة بالمدينة وقد حجزت المسلمين عن التقدم فكتبوا يستشيرون الخليفة ولا نية لهم بأن يريموا فحل حتى يأتي جوابه فظن الروم بهم ضعفاً وأغتروهم فوجدوا المسلمين على حذر وقاتلوهم وهزموهم فغاصت أرجلهم في الوحل فأتوا على آخرهم

وكان نصراً مبيناً وسمي ذلك اليوم "ذات الردغة، فانصرف أبو عبيدة بخالد ومن معه إلى حمص. فلنتركه وشأنه ولنذكر ما تم وجرى في فلسطين .

(٣٠) أجنادين✿

محل واقع بين بيت جبرين والرملة كما أجمعت على ذلك كتب التاريخ وياقوت وقد اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين ومن يستقصي التواريخ العربية يشتبه عليه أنه حدث موقعتان متعاقبتان والحقيقة أنها موقعة واحدة لأن العرب لما قدموا البلاد كان كل أمير مستقلاً غير مرتبط بالآخر فانسابوا في داخل البلاد فلما نشط الروم لمناهضتهم تركوا ما فتحوه وانضموا إلى بعضهم في اليرموك تحت لواء خالد بن الوليد. وبعد انتصارهم ذهبوا إلى دمشق ففتحوها ثم انتشروا ثانية يفتحون ويغنمون فسار عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى بيسان ففتحاها صلحاً. وفتح أبو الأعور السلمي طبرية سنة ١٤ هـ سنة ٦٣٧م على صلح دمشق وان يشاطروا المسلمين المنازل في المدينة وما أحاط بها مما يصلها لينزل فيها القواد. ثم قصد عمرو أشغال حامية الروم وعساكرهم المرابطة في المدن المسّورة خشية إجتماعهم فيؤلفوا قوة كبيرة ورأى ان يناضلهم غير مجتمعين فسرح يزيد بن أبي سفيان أخاه معاوية لحصار قيسارية وانطلق علقمة بن مجززّ لحصار غزة وعلقمة بن حيك ومسروق بن

✿ نظن ما ورد في كتب التاريخ كان سهواً وتحديد المكان مغلوطاً وربما كانت أجنادين جنين أو اللجون أو طولكرم على حسب ما ورد في سير الحوادث الدالة على أنها واقعة بعد مرج الروم "ابن عامر" حيث تكثر المياه.

فلان العكي لقتال إيليا "القدس" وأبو أيوب المالكي إلى الرملة.ونهض هو جنوباً فأقام على أجنادين وفتحها سنة ١٥هـ سنة ٦٣٧م. وقتل في هذه الواقعة الأمير عون ابن الملك النعمان بن المنذر جد أسرة آرسلان ثم ساحت القواد في فلسطين ففتحوا غزة واللد وسبسطية ونابلس ويافا وعمواس وبيت جبرين. وإستعصت الرملة والقدس.وقيسارية وعسقلان فإجتمع معظم الجيش لحصار القدس وقد بلغ ٣٧ ألف مقاتل وكانت السماء ممطرة فنزل خالد بن الوليد مما يلي باب أريحا وعروة بن مهلهل مما يلي طريق الرملة وواصلوا الحصار أربعة شهور .

(٣١) فتح بيت المقدس

عجز الروم وايقنوا أن دولتهم دالت وأنهم مأخوذون سيما والمسلمون يحترمون بيت المقدس ويقدسونها فلا يسمحون بها لغيرهم فتناجوا بينهم وأقروا على التسليم وطلبوا إلى جيش أبي عبيدة إن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وان يكون المتولي للعقد الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه بذلك فحضر إلى الجابية وقدم عليه رسل إيليا فتلقاهم المسلمون براية الأمان وصالحوهم على الجزية وأمنوهم على القدس وحيزها وهذه شروط المعاهدة: التي كتبت في الجابية كما أوردها الطبري وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان:

"أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها

وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منهـا ولا مـن حيزهـا ولا من صلبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء إن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم ان يخرجوا منها الـروم واللصـوص فمـن خـرج منهم فأنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهـم فهـو آمـن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزيـة. ومـن أحـب مـن أهـل إيليـا أن يسـير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فأنهم آمنون على أنفسـهم وعلـى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بهـا مـن أهـل الأرض قبـل مقتـل فلان .. فمن شاء منهم قعد وعليهم مثل ما على أهل إيليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهـم شـئ حتـى يحصـدوا حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد ا لله ذمة رسوله وذمـة الخلفـاء وذمـة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزيـة كتـب سـنة ١٥هـ شـهد خـالد بـن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاويةبن أبي سفيان" .

أما معاهدة الرملـة فهـي عـين معـاهدة بيـت المقـدس، وقـد أورد الإنـس الجليل زيادة على هذا العهد منه:

١- أن لا تبنى كنائس ولا تتجدد في خطط المسلمين إذا هدمت.

٢- ان يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام بلياليها.

٣- أن لا يـواروا جاسوسـاً ولا يكتمـوا غشـاً للمسـلمين ولا يمنعـوا مـن أراد الإسلام .

٤- إن لا يبيعوا خمراً ولا يضروا بأحد من المسلمين .. إلخ

فلعل الزيادة التي ضمنهـا الإنـس الجليـل للمعـاهدة المسـطورة في تـاريخ الطبري هي ذيول أضافها عليها الملوك والخلفاء المتأخرون بحسب الظروف وإلا فالطبري أولى بدرجها لأن تاريخه مفصل وقد بناه على الإسناد والتحقيق .

وبعد أن أمضى العهدة أمير المؤمنين عمر بـن الخطـاب شـخص إلى بيـت المقدس بثيابه البسيطة وموكبـه الديموقراطـي لا كمـا نـرأه مـن قواعـد وملـوك القـرن العشـرين الذيـن لا يسـيرون إلا بالقطـارات الخاصـة أو الأتوموبيـلات الفخمة بأبهة عظيمة وحاشية مهيبة فقدم المدينة وخيم خارجها إلى أن سـلموها فدخلها وزار كنيسة القيامة فلما أدركتـه الصـلاة خـرج منهـا وصلـى أمامنهـا حيث كنيسة سيدتنا مريـم فأنشـئ هنـاك جـامع وأمحـى ولم يصـلّ في خشـية أن يدعيها المسلمون ويحولوها إلى مسجد .

ثـم طلـب إلى البطريـرك "صفرونيـوس" أن يريـه مكـان هيكـل سـليمان فذهب وأياه ودله عليه فلما شاهده مزبلة قذر وأطلالاً دثرة دهش وأخذ يحفـن التراب وينحضه بكفيه فتبعه من معه حتى تصيب عرقاً وأمر ببناء مسجد فـوق الصخرة في الحرم الشريف الذي يقدسه جميع مسلمي الأرض ثم أمرّ علقمة بن مجزز على نصف فلسطين الجنوبي وقاعدته إيليا وعلقمة بن حكيم على نصفهـا الآخر وعاصمته الرملة ورجع إلى الحجاز عاصمة الخلافة. وبعد سبع سنين فتح معاوية بن أبي سفيان مدينة قيسارية بوشاية رجل يهودي دلَّ العرب على نفـق فدخلوا منهُ إلى المدينة وفتحوها وسنة ٢٣هـ فتحت عسـقلان ولم يبـق لـلروم

مدينة ولا قرية فزال ملكهم عن فلسطين وأصبحت البلاد عربيـة في حكومتها وشعبها .

طاعون عمواس

كانت عمواس قرية يزيد بن أبي سفيان وهي اليوم من ناحية بني مالك تبعد ١٧ كيلوا متراً إلى الشمال الغربي من القدس انتشر منها الطاعون فمات أمين الأمة الإسلامية أبو عبيدة وأناب مكانه معاذ بن جبل فطعن وكلاهما مقبور في غور بيسان ويجاورهما قبر شرحبيل بن حسنة. وتوفي أيضاً يزيد بن أبي سفيان. ولما عين عمرو بن العاص أميراً عاماً للجند أمرهم إن يتفرقوا ويتوزعوا على رؤوس الجبال متباعدين عن بعضهم فخف الوباء وإنقطع المرض.

ويقدر مجموع من توفي بهذا الطاعون خمسة وعشرين ألف نفس وليس هذا العدد بكثير لما شاهدناه في الحرب العظمى .

وفي سنة ٦٣٨م تم للمسلمين الفتح فقسموا البلاد إلى أربع ولايات "أجناد" فكانت فلسطين قسمين (١) جند الأردن وعاصمته طبريا وبلادها بيسان وعكا والفولة (٢) جند فلسطين وحاضرته الرملة وبلادها القدس وعسقلان وقيساية وأريحا ويافا وعمان (٣) دمشق وبدها بيروت وصفد وصيدا (٤) الثغور التي فصل العباسيون جزءاً منها سنة ١٧٠ هـ وسموه العواصم وحاضرتها حمص وحلب وإنطاكية وطرابلس. إما مدينة القدس فكان لها إمتيازات خاصة لما لها من الإحترام الديني في نفوس المسلمين وقد التبس

على بعض المؤرخين فظنوها مستقلة عن الرملة والحقيقة إنها كانت تابعة إليها وسنة ٢١هـ تعين معايو والي دمشق والأردن حاكماً على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وأنطاكية وكليكيا ومعرة النعمان ولما إستخلف عثمان أشاف إليه جميع البلاد السورية فإنتدب معاوية علقمة بن حكيم الكناني والياً لفلسطين وأبا الأعور السلمي للأردن.

(٣٢) إدارة البلاد وأسباب نجاح العرب في فتوحهم

أ- إدارة البلاد

أبقى العرب البلاد ما كانت عليه فظل أكثر السكان يدينون بدينهم متصلين برئيسهم الروماني في القسطنطينية كما يرتبط الآن جميع المسلمين بالخليفة العثماني ويمارسون لغاتهم. فأهل فلسطين كانوا يتكلمون اليونانية وأهل مصر القبطية وأهل العراق الفارسية واتخذتها الحكومة لغات رسمية في دواوينها إلى أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان فأبطلها وألغاها واستبدلها باللغة العربية وضرب الدنانير الإسلامية فأصبحت الحكومة العربية وقتئذ مستقلة إستقلالاً إقتصادياً ولغوياً وسياسياً. فتهافت الأعجام على تعلم اللغة العربية ليستفيدوا من حرفة الكتابة لأن لغاتهم أهملت فتعربوا ودخل أكثر العجم في الدين الإسلامي وتدينوا به فأصبحت البلاد عربية إسلامية محضة يتخللها شرذمة قليلة من غير المسلمين .

(ب) أسباب النجاح*

مما يدعو إلى الأعجاب بهمة العرب وأعظامهم تفوقهم على غيرهم بالرغم عن عدم انتظامهم فأنهم تغلبوا على الممالك الراقية ودكوا عروش الحكومات المؤسسة التي كان لها الجند المنظم ولديها الحصون المنيعة وبيدها السلاح والذخائر وقد يعلل كثير من المؤرخين هذا النصر وينسبونه إلى عوامل معقولة وأسباب علمية مهدت لهم السبل لمد ظلهم حتى أقصى المعمور وهذه الأسباب :

(١) نشاطهم وخفة أثقالهم واكتفاؤهم بالقليل من الحاجيات ووفرة جمالهم ووسائط نقلهم .

(٢) اعتقادهم المتين في نص الآية ﴿ولن يؤخر ا لله نفساً إذا جاء أجلها ولا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[1] ومن الأحاديث: « الجنة تحت ظلال السيوف » [2]

(٣) مهارتهم وفروسيتهم ونجابة خيلهم وتفوقهم عدوهم في المبارزة واتقانهم رمي النبال.

(٤) عظمة رجال النهضة الإسلامية مثل عمر بن الخطاب وأبي بكر وأبي عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية .. إلخ

* راجع زيدان – تاريخ التمدن الإسلامي .

(١) سورة المنافقون الآية ١١.

(٢) متفق عليه.

(٥) الصبر والمطاولة وقلة حاجتهم للزاد والعلف الذي كان يبهظ عدوهم فيمل القتال قانعاً بالسلامة .

(٦) العصبية الجنسية فإن القبائل العربية المسيحية التي كانت خاضعة إلى الحكم الروماني الأجنبي صافحت أخوانهم العرب وإنضمت إليهم وحاربت معهم الرومان وهنا رجحت جامعة اللغة على جامعة الدين .

(٧) المحافظة على خط الرجعة فانهم كانوا حريصين على خط رجعتهم حتى لا يقطع العدو وينطوي عليهم فيأخذهم أسرى .

(٨) ظفر المسلمين بالروم في وقعة اليرموك فانه أكسبهم قوة معنوية واحتقروا عدوهم فاستصغروا شأنه وطمعوا فيه.

(٩) ظلم الرومان للسكان وفساد الأحكام حتى نقم الأهالي أحكامهم وملوا ولايتهم وتمنوا تبديلها .

(١٠) اليهود فأنهم كانوا آلة نقمة للعرب من الأهالي وأداة إنتقام ودليلاً للطرق شأنهم مع كل فاتح.

(١١) عدل المسلمين والتسوية بين الناس فلم يكونوا يفرقون بين أمير وحقير ورفيع ووضيع "ديموقراطية بحتة" .

(١٢) استبقاء الناس على ما كانوا عليه فلم يتعرضوا لدينهم أو معاملتهم أو أحكامهم القضائية والعرفية.

(١٣) وفرة الغنائم فقد فاض على المحاربين بحر من ذهب فكانوا يجنون من فتح البلاد غنى عاجلاً وغنائم جاهزة حتى إن كثيراً من العرب المتنصرة

اعتنقوا الدين الإسلامي وحاربوا حباً في المال .

(١٤) ضعف الفرس والرومـان بإختلافاتهم الداخليـة وعـدم إخـلاص القـواد لملوكهم وأمرائهم والذي يقابل بين فتح سورية ومصر وبين فتح العـراق يستغرب كيف خضعت الأوليان واسـتعصت الثالثـة واتعبـت المسـلمين فظلـت بعـد فتحهـا محافظـة علـى لغتهـا وعاداتهـا ولم يمـض عليهـا قـرن ونصف حتـى أسـتبدلت حكومتهـا الفارسية الوثنيـة بحكومـات فارسـية إسلامية فإصطفت الدين فقط وأنفت أن تتعرب كما فعلت الحكومـات الأوروبية فأنها تنصرت مع المحافظة علـى جنسـيتها ولغتهـا والسـبب في ذلك أن دولة الرومان كانت مستعمرة لسـورية فلمـا غلبـت إنحسـرت عـن البـلاد. وظـل السـكان وأكـثرهم العـرب فـاندمجوا في الحكومـة الإسلامية والقومية العربية وأصبحـوا أمـة واحـدة. أمـا العـراق فكـانت حكومته فارسية وكان سكانه عجماً فلما سـقطت دولتهـم ظلـوا فرسـاً فـاعتنقوا الديـن الإسـلامي ولكنهـم لم ينسـوا إسـتقلالهم فـتربصوا حتـى سنحت لهم الفرصة فاستعادوا ملكهم وقد حاولوا مرات قلب الحكومـة العربيـة فقتلـوا عمـر بـن الخطـاب وتحزبـوا لأل البيـت وسـاعدوهم في ثوراتهم ونصروا بني العباس ولا غرض لهم من كل هـذا إلا دك الدولـة العربية واسترجاع دولتهم الفارسية.

(٣٣) الفتح العربي الإسلامي والخلفاء الراشدون

شـرعت الحكومـة العربيـة توسـع حدودهـا وأطرافهـا فتجـاوزت سـورية

ومصر وشواطئ افريقية الشمالية والعراق وأيران والأفعان إلى أن توفي عمر بن الخطاب وانتخب عثمان بن عفان فضعف عن ضبط البلاد لتغير الأحوال وتفرق النزعات والآراء فهمَّ بإدارة المملكة كما يريد مروان بن الحكم ومعاوية بن أبي سفيان فأخذ برأيهما وولى أهله الأمصار وتعصب لقومه فعزل أهل السابقة في الإسلام والشهرة في الفتوح. فاغتنم هذه الهفوة يهود الحجاز الذين دخلوا في الدين الإسلامي ليفسدوه ويهدموا أركانه فطافوا الأمصار وقدم زعيمهم الأكبر عبد الله بن سبأ "ابن السوداء" الشام ليوغر الصدور مبشراً بكلمات براقة منها: "إن معاوية يقول المال مال الله إلا أن كل شئ لله يريد أن يحتجنهُ دون الناس ويمحو اسم المسلمين ويتلو الآية ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾[1] وقال أعجب ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد وكيف تعصون آل بيت نبيكم" ووضع أحاديث كثيرة وزوّر كتباً ورسائل أرسلها إلى البلدان يؤلب على عثمان. فإختمرت الثورة ونضجت في أفكار المسلمين فاشتعلت الفتنة وإضطرمت في كل الأقطار خلاً سورية لأن معاوية كان ساهراً يقظاً فخرج الثوار من مصر والعراق إلى المدينة ناقمين من أعمال عثمان ومطالبين بالرجوع إلى سيرة العمرين وبعضهم يقول أن علياً أحق بالخلافة من سواه فإنجلت هذه العاصفة عن قتل عثمان واختيار علي مكانه وشذ طلحة والزبير وخدعا عائشة أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم وخرجوا إلى العراق وخالفوا علياً

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٤.

فحاربهم وظفر بهم "في وقعة الجمل فقتل الاثنان وأُسرت عائشة وامتنع معاوية بسورية ولم يبايع لعلي وأخذ يتهمه بأنه رأس الضلالة. وأنه هو الذي ألب على عثمان وأوى قتلته فاجتمع بنو أمية حوله وعاضده عمرو بن العاص على أن يعطيه مصر طعمة. فغضب علي وهبّ لمقاتلته ومناجزته فالتقوا بصفين سنة ٣٦ هجرية واختلفت بينهم الرسل وتكرر السفراء طمعاً في الصلح فلم يتوفقوا لخير. وفي سنة ٣٧ هجرية أبتدأت الحرب وقد أظهر جند الأردن شجاعة فائقة. ثم أتفقوا على تحكيم رجلين فصلاً للخلاف ورفقاً بالمسلمين فأختار معاوية عمرو بن العاص داهية العرب ورضي علي بأبي موسى الأشعري. ولما اجتمع الحكمان وتفاوضا كاد عمرو أبا موسى وقال له لنخلع الرجلين حقناً للدماء ويكون الأمر شورى فخدع أبو موسى وقام خطيباً فخلع الرجلين (علياً ومعاوية) ثم قام عمرو فخلع علياً وأقرَّ معاوية فلم ترض شيعة علي بهذا الحكم وافترقوا مختلفين. ومن هنا بدأ أمر علي يضعف ويضمحل وشأنه يسفل وشأن معاوية يعلو حتى قتله ابن ملجم وبايع جنده ولده الحسن ثم إنتقضوا عليه فاستشار الحسن أخاه الحسين في التنازل عن الخلافة فنهاه قائلاً "أياك أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذّب أحدوثة أبيك" فلم يسمع منهُ وخلع نفسه بعد ستة شهور من حكمه وبايع معاوية وسلم إليه الكوفة عاصمة أبيه في آخر ربيع الأول سنة ٤١هـ فسمي هذا العام "عام الجماعة" لأنهم أجمعوا به على خليفة واحد ولكنَّ الخوارج كثروا وعصوا على الخليفة فكان كلما قضى على فرقة تنبت أختها وظلت طوائفهم تتعاقب حتى حين. فالطوائف الشيعية والزيدية والدرزية والإسماعيلية والأباضية هي بقية أولئك

الخوارج الذين تكوّنت نواتهم من نفثات إبن سبأ والذين حاربوا بني أمية وبني العباس وكادوا يهدمون الدين الإسلامي لولا أنه كان فتياً ويقوضون الدولة العربية لولا عصبيتها القومية.

(٣٤) نبذة من تاريخ القرآن الكريم

إن للقرآن أهمية كبرى في تَوحيد كلمة العرب وفتوحاتهم العظيمة نذكر هنا شيئاً عنه:

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدة ٢٠ سنة فكانوا يكتبونه على الرقاع وعظام الأكتاف وعسب النخل واللخاف أو يستظهرونه ويسمون حفظته الحفاظ. ويقسم القرآن بحسب محل النزول إلى مكي ومدني. أما بأعتبار الناسخ والمنسوخ فله أقسام: قسم ليس فيه لا ناسخ ولا منسوخ وهو ٤٣ سورة الفاتحة، يوسف، يسين إلخ. وقسم فيه الناسخ فقط وهوست: الفتح، الحشر، المنافقون، إلخ. وقسم فيه منسوخ فقط وقسم فيه ناسخ ومنسوخ وهو ٢٥ سورة البقرة، الحج النور إلخ .

والنسخ على ثلاثة أضرب أحدها ما نسخت تلاوته وحكمه، الثاني ما نسخ حكمه دون تلاوته الثالث ما نسخت تلاوته دون حكمه وكل ذلك تم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فلما قبض وارتد العرب وقتل أكثر الحفاظ في غزوة اليمامة أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بجمعه فتردد ثم جمعه من تلك المخطوطات ومن صدور الرجال. وأبقوه عند أبي بكر حتى مات فأخذه عمر فلما قبض بقي عند إبنته حفصة وفي خلافة عثمان إنتشر

المسلمون في كل الأقطار فذهب القرّاء في تلاوته مذاهب شتى فشهد حذيفة بن اليماني اختلافاً بين المسلمين في قراءة بضع الآيات ورأى بعضهم يفضل قراءة أبي موسى على ابن مسعود ✿ فأنبأ عثمان بذلك وأنذره بسؤ العاقبة فبعث إلى حفصة بنت عمر أن إرسلي الصحف لننسخها ونردها إليك فأرسلتها فدعا عثمان أجلة الصحابة وأمرهم أن ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظة القراء وقال لهم أن إختلفتم في شيء فأكتبوه بلسان قريش ففعلوا ذلك سنة ٣٠هـ وكتبوا ستة مصاحف فبعث عثمان بأربعة منها إلى الأمصار مكة والبصرة والكوفة والشام وأبقى أثنين في المدينة. والمصاحف التي نتداولها الآن هي فرع عن ذلك الأصل. كتب القرآن بلا شكل ولا أعجام حتى أيام زياد فوضع نقطاً لونها يخالف لون الكلمة "أعجام غير واف" ثم وضع أبو الأسود الدؤلي نقطاً ليتميز بها الاسم والفعل والحرف وربما اقتبس هذا من السريان والكلدان أما صور الحركات التي وصلت إلينا وهي الضمة والفتحة والكسرة فقد وضعها نصر بن عاصم بأمر الحجاج بن يوسف وجعلها أفراداً وأزواجاً. ثم أضيف إليها الحركات المماتة وهي الإمالة (e) والروم (u) والإشمام (o) فكانت لها أوضاع خصوصية وزيدت عليها علامات أخرى مقتطعة من كلمات تؤدي المعنى المراد نحو مدّ " ~ " صل " ۜ " شدّ " ّ " .
ولكن حفني بك ناصف قال في كتابه حياة اللغة العربية أن الشكل موجود قبل الإسلام وأسند حجته بأدلة وبراهين قاطعة. ومن المسلمين من يعتقد إن القرآن

✿ ومن هنا تفرعت القراءات الشاذة والصحيحة فابيدت الفاسدة ولم يبق إلا القراآت السبع وأشهرها قراءة حفص (راجع الأتقان) .

قديم ومنهم من يقول أنه حادث ومحدث هذه البدعة درهم بن الجعد إما المأمون فقد أمتحن العلماء القائلين بقدمه ونكل بهم المعتصم من بعده.

(٣٥) آثار الخلفاء الراشدين في فلسطين

الأبنية التي على رؤوس الجبال قد حولوها مناظر "مناطير" وجعلوها يشرف الواحد منها على الآخر فإذاً داهمهم العدو أنذر بعضهم بعضاً نهاراً بالدخان وليلاً بالنار فينتقل الخبر بسرعة كالتلغراف ويأتيهم المدد. ومن آثارهم تأسيس دور الضيافات وفرض عطاء للمجذومين وبناء الجوامع في القدس ونابلس وبيت لحم وغيرها.

(٣٦) أبطال النهضة الإسلامية

أن جميع النهضات القومية والانقلابات الاجتماعية يتقدمها أعمال تمهيدية تسهل لها النجاح فالانتباه الفكري والنبوغ الشخصي ركنا النهضات. وقد نبغ في الصدر الإسلامي أساطين عظام كان لهم القدح المعلى فى تكوين النهضة الإسلامية والدفاع عنها فجدير بنا أبناء الأمة العربية أن نرفع لهم التماثيل اقراراً بفضلهم واعترافاً بعظمتهم وتنويهاً بأعمالهم لنشفي بهم النفوس المريضة ونداوي الهمم الضعيفة فنقتصر هنا على سير من فتحوا فلسطين وكانوا عاملاً كبيراً في إحياء الأمة العربية فنقول.

١- عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب من بني عدي بطن من بطون قريش وكنيته أبو حفص كان تاجراً وله السفارة في الجاهلية فإذا ما اختلفت قريش وقبيلة أخرى انتدبته

وحده للمفاوضة ولا حق لسواه أن يشاركه فيها .

كان المسلمون ضعافاً حتى أسلم فاعتز الإسلام بـه وصحـب النبي "ﷺ" خير صحبة وكثيراً مـا نـزل القـرآن بما أشـار بـه وشـهد غـزوات بـدر وأُحـد والخندق وبيعة الرضوان. ولما ولي الخلافة قال "اللهـم أني شـديد فلـيني وأنـي ضعيف فقوّني وأني بخيل فسخني ان رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوموه" فأجابه أعرابـي قائلاً لو رأينا فيك أعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا. فحمد الله الـذي أوجـد في قومـه من يقوّم أعوجاجه. وهو أول من وضع التاريخ الهجري وفرض العطـاء "رتـب الرواتب" ودوَّن الدواوين فأسس نظارة المالية والحربية والإعاشة وقسـم البـلاد إلى منـاطق وعـين عليهـا الأمـراء ورتـب الغـزوات في الشـتاء "الشــواتي" وفي الصيف "الصوائف" ورتب البريد مجانـاً وأمـر ببنـاء البصـرة والكوفـة وتخطيـط شوارعهما بعرض ٢٠ ذراعاً والأزقة بعـرض ٧ أذرع وحجـر علـى المجذومـين ومنعهم ملامسة الناس.

وأقـام العيـون "الاسـتخبارات" يوافونـه بالأخبـار وعـين قاصـاً "مفتشــاً" يطوف علـى المـأمورين ويحقـق الشـكايات سـراً وعلنـاً ويحمـل إليـه مـا وجـده بالتدقيق. وأسس الحسبة "مجلس البلدية" لمشارفة الموازيـن والمكـاييل ومراقبتهـا ولمنع الغش وتنظيف الأزقة والرفق بالحيوان فيجازي مـن حملـه أكـثر ممـا يطيـق ويهدم البناء المحدث في مجتمع السوق وحظر علـى النـاس الإزدحـام في الطـرق وأمرهم أن يستروا الكنف وينحوا مثاعبها عن السـبل. وكـان إذا تكلـم أسمـع وإذا مشى أسرع وكان ديموقراطياً لا فرق عنـده بـين الملـك والسـوقة وحادثـة

الملك الغساني جبلة بن الأيهم مع الفزاري مشهورة وقصة عبد ا لله بن عمرو ابن العاص مع القبطي ظهيرة وقوله المأثور "مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحراراً" فكانت إدارته عرفية شديدة عادلة. كبح جماح الغطرسة البدوية وبنى عليها التساهل الحضري.

كان يحب التجارة وحرَّض قوَمه على مزاولتها فقال "لا تلهكم الرياسة وحبها يا معشر قريش لا يغلبنكم الغرباء على التجارة فأنها ثلث الإمارة" وكان إذا رأى فتى نشيطاً سأل عن حرفته فإن قبل لا حرفة له هان عليه وكان يكره الكسول ويكره من يقطف رأسه إلى الأرض وكان يقول للقراء أرفعوا رؤوسكم ولا تكونوا عيالاً على المسلمين كان يكره التنطع في الدين والولع في الزهد فأمر أن يعجل بأفطار رمضان وأن تمشي الناس مشية غير ناكسي رؤوسهم. وكان يقول للحجر الأسود أني أعلم أنك لا تضر ولا تنفع. ولما أخذ الناس يعظمون الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى ا لله عليه وسلم قطعها وفي الحقيقة أنه من أعظم بناة الإسلام ومكوني الأمة العربية. وفي خلافته فتحت سورية والعراق وإفريقية ثم فجع أبو لؤلؤة العرب بقتله.

٢- خالد بن الوليد

هو من بني مخزوم بطن من بطون قريش كان قائد فرسان قريش في الجاهلية "الأعنة والقبة" فلما أسلم أنفذه النبي مع سرية زيد بن حارثة لغزو الروم فكانت موقعة مؤتة وأستشهد فيها القواد إلى أن رفع المسلمون الراية إليه فأخذها وقاتل حتى اندق في يده بضعة أسياف فسماه النبي سيف ا لله المسلول

ثم اختاره أمير فرسان "سواري" المسـلمين وأبلى في فتـح مكـة البـلاء الحسـن وهدم صنم العزّى وهو ينشد.

يا عزّ كفرانك لا سبحانك   إني رأيت ا لله قد أهانك

وفي غزوة تبوك بعثه النبي صلى ا لله عليه وسلم إلى أكيدر دومة الجنـدل فأسره وكان ترساً وسـوراً للمسـلمين. وبعـد أن قبـض النـبي صلـى ا لله عليـه وسلم وارتد العرب وجهه أبو بكر لمقاتلتهم فأسلم بنو طـيّ قبـل قدومـه خوفـاً منه ونهد إلى طليحة الأسدي الذي كان قد أدّعي النبـوة ففـلّ جيشـه وهزمـه وقصد "أم زمل" فقتلها وتفرق من معها وسار إلى بني تميم وتخلف عنه الأنصـار منتظرين أمر الخليفة فقال لهم خالد "أنا الأمـير وإليّ تنتهـي الأخبـار ولـو أنـه لم يأت إليّ كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت أن أعلمت بها الخليفـة فـأتتني لم أعلمه حتى أنتهزها وكذلك لو إبتلينا بأمر ليس فيه منه عهد أشـاور قومـي ثـم أعمل. وها أنا قاصد ولست أكرهكم" فسار ثم لحقوه فقتـل مـالك بـن نويـرة أمير بني يربوع وتزوج أمرأته فغضب عمر وطلب مـن الخليفـة أن يقتـص منـهُ فأجابه: أرفع لسانك عن خالد فأني لا أشيم سيفاً سله ا لله لقـد تـأول فأخطـأ. وأستفحل أمر مسـيلمة وأدّعـي النبـوّة ونكـب جيـش عكرمـة وهـزم جيـش شرحبيل فرماه أبو بكر بخالد فذهب وقد خاف فرار مـن معـه ففصـل الأحيـاء عن بعضها ليظهر بلاء كل قبيلة على حدة. وبعد حروب شـديدة عزمـه وقتلـه ولما أن هدأت الثورة الداخلية أرسله الخليفة إلى أسفل العراق ففتـح الأبلـة ثـم الحفير وقصد الحيرة فدفع إليه إياس الطائي ٩٠ ألف درهم جزية.

وقدم إليه الفرس هدايا كبيرة فحسبها من الغنائم وأرسل خمسها إلى أبي بكر. وهزم الفرس على نهر الثني وعند الولجة وعلى نهر الليس فأتاه الدهاقين وصالحوه وسار إلى الأنبار ففتحها وحزف إلى عين التمر وامتلكها. وقد تضايق القائد عياض بن غنم وإستصرخه فأجابه: (من خالد إلى عياض أياك أريد) فسار وهزم أمير دومة الجندل وأخذ الحصن وشرع يتمم فتح العراق إلى أن بعثهُ أبو بكر إلى سورية فأخذ معه نصف الجيش ومر بتدمر وأتى المسلمين في اليرموك فوحد قواهم وخطب فيهم وعبى الجيش تعبية فنية وبعد قتال عنيف هزم الرومان ولم يقم لهم بعدها قائمة ثم ذهب إلى دمشق وفتحها وبعد أن عزله الخليفة عمر عن الإمارة العامة دخل صفوف المسلمين كجندي وحارب في بيسان ورجع إلى سورية فافتتح البقاع وفتح قنسرين وصالحه أهل حلب وفتح مرعشاً وخرب حصنها حتى لا يعتصم به أهلها.

فدهش أمير المؤمنين من أعماله العظيمة وقال "عجزت النساء أن تلد مثل خالد لقد أمَّر نفسه يرحم ا لله أبا بكر كان أعلم مني بالرجال".

ثم استدعاء إليه وترضاه فعاتبه خالد بكلام قاس فأجابه عمر "ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بهم" وكتب بذلك إلى الأمصار وهي أعظم شهادة لحفظ كرامة خالد الذي مثلى عرش الأكاسرة ودك أرائك القياصرة ولما أتته الوفاة قال عند أحتضاره "لقد شهدت مائة زحفة أو زهاءها وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما تموت العير فلا قرت أعين الجبناء" وفي الجملة فأنه رجل الإسلام

وقامع الرّدة وبطل اليرموك ولو أردنا إستقصاء أخباره لطال بنا البحث فنترك تحليل هذه الروح العظيمة إلى نباهة القراء وإستنتاجاتهم.

٣- أبو عبيدة

هو عامر بن عبدا لله بن الجراح ويتصل في فهر بنسب النبي صلى ا لله عليه وسلم الذي لقبه أمين الأمة وهو أحد العشرة الذين بايعوا النبي صلى ا لله عليه وسلم وفي موقعة بدر كان أبوه مشركاً فتصدى له وهو يحيد عنهُ ثم قتله وهذا من أعظم الإيمان وأثبت المبادئ الصادقة والعقائد المتينة التي لا يحول دونها شفقة ولا حنان وقد اختاره الفاروق قائداً عاماً لجيوش سورية فقام بوظيفته خير قيام وكان محترماً في قومه مستشاراً فيهم رفيقاً بضعفائهم معروفاً بالرأي والدهاء. سلمت إليه طائفة من دمشق صلحاً وحاصر فلول اليرموك في بيسان وحاربهم في فحل فأجهز عليهم. وسار إلى حمص ففتحها صلحاً وسلمت إليه معرة النعمان وحماة وامتنع أهل اللاذقية فاحتال عليهم وأمر بحفر سرب في الأرض يستر الفرس والفارس وأظهر لأهل المدينة أنه راحل وصبر حتى جنهم الليل فعادوا إلى حفائرهم فظن أهل المدينة أنهم أنصرفوا ففتحوا الأبواب وخرجوا فلم يرعهم إلا ظهور المسلمين من كل جانب ودخلوها عنوة. وفتح أنطاكية مرتين وكانت مشحونة بالمقاتلة ووضع فيها جيشاً يرابط الأعداء لوقوعها على الحدود.

ولم تطب نفس هرقل عن الفتح فعاود الكرة وفاجأ العرب بجند كثيف فخطب أبو عبيدة في قومه قائلاً: "أيها الناس هذا يوم له ما بعده أما من حي

منكم فأنه يصفو له ملكه وأما من مات فلـه الشـهادة ولا تكرهـوا الموت فأنـه خير من حياة المغلوب" .

ولما طعن عمر قالوا له استخلف يا أمير المؤمنين فقال "لو كان أبو عبيـدة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني سمعت نبيك يقول أنه أمير هذه الأمة" .

وقد توفي في طاعون عمواس وَدفن في غور بيسان وله أوقاف كثيرة وبني مشهده الملك الظاهر بيبرس وأوقف عليه بلاداً وأرضاً واسعة .

٤- عمرو بن العاص

هو من بني سهم بطن من بطون قريش وكان يعيّر بأمه لأنها سـبية ولـولا هذا الحيف الذي لحقه لزاحم على الخلافة. كان جزاراً وتاجراً وله مكانة سامية عند قومه لشهرته بالمكيدة واختراع الحيلة وكان يلقب داهية قريش .

تأخر اسلامه ولكن حسنت صحبته وقاد سرية ذات السلاسل وفيها أبـو بكر وعمر وكانت ليلة قرّة فكلمه أبو بكـر كـي يسـمح للعـرب بوقـود النـار فأجابه لا يوقد أحد منهم ناراً إلا ألقيته فيها فشكوه إلى النـبي صلـى ا لله عليـه وسلم فقال إني كرهت أن آذن لهم بوقود نـار فـيرى عدوهـم قلتهـم ويعطـف عليهم فحمد رأيه وأرسله على صدقات عمان فلما قبض النبي صلى ا لله عليـه وسلم أقبل فنزل بقّرة بن هبيرة فأكرم مثواه ولما عزم على الرحلة خلا بـه قـرة وقال أن العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة "الزكاة" فإن أعفيتموها مـن أخـذ أموالها تسمع لكم وتطيع وأن أبيتم فلا تجتمع عليكم فقال له عمـرو "أكفـرت يا قرة أتخوفنا بالعرب فوا لله لا وطئن عليك الخيل في حفش أمك".

وأعماله في فلسطين درجناها ملخصة فلا حاجة لاعادتها. كان شديد التطلع إلى مصر فهوّن فتحها للخليفة عمر حتى أذن له فسار بأربعة ألاف جندي ثم تبعته النجدات ففتح الفرما وبلبيس وأسر بنت المقوقس فجهزها وأعادها إلى والدها فسر بذلك وصالحه ولكن هرقل رفض الصلح فأقبل المقوقس إلى عمرو وعرّفه أن الملك كره ما فعلت وأمر الروم بقتالك ولكني لا أخرج مما دخلت فيه وأنما سلطاني عليّ وعلى من أطاعني وأرفق بالقبط فأنهم أعوانك فجمع عمرو عدته وهاجم الفسطاط فامتلكه وبث قواده فشرعوا يفتحون المدن والبلدان إلى أن تم له الفتح وقد تألف قلوب القبط فأعاد بطريركهم بنيامين الذي نفاه الرومان إلى منصبه ولم يقتصر عزمه على فتح مصر فقط بل جهز جيشاً واخترق الصحراء واحتل برقة وبنيغازي وطرابلس الغرب وما جاورها وحفر الخليج من النيل إلى البحر الأحمر ووصله إلى بركة التمساح. ولما أصاب أهل الحجاز مجاعة عام القحط والرّمادة طلب منهُ الخليفة زاداً فكتب إليه "أما بعد يا لبيك ثم لبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام" .

وهو الذي أبطل تقديم عروس النيل ولقد وصف مصر فقال: "مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان يدرّ حلابه ويكثر عجاجه وتعظم أمواجه فتفيض على الجانبين فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدا في جريته وطما في ردته فتخرج محفورة يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها

الحب فبينما هي لؤلؤة بيضاء فإذا هي عنبرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء فإذا هي ديباجة زرقاء فتبارك ا لله أحسن الخالقين".

ولما صرفه على عن ولاية مصر حقدها عليه وحرك لسانه فاعتزل السياسة وسكن الرملة إلى أن حدث الخلاف بين علي ومعاوية فكان من أكبر أنصار الثاني وأعظم أعوانه مستشاره في صفين وأحد الحكمين الظافر الذي ظل يمهد لمعاوية السبل ويسهل له الصعاب إلى أن أقل نجم علي وتكمشت حدوده فأخذ طعمته مصر وتملكها (ومن شاء الزيادة فليراجع ترجمة عمرو بن العاص تأليف حسن إبراهيم).

الفصل السادس

(٢٧) فلسطين أموية

بوفاة علي بن أبي طالب انقرضت الجمهورية العربية وتبدلت حكومتها الشورية بملك عضوض. فكان الخلفاء الراشدون لا يرثون الخلافة عن آبائهم بل كانوا يتعينون باتفاق الأمة واجماعها. وكل من كانت تضعف ثقته بالخليفة يتربص عن البيعة منزوياً فلا يروّع إذا ما خيف شره فأن أضمر خلافاً أو سوءاً يجبر على البيعة واتباع الجماعة الإسلامية طلب إليهم الرجوع إلى السنة فأن فعلوا سكن مستقيماً و الاجاز له خلع الطاعة.

مضت هذه الجمهورية العربية وابتدأت الحكومة الأموية بمؤسسها الكبير والإداري القدير معاوية بن أبي سفيان الذي لم يكن طموحه إلى الخلافة شرهاً بل كان رجلها الفذَ وبطل بني أمية الفرد الذين هم كانوا زعماء قريش في الجاهلية. فلما جاء الإسلام عابوه وقاوموه باطلاً فأرغموا يوم فتح مكة على الدخول فيه فترضاهم النبي صلى ا لله عليه وسلم وجعل لهم امتيازات خاصة فقال « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وأعطى من غنائم حنين لكل من أبي سفيان وابنه معاوية ١٠٠ بعير ليتألفهم فسموا ﴿المؤلفة قلوبهم﴾ وظل معاوية يتقدم إلى أن صار كاتب وحي النبي ثم اشترك وأخاه يزيد في فتح

(١) متفق عليه.

سورية ونالا في خلافة العمرين مكاناً علياً فوليا إمارة الجند وإدارة البلاد فلما ولي الأمر عثمان وقتل إتخذ معاوية قتله ذريعة لنيل الخلافة وصار يطالب بقتلته ويماطل في بيعة علي إلى أن فاز عليه وبويع له بالخلافة سنة ٤٠هـ في بيت المقدس. وسنة ٤١هـ بايعه الحسن فخلا له الجو ولم يبق له مخالف فإتخذ مدينة دمشق عاصمته لأن أهالي سورية وفلسطين كانوا حزبه القوي وركنه المتين فسكنوا بينهم وتألفوا قلوبهم وأقتطعوا الضياع في فلسطين فأوقف عثمان قريته سلوان على فقراء بيت المقدس وعمواس كانت أقطاع يزيد بن أبي سفيان والرملة مركز سليمان بن عبد الملك وكانت شرقي الأردن دساكر خلفائهم فيزيد الثاني توفي في أربد من أرض البلقاء وسكن الوليد الثاني بعياله وأمواله على ماء الأغدف من نهر الزرقاء وكان يطعم من وفد إليه ثلاثة أيام سواء كان صادراً من حج أو قافلاً من صائفة. وكان معاوية أول من أحدث ولاية العهد في الإسلام فبايع إلى ولده يزيد في حياته فأنكر ذلك نفر من الصحابة الحجازيين وامتنعوا من مبايعته لانهم ألفوا أن يكون أمرهم بينهم شورى فينتخبون الأفضل والأصلح خليفة لهم فاغدق عليهم معاوية الأموال حتى انصرف بعضهم إلى ملذات الدنيا وطيباتها وأصبحت المدينة مصدر اللهو والطرب رغماً عما في عليه من المناخ والأقليم ولكن البعض أكبر هذا العمل وجثم مستوفزاً فلما قضى معاوية هب الحسين بن علي ونزا نزوته فتوجه إلى العراق مشاقاً يزيد فقتله شمر بن ذي جوش (جد عائلة الشمامرة في قرية طلوزة) وأتى برأسه إلى دمشق فدفن فيها بباب الفراديس وقيل أنه دفن بعسقلان فبنى الملك الأفضل في خلافة المستنصر العلوي مشهد الرأس عليه ثم

نقله إلى القاهرة وبنى له مشهداً.

نشأة يزيد بن معاوية في فلسطين مع أمه ميسون بنت بحدل وكان شاعراً مجيداً فمن شعره :

دعوت بماء في إناء فجاءني	غلام به خمراً فأوسعته زجراً
فقال هو الماء القراح وإنما	تبدّى به خدي فأوهمك الخمرا

وبعد وفاته بويع لابنه معاوية الثاني فكان في زمنه بيعتان أحداهما إليه في الشام والثانية في الحجاز لعبد الله بن الزبير ولم تطل مدة الأول أكثر من ثلاثة أشهر فإنه لما رأى إنشعاب المسلمين وأنه عاجز عن إصلاحهم جمع الناس وخطب فيهم قائلاً: "أما بعد فأني قد ضعفت عن أمركم فإبتغيت مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر أجده فإبتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فأختاروا له من أحبيتم" ثم تغيب حتى مات فهذا عمل الشاب المخلص الذي انقرضت بموته الدولة السفيانية.

اضطربت الأفكار في سورية وفلسطين وأتجهت الأنظار نحو الحجاز فأجمع أمراء سورية على مبايعة ابن الزبير خلاً أمير فلسطين. وهمَّ شيخ بني أمية مروان بن الحكم ليبايعه مخافة الفتنة فنصحه عبيد الله بن زياد وهون عليه الصعب وأشار عليه أن يطلب الخلافة إلى نفسه فاستشرف إليها ونصره أمير فلسطين حسان بن مالك بن بحدل خال يزيد لأن هواه كان في بني أمية فدعا روح بن زنباع. واستخلفه على فلسطين وقال له إني أرى أمراء الأجناد يبايعون لابن الزبير وأبناء قيس بالأردن كثير وهم قومي فأنا خارج إليها وأقم

أنت بفلسطين فإن جلّ أهلها قومك مـن لخـم وجـذام وسـار إلى الأردن فـأخذ بيعتهم بشرط أن يجنبهم أبني يزيد خالداً وعبد الله لصغر سنهما فثار نـائل بـن قيس الجذامي وأخرج ابن زنباع من فلسطين فألتحق بالأردن وبايع نـائل لابـن الزبير فأرسل حسان كتاباً إلى الضحاك بن قيس أمير دمشق يعظم فيه حـق بـني أمية ويذم ابن الزبير فلم يسمع منـه فذهـب إلى الجابيـة وقـابل بـني أميـة وبعـد نجوى طويلة بايعوا مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ وذهبـوا إلى الضحـاك رئيـس القيسية فحاربوه في مرج راهط وظفـروا بـه فبـايع مـن معـه مـروان وفـر نـائل الجذامي إلى الحجاز واستولى على فلسطين روح بن زنباع فتم الأمـر لبـني أميـة في سورية. ثـم توجـه مـروان إلى مصـر ففتحهـا وبايعـه أهلهـا ورجـع إلى قريـة الصبرة "السمراء" قرب طبرية فشكر حسـان وأثنـى عليـه وجـد في السـير إلى عاصمته دمشق ثم جاء أجله بعد أن عهد بالخلافة إلى إبنـه عبـد الملـك وبعـده لعبد العزيز فاعـترضت عبـد الملـك أمـور شـاقة: ثـورات داخليـة، والخـوارج، وشيعة علي، ومناظرة ابن الزبير، ومنافسة عمرو بن سعيد، فصبر عليها بعزيمـة ثابتة وهمة راجحة وذللها فأحتال على عمرو وقتله وذهـب إلى العـراق فقـاتل مصعب بن الزبير وقتله وامتلك البلاد ثم وجه سنة ٧٢هـ الحجاج بـن يوسـف بجيش إلى الحجاز ليقضي على ابن الزبـير فذهـب واحتـل المدينـة وحصـر مكـة وخربها بالمجانيق وأضر بالكعبة وقسم حراسة أبواب المسجد على البلدان فأخذ أهل الأردن باب الصفا وأهل فلسطين باب بـني جمـح وأبلـوا في ذلـك الحـرب بلاء حسناً فلما تفرق عن ابن الزبير أصحابه دخل علـى أمـه وإستشـارها هـل يسلم إلى عبد الملك ويأخذ منه ما أراد فقـالت "أنـت أعلـم بنفسـك أن كنـت

تعلم أنك على حق وإليه تدعو فأمض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية وإن كنت أنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وأن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا؟؟ القتل أحسن ..." فقال هذا رأيي فقالت أرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً أن تقدمتني احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك فخرج وقتل عظيماً ومن ثم دانت البلاد لعبد الملك وسنة ٨٥هـ توفي ولي عهده عبد العزيز فعهد إلى إبنيه الوليد ثم سليمان فبايع جميع الناس ولم يتخلف إلا الخوارج والمتدينون .

(٣٨) بناء الحرم الشريف

هو أعظم آثار بني أمية في فلسطين ومن مفاخر العرب وشهود حضارتهم ونعم الأثر فإن هندسته ونقوشه وجمال تكوينه تفوق أجمل الأبنية في الشرق الأدنى .

إن المكان الذي بنيت عليه الصخرة كان مقدساً عند جميع المسلمين لأنه من أثر الأنبياء ولأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أسري إليه به ليلاً. أما أسباب بنائه فقد ذكر أنه لما عظم الخلاف بين ابن الزبير وعبد الملك وكان كل منهما يطلب الخلافة إلى نفسه خشي عبد الملك أن ينصرف عنهُ المسلمون ويبايعوا إبن الزبير لتعلقهم بالكعبة والقبلة فمنعهم الحج "كما قيل" فتذمروا وضجوا فرأى أن يشاغلهم ببناء هذا الأثر العظيم حتى أذا حدث ما حذر منه سلاّهم وطيب خاطرهم به .

فكتب إلى سائر الأمصار يستشيرهم في بناء قبة على الصخرة المقدسة لوقاية المصلين من حر الشمس وبرد الشتاء ويأخذ رأيهم في ترميم جامع عمر ابن الخطاب وتحسينه. وقال أنه لا يقدم على عمل خطير كهذا دون مشورة المؤمنين فرضي جميع المسلمين واستحسنوا رأيه فاستعان بمهندسي الروم وصناعهم ورصد للبناء خراج مصر سبع سنوات وعهد بإدارة العمل إلى رجاء ابن حيوة الكندي ويزيد بن سلام فبينا أولاً قبة السلسلة الكائنة شرق الصخرة لتكون نموذجاً وخزناً فيها كل الأموال وفرغا من عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى سنة ٧٣هـ وسنة ٦٩١م وقد فضل مع الوكيلين ١٠٠,٠٠٠ دينار فاخبرا الخليفة فسمح لهما بها مكافأة فرفضا ذلك. فأمر أن يصهر الذهب وتموه به القبة والأبواب وقد يرى الآن كتابة كوفية جميلة حول قبة الصخرة من عهد عبد الملك تدل على تاريخ البناء ولكن المأمون لما أمر بترميم المسجد تقرب إليه عماله المتزلفون فاستبدلوا اسم الخليفة الأموي باسمه وغفلوا عن تغيير السنة التي حدثت فيها العمارة. أما الحرم الحالي فليس جميع بنائه أموياً وإنما طرأ عليه تغيرات كثيرة بسبب الزلازل والإنقلابات السياسية وكر القرون فالذين رمموا الحرم وأضافوا إليه زيادات كثيرون منهم العباسيون ففي سنة ١٤٦هـ وسنة ٧٥٥م في خلافة أبي جعفر المنصور حدث زلزال شديد فتصدع جانباً المسجد الأقصى الشرقي والغربي فأمر بضرب ما كان على أبوابه من الذهب والفضة نقوداً لينفقونها على ترميمه، وفي عهد المهدي أصابه زلزال آخر فأمر بإعادة بنائه وغير شكله فقلل طوله وزاد في عوضه ولما زار المأمون سورية وفلسطين أمر بترميم بعض بنايات الصخرة وسنة ٣٠١هـ أمرت

أم المقتدر العباسي بصنع أبواب قبة الصخرة من خشب التنوب "كالصنوبر" (يكثر في جزيرة جاوا) وسنة ٤٠٧هـ و سنة ١٠٣٤ في خلافة الحاكم بأمر الله سقطت قبة الصخرة الكبيرة وقسم كبير من سور الحرم فرممت في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي وكذلك عمرّ فيها صلاح الدين والمماليك والسلطان محمد بن قلاوون وملوك آل عثمان سليمان وعبد العزيز وعبد الحميد .. إلخ. وقد طرأ عليها وهن سنة ١٩٢٢ م وسنة ١٣٤٠ هـ واستدعي لإصلاحها المهندس التركي كمال بك وقد قدر ما يلزمها من النفقة بمبلغ باهظ جداً .

(٣٩) وقائع الدولة الأموية

أجمع المسلمون على بيعة الوليد بن عبد الملك وتخلف الفقيه سعيد بن المسيب وحاول حاكم المدينة أكراهه فلم يفلح. ولما حج الخليفة أخرجوا كل من في المسجد ولم يتجرأ أحد من الحرس أن يتعرض إليه فقيل له لو قمت قال لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي كنت أقوم فيه. فقيل لو سلمت على أمير المؤمنين قال لا والله لا أقوم إليه. قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالخليفة في ناحية المسجد لئلاً يرأه فالتفت الوليد فرآه فقال من ذلك الشيخ أهو سعيد؟ قال عمر نعم واعتذر عنه بعجزه وضعف بصره فدار الخليفة في المسجد حتى أتاه فقال كيف أنت أيها الشيخ؟ فما تحرك بل قال بل قال بخير. فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ فانصرف وهو يقول هذا بقية الناس. وفي خلافته هرب يزيد بن المهلب من الحجاج وقدم فلسطين فنزل على وهيب بن

عبد الرحمن الأزدي فأخذه إلى سليمان بـن عبـد الملـك في الرملـة وتشـفع فيـه ونجاه وبعد وفاة الوليد أتت البيعة لأخيه سليمان وهـو في مدينـة الرملـة فبايعـه الناس وهو على سطوح الصخرة وهمّ أن يحول عاصمتـه علـى مـن دمشـق إلى الرملة أو القدس ثم عدل ولما إستخلف عمر بن عبد العزيـز أبطـل سـب علـي على المنابر وأمر كل العمال أن يضعوا مكانه ﴿أن ا لله يأمر بالعدل والإحسـان وإيتـاء ذي القربـي وينهـى عـن الفحشـاء والمنكـر والبغـي يعظكـم لعلكـم تذكرون﴾[1] فقال كثير:

وليت فلم تشتم علياً ولم تـخف   بـرياً ولـم تتبع مقالـة مـجـرم

وأمر بإنشاء الخانات في البلدان القاصية لإعالـة مـارة المسـلمين والتعهـد بدوابهم فيطعمون ويقرون يوماً وليلة ومن كانت به علـة يبقـى إلى أن يشـفى. ولما بويع الوليد الثاني كان مقيمـاً في البريـة فـافتتح أعمالـه بنفـي سـليمان بـن هشام إلى عمان انتقاماً منه بما فعله معه أبـوه. وتبـذل كثـيراً ففسـدت أحكامـه وعكـف علـى الشـراب وجـاهر بـه وإنغمـس في الطـرب والموسـيقى وإقتنـاء الكلاب المطوقة بقلائد الذهـب. وانتهـك حرمـة القـرآن فأكـبر ذلـك العـرب والمتدينون ونفر بنو أمية منه وتناحى أمراء قبـائل فلسـطين وأقـروا علـى خلعـه ومبايعة سواه فراودوا يزيد بن الوليد الأول فأجاب طلبهم وظل متكتماً إلى أن انتشر الوباء في الشام فخرج العباس بـن الوليـد إلى القسـطل وأخـوه يزيـد إلى بادية الأردنّ وأخذ يدعو إلى نفسه ويبايع الناس سراً فعلم أخوه العباس وقـال:

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠.

أنــي أعيذكــم بــا لله مــن فــتن مثــل الجبــال تسـامي ثــم تندفــع

أن البريــة قــد ملــت سياســتكم فاستمسكوا بعمود الدين وإرتدعـوا

لا تلحمـن ذئـاب النـاس أنفسـكم أن الذئـاب إذا مـا الحمـت رتعـوا

لا تـبقـرن بـأيديكـم بطـونكـم فـثـم لا حـسـرة تغـني ولا جـزع

وتهدد أخاه وأنذره بالسجن أو يرسله إلى الخليفة إن لم يقلع عـن عملـه. فلم يعقه هذا التهديد وسار إلى دمشق الشام خلسة وأحتلها وبايعهُ جميع أهلهـا وضبط الأموال والخزائن وتوافد عليه أعوانه فقـدم أهـالي جـرش مـن فلسـطين وغيرهم وكان الوليد على ماء الأغدف في ضياعه نافراً من الوباء فغضب وسير جنداً إلى دمشق فانضموا إلى يزيد ثم سار بنفسه فـالتقى العسـكران وأسـفرت المعركة عن قتل الوليد فحنق أهل حمص وخالفوا يزيد وبعد معركة خذلوا فيهـا بايعوا له. وقد وثب أهالي فلسطين بتحريـض سـعيد وضبعـان ولـدي روح بـن زنباع على عـاملهم سـعيد بـن عبـد الملـك فـأخرجوه وولـوا أمرهـم يزيـد بـن سليمان بن عبد الملك الذي كان سجيناً بعمان فدعاهم إلى قتال يزيد فأجـابوه لأن أهالي فلسطين كانوا ميالين لأبيه. ولما بلغ أهل الأردن ما فعل أهل فلسطين ولوا عليهم محمد بن عبد الملك وأجتمعوا معهم على قتال الخليفة يزيد الثـالث فعرف بهم الخليفة وسير اليهم سليمان ابن هشام فـاطمع سـعيد وضبعـان بـني روح وبذل إليهمـا المـال ومناهمـا بالولايـة فرحـلا بـأهل فلسـطين وبقـي أهـل الأردن فنهب سليمان قراهم فغضب أهل طبرية ونهبوا دواب وسلاح يزيد بن سليمان ومحمد بن عبد الملك ولحقوا بمنازلهم وبلدانهم فسار سليمان ونـزل في

قرية السمراء "قرب طبرية" فأتاه أهل الأردن وبايعوا ليزيد بن الوليد ثم ذهب إلى طبرية فصلى بها الجمعة وبايع من بها وتوجه إلى الرملة فأخذ البيعة على من بها واستعمل ضبعان بن روح على فلسطين وابراهيم بن الوليد على الأردن. ولكن هذا الإنقلاب لم يفد الأهالي شيئاً بل أطمع في الدولة الطامعين فأنكر مروان بن محمد عمل الخليفة وفظعه. ولما مات يزيد قام بالأمر بعده أخوه إبراهيم فزحف مروان إلى الشام وفتحها وبويع له ولكن المملكة كانت فوضى فخرج ثابت بن نعيم بأهل فلسطين وأتي طبرية فحصر عاملها الوليد بن معاوية بن مروان وقاتله أهلها أياماً فهزموه واستباحوا عسكره فارتد مخذولاً فتبعه القائد أبو الورد وهزمه ثانية فتفرق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان واستعمل الخليفة على فلسطين الدماعص بن عبد العزيز الكناني فظفر بثابت وبعثه إلى مروان فأمر به وبأولاده الثلاثة فقطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا. فامتعض أهل حمص وخلع سليمان بن هشام مروان وبعد معركة الخذل جيشه وهزم وظلت البلاد في قلاقل إلى أن أعلنت الدعوة العباسية واصطدم الجيشان العباسي والأموى في وقعة الزاب "قرب الرقة" العظيمة التي هدم بها ملك وقام ملك فجالد بنو أمية حتى خروا صرعى وكان أحد شبانهم يتمثل :

أذل الحياة وكره الممات	وكلاً أراه طعاماً وبيلاً
فأن لم يكن غير أحداهما	فسير إلى الموت سيراً جميلاً

وفر مروان بن محمد إلى فلسطين فنزل نهر أبي فطرس "العوجاء" فوجد

الحكم بن ضبعان الجذامي قد تغلب عليها. فاستجار بعبد ا لله بن يزيد بن روح الجذامى فأجاروه ولكن عبد ا لله بن على كان يقفو أثره ففتح دمشق وجاء إلى فلسطين فنزل علـى الأدن ثـم بيسـان ومـرج الـروم. فلقيـه أهـل الأردن وقـد سوّدوا فأتى نهر أبي فطرس وأقام فى فلسـطين وأرسـل بعوثـاً إلى مصـر خلـف مروان بقيادة صالح بن على فحاربوه وقتلوه فى قرية أبو صير أما عبد ا لله على فانُه تتبع أولاد الخلفاء ووجهاء بنى أمية فقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبـد الملك وأسر من وجدهم وبطش فيهم فقتل ٨٣ رجلاً على نهر العوجاء فخاف أعوان بنى أمية فبيَّض حبيب المريّ أحد قواد مروان وفرسانه وخلـع بيعـة بنـى العباس ووافقه أهل حوران والبلقاء والقيسـية وبعـد قتـال أخـذ الأمـان لنفسـه ولقومه ثم انتقض أهل حمص وبعد محاربة أخفقوا فيها دخلوا فى الطاعة وبيّـض أهل دمشق فعاد إليهم فثابوا إلى رشدهم بلا قتال وبيّض أهل الجزيـرة وقـادهم إسحق بن مسلم العقيلـي وهـو يقـول في عنقـي بيعـة لا أدعهـا حتـى أعلـم أن صاحبها مات فلما تيقن أن مروان قتل طلب الصلح والأمـان. فانتقـال الحكـم من دولة إلى دولة أو نزعه من يد إلى يد ليس بالأمر السهل بل يعقبه انقلابـات وثورات عقلية واجتماعية كبيرة وخطيرة.

لم ينفع تعصب مروان إلى النزارية فأنهم خذلوه لما غلب على ملكه فوثب أهل قنسرين بساقته وخانه الحارث بن عبد الرحمن الحرشي فـى دمشـق ووثـب به هاشم بن عمر العنسي والمذجحيون فى شرقى الأردن وعندما مـر بفلسـطين وثب عليه الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع واستقبل جميع القوم والحكومـة الجديدة بكل ترحاب.

(٤٠) محدثات بنى أمية وميزاتهم

كانت دولة بنى أمية عربية لتعصب للعرب وتحتقر سواهم فرغب ملوكها فى الحضارة ولم يجمدوا ونسوا البداوة وسارعوا إلى اقتباس ما حسن عندهم وتكيفوا بحسب الأحوال فأحدثوا ولاية عهد الخليفة وهو حي وقسموا إدارة البلاد إلى أمصار وكل مصرَ إلى أقسام. فالشام حاضرة وأمصارها فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين.

ومن آثارهم المجيدة فى فلسطين قبة الصخرة وأطلال سرايا سليمان بن عبد الملك فى الرملة مكان دار الحكومة اليوم وأشياء زهيدة أعرضنا عنها لقلة أهميتها. لم تعمر الدولة الأموية طويلاً وعجل على سقوطها أسباب هامة منها:

(١) تعدد ولاة العهد فى آن واحد فكانوا يتنافسون فى الخلافة فينبت الشقاق بينهم ويطمع كل واحد فى الوصول إليها ومن نالها سعى بخلع أخيه أو ابن عمه ليحرمه منها ويورثها بنيه فيمتنع الثاني ويقضي امتناعه إلى العداء والتنازع فتشعب الآراء وتفسد البلاد.

(٢) العصبية الجاهلية فقد نبضت فى وقعة مرج راهط وانشطر العرب إلى قيس ويمن وتأجج نارها فى خراسان فكان كلما تعين وال من حزب يقضي على الحزب الآخر.

(٣) ميل بعض الخلفاء ورغبتهم فى طمس آثار السلف كما فعل سليمان بن عبد الملك بقواد أخيه الوليد حتى خثرت النفوس الطامحة وفترت الهمم النازعة وضعفت آمال الأمراء بخلفائهم ولم يخلصوا لهم فثارت البغضاء

ونما الكـره فـى صـدور الأمـة فـانتكثت الوحـدة وانقسـمت المملكـة إلى حزبين سياسـيين لاهـمَّ لأحدهمـا إلا القضـاء علـى الآخـر وتغـاضوا عـن الدعوة العباسية التى كانت تنتشر بنشاط وسرعة.

(٤) احتقارهم الأعاجم والحط من قدرهم مما جعلهم يحقدون على هذه الدولة لما لحقهم من الـذل والصغـار فكـانوا يلتفـون حـول كـل ثـائر ليضعفوهـا ويهدموها ويبنوا غيرها عله يكون لهم فيها حظ وافر.

(٥) تولية الخلافة لغلمان ليسوا أكفاء فى العقل والتدبير وسياسة الدول.

(٦) انتشار "البروباغندا" بأن أهل البيت هم أهل الملك وبنو أمية مغتصبوه.

(٧) انفصال أجزاء المملكة عن بعضها البعض فوسائط النقل قليلـة والمخـابرة بعيدة والتجنيد بسيط وأطراف المملكة ممتدة فـإذا حـدث فتـق فـى الهنـد كان لايصل خبره إلى الام إلا بعد شهور فلو جهزوا اليها حملة لمـا وصلتـه إلا بعد سنة فصعب عليهم ضبط الثغور لعـدم ارتبـاط العاصمـة بهـا. أمـا القبائل التى سكنت فلسـطين والأردن فكثـير منهـا دذام التـى نبـغ منهـم موسى بن نصـير فـاتح الأندلـس وروح بـن زنبـاع وبقايـاهم بنـى صخـر والعطاونة فى الكـرك، ولخـم ومنهـم بـني عقبـة فـى التياهـا والمسـعودي، وتنوخ ومنهم عرب السردية والفحيلي في تل كلخ، وغسان وبهراء وبلي ومنهـم البلاونـة فـى بنـى صعـب والسـبع وغـور بيسـان وكلـب ومنهـم الشرارات. وقضاعة ومنهـم العزازمـة. بكـر، السكاسـك، قيـس، الأزد، تغلب، طي.

(٤١) بعض أبطال الدول الأموية

١- معاوية بن أبي سفيان

هو رأس الدولة الأموية وباني أركانها. كانت تلوح عليه مخايل الشجاعة من صغره فمر به رجال فقال أحدهم "سيسود هذا الغلام قومه" فقالت أمه هند "ثكلته أمه ان لم يسد غير قومه". اختاره النبي ﷺ لكتابة وحيه وعيّنه أبو بكر قائداً في فتح سورية وأمّره عمر ففتح قيسارية وعسقلان ويافا واسترجع أكثر البلاد الساحلية بعد أن كر عليها الروم ثانية في أواخر خلافة عمر، وظل يترقى إلى أن استوثقت له أحكام سورية وفلسطين ثم بويع بالخلافة فصانع رؤساء العرب وداراهم وترضاهم ونظم البريد وقسم الطرق إلى منازل وجهزها بالرجال والدواب لاستلام مايردهم وايصاله إلى من بعدهم ولقد أحدث السياسة والتساهل في الأحكام الشرعية فاتخذ الحرس وأنشأ أبهة الملك وعمل ديوان الخاتم" تغليف الرسائل" وأنشأ أسطولاً بحرياً مؤلفاً من ١٧٠٠ قطعة ورتب له أميراً وجعل يغزو الروم براً وبحراً وحصر القسطنطينية وكاد يفتحها لولا النار الأغريقية ورأى تطلع الناس إلى الخلافة وخاف حدوث الفتنة فبايع لأبنهِ يزيد وأحدث ولاية العهد وتبعه من بعده وكان يقول لو كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعت إذا شدوها أرخيتها وان أرخوها شددتها . وكان عمر بن الخطاب يقول تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية ومن قوله "أنى لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من عفوي وجهل أكبر من حلمي وعورة لا أواريها بستري وأساءة أكثر من أحساني" وقال أحب

الناس إليَّ أشدهم لي تحبباً إلى الناس.

وقد كتب إلى علي بعد وقعة صفين "أما بعد فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض وأنا وإن كنا غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا مانرد به مامضى ونصلح به مابقى وقد كنت سألتك على أن لا تلزمني لك طاعة وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس فأنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ولا تخاف من القتل إلا ما أخاف وقد وا لله رقت الأجناد وذهبت الرجال ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز ويسترق به حرٌّ والسلام".

٢- الحجاج بن يوسف "كليب"

هو من قبيلة ثقيف كان معلم مكتب الطائف ثم التحق بروح بن زنباع الجذامي وزير عبد الملك إلى أن فسد جند الخليفة فأصبحوا لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله فأشار عليه روح بتولية الحجاج أمر العسكر فقلده إياه فألزم الجيش الطاعة وجبرهم على محافظة النظام فتأخر يوماً أعوان روح بن زنباع فجاءهم وهم على الطعام فوقف عليهم وقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين فقالوا له انزل يا ابن اللخناء فكل معنا فقال لهم هيهات ذهب ذلك. ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوّفهم فى العسكر وأحرق فساطيطهم ففزع روح إلى عبد الملك وشكاه فقال له عليٌّ به فلما دخل قال له "ماحملك على ما فعلت" فأجابه أنا مافعلت بل أنت فعلت إنما يدي يدك وسوطي سوطك وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين

وعوض الغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدّمني له فأعجب به وتقدَّم في منزلتـه وكان ذلك أول ما عرف من كفايته.

حـارب ابـن الزبـير وآلى أن لايشـلح السـلاح ولا يُطقطــق النســاء ولا يتطيب حتى يظفر به وحصره ورمى الكعبة بالمنجنيق فارعدت السـماء فـأعظم ذلك أهل الشام فأخذ الحجارة ووضعها بيده فى المنجنيق ورمى بهـا وقـال "يـا أهل الشام لاتنكروا هذا فانيّ ابن تهامة وهذه صواعقها وهذا الفتح قد حضر" لما عين عاملاً على تبالة فى اليمن ذهب وسأل عنها فقيـل لـه أنهـا خلـف هـذه التلعة فرجع قائلاً لابارك ا لله فى مدينة تسترها ذروة.

ولما شمخ أهل العراق وخشنوا عين إليهم فذهب باثنى عشر راكباً ودخل الكوفة وبدأ بالمسجد فصعد المنبر وأعلن الحكم العرفي بخطبتـه المشـهورة التى منها:

يا أهل الكوفة إنى لأرى رؤُساً قد أينعت وحـان قطافهـا وإنـي لصاحبهـا وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحـى ... إلخ وانسـاق لـه العـراق وبنـى مدينة واسط التى دفن بها وهو من الذين وطـدوا الملـك لبـني مـروان وأخبـاره طويلة يرجع إليها فى المطولات. فهو بالاجمال مـن أعظـم قـواد الفتـوح وو لاة البلاد والجيوش.

٣- موسى بن نصير اللخمي

كان شجاعاً تقياً لم تهزم له رأية وليّ إفريقيـة فصـرف همتـه فـى تعريـب البربر وإدخالهم فى الديــن الإسـلامي فغزاهـم وقهرهـم وأتم بلادهـم فتحـاً ثـم

أرسل مولاه طارقاً إلى الأندلس فاجتاز البحر ثم حرق السفن وخطب قائلاً "أين المفر !! البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم وا لله إلا الصدق والصبر وأعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشهِ وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ولا أقوات لكم غير ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم" ثم لحق به فأكمل البلاد وتم له النصر ونقل الدين الإسلامي إلى قارة أوروبا ولكن سليمان بن عبد الملك قابل أعماله الجليلة بالاساءة والكفران فعزله عن جميع أعماله وحبسه وأغرمهُ مالاً كثيراً. ومن قواد الأندلس عبد الرحمن الغافقى الذى اخترق جبال البيرينيه وأوقع بالأفرنسيين فى سهول بواتيه وكانت هذه المعركة الفاصلة لتقهقر العرب من الأندلس بعد حين .

(٤٢) الدعوة العباسية

لم يقم من بنى العباس من يطالب بالخلافة ولم تطمح أنظارهم إليها فنسيتهم الأمة ولم يتبع لهم أحد فقضوا أوقاتهم بمعزل عن الحركات السياسية حتى سنة ١٠١هـ إذ وفد عبد ا لله بن محمد بن الحنفية على الخليفة سليمان ابن عبد الملك فخافه وأرسل إليه من سمه فى الطريق فلما قصد الحميمة[*] قرية محمد بن على العباسي عاذ به العلوي وبايعه وعهد إليه بالخلافة ومن هنا أبتدأت الدعوة العباسية. وقد تطورت فى دورين، الأول دور الدعوة وهو من

---

[*] هى الحمة عند طبرية على الطريق الحجازي والعراقي. كانت قرية حقيرة أقطعها الوليد بن عبد الملك إلى محمد بن علي بن عبد ا لله عباس وأسكنه أياها.

سنة ١٠١هـ – سنة ١٢٩هـ. نشرت فيه محبة آل البيت ومساوئ بنى أمية بتأن وتريث والثاني دور العمل وفيه أعلنت الدعوة وجُهر بها.

عرف العباسى أن كل محاولة فجائية يعقبها الخسران وأن هدم الدول وتأسيسها ليس بالعمل السهل وخشي أن هو أعلن اسمه أن ينفض من حوله دعاة العلويين فكتمه وأمرهم أن يدعوا إلى الرضى من آل محمد فقط ووجههم إلى خرسان فأسسوا جمعية سرية ذات فرعين الفرع الأول النقباء وهم اثنا عشر والفرع الثانى المبشرون وهم سبعون رجلاً يطوفون البلاد ويثيرون الناس ضد بنى أُمية واتخذوا موسم الحج مؤتمرا عاماً يتداولون فيهِ الآراء وكانوا كلما اعترضتهم عقبات ذللوها حتى سنة ١٢٠هـ فعظم الخلاف بين المضرية والنزارية فتنفست الشيعة وجدّت في أمرها، وفي سنة ١٢٩هـ أعلن أبو مسلم الدعوة ولبس هو ومن معه السواد شعار العباسيين ونشروا الرأيات السود "الظل والسحاب" فعرف بهم نصر بن سيار فكتب إلى مروان بن محمد يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

فان النار بالعودين تذكو ... وان الحرب مبدؤها كلام

فان لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام

فقلت من التعجب ليت شعرى ... أيقاظ أمية أم نيام

فأجابه اقطع هذا الثألول ولم يعبأ بهِ. أما أبو مسلم فأخذ يتقدم ويفتح البلدان ويرسل قواده فيستولون بسرعة على إقليم بعد إقليم حتى استوثقت له خراسان ولا أحد يعلم لمن هى الدعوة إلا المبشرون بها إلى أن وقع كتاب

إبراهيم الإمام فى يد الخليفة مروان فأرسل إلىالوليد بن معاوية بن عبد الملك عامل دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكداد والحمة من يأخذ إبراهيم بن محمد ويرسله إليه ففعل وأخذه من مسجد القرية وهو ملفف وحمل إلى الوليد فبعث به إلى موان فحبسهُ فى حرّان فأثبت وصيته إلى أخيه أبى العباس السفاح ودفعها إلى مولاه سابق الخوارزمي وأوصاه أن يقوم بالدولة وأن لا يلبث بالحمة بل يتوجه إلى الكوفة فأخذ أبو العباس أهل بيته وسار إلى الكوفة وسنة ١٣٢هـ ظهر أبو العباس ولقب بالسفاح وأخذت له البيعة علناً فى المسجد من الصباح حتى جنهم الليل وظل نجمهم يشرق ونجم بنى أمية يغور حتى قتل مروان وملكوا جميع الأقطار.

ومن تأمل فى فوز العباسيين وهم جمعية بسيطة علىبني أُمية وهم أصحاب الحكومة والدولة والجند والخراج يأخذه العجب ويستغرب كيف تم لهم ذلك ولكن لو عرف أن هذه الجمعية كانت منظمة ورجالها مخلصون وأن كل جديد مقبول وكل قديم منفور لزال عجبه واستغرابه.

الفصل السابع

(٤٣) فلسطين عباسية

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم النبى "ﷺ" وهم الذين نهضوا على بنى أمية فاستأصلوا دولتهم من الرق وبنوا دولتهم على أنقاضها فأخضعوا العصبية العربية وأذلوا مضر وعززوا نفوذ الأعاجم الذين استبدوا بالأحكام فأصبحوا هم الملوك والعرب أسراهم.

تشكلت الدولة العباسية وبعثت ولاتها إلى الأمصار فكان والي سورية وفلسطين عبد الله بن علي ثم ضمت الأردن إلى دمشق وتعين صالح بن علي حاكماً على فلسطين والبلقاء تحت إمرة عبد الله بن علي وكلاهما عباسي فظل تابعاً له حتى خرج عبد الله على المنصور وغُلب فتعين صالح إلى مصر.

وقد امتازت الدولة العباسية عن سواها باقبالها على العلم وترجمتها الكتب العلمية والفلسفية ونشرها فى الأقاليم وتحسين المعارف ومساعدة المؤَلفين وإدرارا النفقات عليهم وتشويق الأدباء وتشجيعهم الناس للاقبال على حرفة الأدب ... إلخ.

وقد عامل هارون الرشيد نصارى فلسطين معاملة حسنة فسمح للامبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء حيث يقوم على آثارها كنيسة الدباغة وبجانبها دير يأوي إليه زوار اللاتين. وفى سنة ٧٩٦م اهدى إلى شرلمان ساعة وفيلا وأقمشة نفيسة وأرسل إليه مفاتيح كنيسة القيامة

وتعهد إليه بحماية حجاج المسيحيين الذين يأتون لزيارة القدس.

وفى زمن خلافتي المأمون والرشيد زهت الدولة العباسية وأضاء عصرها الذهبي سياسة وآداباً وعلماً لأن مملكتهما امتدت من الأندلس وشمال إفريقية إلى شمال البحر الأسود والصين ونصف الهند ومن جزيرة العرب إلى حدود أنقره فكثر العلماء والأدباء فى أيامها وترجمت كتب الطب والفلسفة والهندسة والجغرافيا الخ. فكانت بغداد مهد الأدباء والعلماء وعش الجامعات ومعارض الكتب والمكاتب.

وفى سنة ١٨٦هـ هاجت فتنة بدمشق بين المضرية واليمانية وسببها أن رجلاً من بنى القين خرج بطعام له يطحنه فى الرحى بالبلقاء فمر بمقثأة لرجل لخمي فتناول منها بطيخه فشتمه صاحبها فتضاربا وانحاز لكل منهما قومه فكبر الخطب وقتل رجل يمني وتداولوا الصلح بينهم فأبى اليمانية وجمعوا أمرهم وغزوا بنى القين فقتلوا منهم ٣٠٠ شخص فثاروا واستنجدوا قيساً فأجابوهم وساروا معهم إلى الصواليك من أرض البلقاء فقتلوا ناليمانية ٨٠٠ شخص فتخربت الحكومة إلى اليمانية وساعدتهم فانتصر عليهم أبو الهيذام زعيم المضربة وفرق جموعهم. وفى سنة ١٧٧هـ استعلت عليه الحكومة وبددت جمعه فنامت الفتنة ثم هاجت ثانية فتلافاها الرشيد وأصلح بينهم.

وقد أقطع المأمون أخاه المعتصم "أبا إسحاق" الشام ومصر وفرض على دمشق وحمص والأردن وفلسطين ٤٠٠٠ جندى يقدمونها لغزو الصائفة وقطع للفارس ١٠٠ درهم راتباً شهرياً وللراجل ٤٠ درهماً. وفى سنة ٢٢٧هـ سنة

٨٤٢م خرج أبو حرب المبرقع على المعتصم واعتصم بجبال الأردن. وسبب مخالفته أن بعض الجند أراد النزول في بيته وهو غائب فمنعتهُ امرأته فضربها الجندي بسوط فأصاب ذراعها، فلما رجع إلى منزله شكت إليه ما فعل بها الجندى فخترط سيفهُ وقتله ثم دعا رؤساء قومه فاستجابوا له والتفوا حوله ومنهم ابن بيهس المطاع فى قومهِ فأرسل إليه المعتصم رجاء بن أيوب الحضاري بجيش زهاء ألف رجل. فلما رآه فى عالم كثير كره مواقعته وتربص حتى جاء موسم الزراعة فانصرف من معهُ من الزراع إلى أشغالهم وبقى فى نفر قليل فناجزه رجاء ثم أخذه وابن بيهس اسيرين.

ومن أمعن النظر فى هذه الثورة وجد أن سببها الظاهرى غير كاف لاعلانها لأنهُ ليس من السهل أن يدعو الناس رجل بسيط فيلبيهِ جمع غفير ويحارب لأجله الحكومة ذات الحول والطول ولكن الحقيقة هى أن الخليفة المعتصم استكثر من الجنود الأتراك فعبثوا بعادات البلاد وطبائع أهلها فسخط العرب على الخليفة وحكومته تعصباً وغيرة إلى أن نهض أبو حرب فشجعوه ونصروه فلو لم تكن الغاية واحدة والكره مستحكماً فى نفوس الجميع لما اتفقوا على خلع طاعة المعتصم الجاني على العرب والحكومة العباسية باستكثاره من أخواله الآتراك فى بلاطه ومنحهم السلطة الواسعة حتى تحكموا فى الدولة واستبدوا بالملك واستأثروا بالأموال فكان منهم الجند والقواد والولاة وأصبح العرب وهم أصحاب البلاد غرباء والأتراك وهم الدخلاء حكام البلاد.

وفي سنة ٢٥٢هـ عقد لعيسى ابن الشيخ سليل الشيباني على الرملة فأنفذ خليفته أبا المغراء واستولى على جميع فلسطين وتغلب على دمشق وأعمالها واستبد بالأموال وقطع ماكان يحمل للخليفة. فذهب سنة ٢٥٦هـ إليه اما جور وقتل ابنه منصوراً وأخذ منهُ ودمشق. ولم تدم عظمة الدولة العباسية طويلاً لأنها أسست من عناصر مختلفة متباينة الميول والطبائع والأخلاق فاستهوى الخلفاء مواليهم ورقوهم من حارس ووصيف إلى قائد وأمير فلم يخلصوا إليهم ولم يرعوا هذه النعمة ولم يحفظوا ذاك الجميل وأنكروا حسن الولاء فسلبوا الخلفاء أبهة الملك وجلالته وسيطرته وأبقوا اسمه فأصبح الخليفة آلة في يدهم محدود النفوذ محجوز الإرادة ضعيف القوة فإذا ما حنقوا منهُ أو توسموا فيه الحزم أو النزوع إلى الاستقلال خلعوه أو سملوا عينيه وقد شعر المتوكل بنفوذ الأتراك والأعاجم فهم بنقل العاصمة من بغداد الفارسية التركية إلى دمشق العربية تخلصاً من جورهم وفراراً من غطرستهم فأنشده يزيد المهلبي:

أظن الشام تشمت بالعراق إذا عزم الامام على انطلاق

فان تدع العراق وساكنيها فقد تبلى المليحة بالطلاق

وقيل أنهُ استوبأ دمشق وتركها فرجع إلى العراق والأصح أنهُ خشي نفوذ الأتراك وتخوف أن يخلعوه ان لم يدارهم فصدق ظنه وقتلوه في بغداد وقد تمادوا في العسف والاستبداد فاحتقروا الخلفاء واستصغروهم وسلبوهم حريتهم الشخصية حتى قال الشاعر:

خليفـــــــة فــــــى قفـــــص بـــــين وصيـــــف وبغـــــا
يقول ما قالا لـــــــــــــه كما تقول الببغـــــــــــا

وقد شددوا فى الحجر علـى الخليفـة المعتمـد فكـان يطلـب الدرهـم فـى خزانته فلم يجده فقال:

أليـس مـن العجـائب أن مثلـي يرى ما قل ممتنعاً عليـــــــــهِ
وتجبى باسمه الدنيا جميعـــــــاً وما من ذاك شئٌ في يديـــــــه

ومن تبصر قليلاً ورأى كيف أن الدخيل ينزل البلاد معدما لايملـك شيئاً فيمتص الدماء ويختلس الأموال ثم يحكم الرقاب عرف أن كـل أمـة لاتسـهر على مستقبلها ولا تحافظ على كيانها فمصيرها إلى الدمار.

الفصل الثامن

(٤٤) الدولة الطولونية من سنة ٢٥٤هـ - سنة ٢٧٠هـ أو سـنة ٨٦٨ م - ٨٨٣م.

تنتسب هذه الدولة إلى طولون الغلام التركي الذى أهداه نـوح بـن أسـد الساماني عامل بخارى إلى المأمون فلم ينل ملكاً ولكن ولد له غلام فسماه أحمد وقيل أنهُ تبناه ورباه تربية عربية.

وقد نشأ عظيماً يتقن اللغة العربية كأبنائهـا وسـاعده استعداده الفطـري وسما به جده فقدم مصر نائباً عن الأمير باكباك ودفعته مقدرته السياسية إلى أن صار والياً لمصر فسعى إلى الاستقلال الداخلي وأكثر من الجند والحشم وقـرب العلماء والقراء وبنى جامع ابن طولون فى مصـر، ورتـب الصدقـات والمبرات فاستمال الناس واجتذب قلوبهم ولما علم وتيقن أن الدولة العباسية ضعيفة وقد انهكتها غارات الثوار الداخلية وفتنة الزنوج العظمى طمع فيها وقطـع ارسـال الخراج إلى الخليفة المعتمد غير وجـل واعـتز بنفسـه فأغـار علـى فلسـطين سنة ٨٧٨م وضمها إلى دولتهِ وعين واليـاً للرملـة. فاتسـع ملكـه حتـى جـاوز نهر الفرات وبنى قلعة يافا القديمة وحاول الاستيلاء على مكة فلـم يفلـح ثـم قطـع خطبة ولي العهد الموفق لمنافسة كانت بينهما فأمر الموفـق أن يلعـن علـى المنـابر وحذف اسمه من الخطبة واعتبره خارجياً. وفى عهد إمارتـه سـكنت البـلاد مـن القلاقل إلى أن توفى سنة ٨٨٤م وسنة ٢٧٠هـ وولى الأمر بعـده ابنـه خمارويـه

وفى سنة ٢٧١هـ كانت موقعة الطواحين على نهـر روبـين(*) فـانتصر المعتضـد أولاً وهرب خمارويه وبينما كـان جنـده منهمكـاً بنهـب السـواد خـرج عليهـم الكمين ووضع فيهم السيف ففر المعتضد وظل الجيشان يضطربان وليس لواحد منهما أمير فانجلت المعركة عن خذلان العراقيين واستظهار المصريين.

فذهب البشارة إلى خمارويه وهو فى مصر فسرَّ كثيراً وبعـد ذلـك صـالح الخليفة وتوثقـت العلائـق بينهمـا فقلـده أحكـام مصـر والشـام وحـدود الـروم بشرط أن يدفع ٤٥٠ الف دينار سنوياً ويترك العواصم وقنسرين. وقد تقـرب للمعتضد فقدم اليه هدايا ثمينة وعرض عليه أن يزوج ابنته "قطـر النـدى" بابنـه فقبلها الخليفه لنفسه وجهزها أبوها بجهاز عظيم أَسرف فيه وانفق مـن الأمـوال ما أضعف ماليته فأساء إلى الأهالي ونفرهم فقتل فى الشام ذبحاً ودفن فى مصـر سنة ٨٩٦م وسنة ٢٨٢هـ وتعاقب على البلاد أبناء بنى طولون فلـمُ يـرو لهـم عمل مبرور أو شر مذكـور وسـنة ٩٠٥م وسـنة ٢٩٢هـ انقرضـت مملكتهـم وأخرجهم محمد بن سليمان من مصر والشام وفـى سـنة ٢٩٣هـ كـان عـامل دمشق والأردن وفلسـطين أحمـد بـن كيغلـغ فذهـب إلى مصـر محاربـة إبراهيـم الخليجي وأناب عنه فى الأردن يوسف بن إبراهيم بن بغا فاغتنم القرامطة هـذه الفرصة وساروا إلى بصرى وأذرعات [أذرع](**) فافحشوا فى النهـب وأثخنـوا فقتلوا نائب البلاد يوسف ونهبوا طبريا وعاثوا فى الأرض فساداً فأنفذ الخليفـة

(*) لم تزل أثار الطواحين هناك وقد وهم من ظنه نهر العوجاء.

(**) يوجد ثلاث بلاد متشابهة الأسماء وهى: أذرح جنوب الكرك، أذرع ذرعاه، أذرعات أزرع.

حسين بن حمدان إلى مقاتلتهم فانسحبوا إلى البادية وكانوا يغوّرون الماء خلفهم حتى لا يستطيع الجيش أن يتعقبهم لقلة المياه.

(٤٥) الدولة الأخشيدية سنة ٣٢٣هـ – سنة ٣٣٤هـ (٩٣٤م)

أخشيد لقب ملوك فرغانة في تركستان ومعناها ملك الملوك. مثل تبع اليمن وإمبراطور وملكشاه وقيصر وكسرى ...

أما مؤسس الدولة الأخشيدية فهو طغج بن جف من سلالة ملوك فرغانة القدماء كان من مماليك المعتصم فاقطعهُ محلاً في (سرّ من رأى)[1] وبعد وفاته اتصل ابنه طغج بلؤلؤ غلام ابن طولون. ثم عرفه أبو الجيش خمارويه فأعجب به وقلده دمشق وطبرية. فلما قتل أبو الجيش عاد طغج إلى المكتفي فوشى به وزير الخليفة العباس بن الحسن لأنهُ أبى أن يتزلف إليه فأمر الخليفة بسجنهِ إلى أن قضى نحبه ثم هرب ابنه محمد إلى الشام واتصل بأبي منصور تكين الخادم. فأظهر مقدرة وهمة ودهاء فلقده عمان وجبل الشراة وتدرج في الرئاسة فعين حاكماً للرملة سنة ٣١٨هـ وسنة ٩٢٧م. ثم نقل إلى دمشق فسر بهِ الخليفة القاهر وولاه مصر سنة ٣٢١هـ فمكث بها برهة قصيرة وصرف عنها ثم أُعيد إليها في خلافة الراضي وعهدت إليهِ أعمال مصر جميعها فعزل عنها أحمد بن كيغلغ ومنحه الخليفة صلاحية واسعة فصار أشبه بملك مستقل وسنة ٣٢٨هـ استولى ابن رائق[2] على دمشق وتوجه إلى الرملة فملكها وسار إلى عريش مصر

---

(١) مدينة في العراق تدعى سامراً. (٢) حاكم حران وقنسرين والعواصم.

فصادمه الأخشيد وهزمه فارتد إلى دمشق بأقبح صـورة فتعقبـه أخـو الأخشـيد أبو نصر بن طغج بجيش كثيف فاعترضه ابن رائق واقتتلوا على عين اللجـون[1] فقتل أبو نصر وانهزم عسكره فأخذ ابن رائق وكفنه وحمله إلى أخيـه الأخشـيد بمصر وأنفذ معه ابنه مزاحم وأصحبه بكتاب يعزّيـه بأخيـه ويعتـذر عمـا جـرى ويأسف على ما حدث ويحلف أنهُ ما أراد قتله وقد قدم ابنه ليقتص منـه فتلقـى الأخشيد مزاحماً بالجميل وخلع عليه وردَّه إلى أبيـه واصطلحـا علـى أن تكـون الرملة وما وراءها للأخشيد وباقي فلسطين والشام لابن رائق بشرط أن يحمـل إليه الأخشيد عن الرملة ١٤٠ الف دينار سنوياً.

وفى سنة ٣٣٠هـ هب الأخشيد مـن مصـر لفتـح دمشـق فاسـتأمن إليـه عاملها محمد بن يزداد فنقله إلى شرطة مصر وأناب بها بدر الخرشني. وفى سنة ٩٤٣م سنة ٣٣٢هـ قلد الخليفة الأخشيد إمارة الحجاز وسنة ٣٣٤هـ ٩٤٦م توفى بدمشق ودفن بالقدس وولى الأمر بعده أبنه أبو القاسم أنوجـور "محمـود" فاستضعفهُ سيف الدولة وقصد دمشق فملكها وأساء إلى أهلها فخابروا كافوراً وصى الأمير فجهز جيشاً عرمرماً وسار لمحاربة سيف الدولة فتصافا قرب الرملة وبعد جهد انهزم سيف الدولة واسترجع كافور دمشق وفلسطين.

كان أبو القاسم صغيراً وخادمه كافور وصيه فغلب عليه وتفـرَّد بالولايـة ورشح نفسه للملك فقصده الشعراء ومدحه المتنبى بقصائد فائقة منها:

---

(١) ماء يبعد عن جنين ساعتين ونصف.

ومن مثل كافور إذا الخيل أحجمت	وكان قليلاً من يقول لها اقدمي
أبا المسك أرجو منك نصراً على العدى	وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها	بقلب المشوق المستهام المتيم

وكافوريات المتنبى من خيرة عره فقد أجاد فيها آملاً أن يوليه اقليماً فلم يظفر به وقد أشار بعضهم على كافور ليمنحه اقطاعاً فقال حسبكم أن من يدعي النبوة مع محمد إلا يدعي الملك ع كافور.

أن من يطلع على تاريخ حياة كافور ويعرف كيف استوى على عرض مصر وسورية تحدثه نفسه بكل عظيمة. كان كافور عبداً زنجياً خصياً فأشتراه الأخشيد بثمانية عشر ديناراً وقدمته نفسه الكبيرة وشخصيتهُ البارزة إلى أن أصبح قائداً مشهوراً ثم عين وزيراً لأنوجور ومدبراً لمملكتهِ فساس الحكومة بإدارة قويمة ورأي سديد.

فلما توفى أنوجور تولى الملك بعده أبو الحسن ولم يك له من الأمر إلا اسمه وبعد أن مات استقل كافور بمصر وتلقب بالأخشيدى فقلد ولاية مصر وسورية والحجاز وتوفى سنة ٣٥٦هـ وسنة ٩٥٦م ودفن في القدس فضعفت الدولة الأخشيدية بعده واستولى جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمى على مصر وانتزعها من يد أبي الفوارس الأخشيدي وأنهى الدولة الأخشيدية بعد أن عاشت ٣٤ سنة.

وقد امتدح المتنبى ولى عهد أبى الفوارس بقصيدة عصماء منها:

فمالى والدنيا طلابي نجومها ومسعاى منها فى شدوق الأراقم
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجاري عليهم بآثم

***

إذا صلت لم أترك مقالاً لفاتك وان قلت لم أترك مقالاً لعالم
والا فخانتني القوافي وعاقني عن ابن عبد الله ضعف العزائم
حمته على الأعداء من كل جانب سيوف بنى طغج بن جف القماقم
هم المحسنون الكر فى حومة الوغى وأحسن منهُ كرهم فى المكارم
وهم يحسنون العفو عن كل مذنب ويحتملون الغرم عن كل غارم
حييون إلا أنهم فى نزالهم أقل حياء من شفار الصوارم

(٤٦) بعض أبطال الدولة العباسية

جاءت الدولة العباسية والحكم ممهد فلم تحتج لتوسيع حدودها أو نشر لغتها إنما اقتصرت على هدم الحكومة الأموية وبناء دولتهم مكانها وهو عمل صعب شاق تذل امامه أعناق العظماء وقد قام به أقطاب عظماء نذكر هنا بعضهم ..

(١) أبو مسلم الخراساني

اسمه عبد الرحمن من ذرية بزرجمهر. نشأ فى حِضن عيسى بن معقل وكان

يختلف مع ابنهِ إلى المكتب فظهرت نجابته وتفوّقه من صغره واتصل بالنقباء العباسيين فعجبوا بمعرفتهِ وأدبهِ وأخرجوه معهم إلى مكة وعرجوا إلى الحميمة "عش الدعوة العباسية" فأهدوه إلى الإمام وانصرفوا فلما رجعوا ثانية سألوه رجلاً عاملاً يقوم بأمر خراسان فقال أني جربت هذا الأصفهاني ظاهره وباطنه فوجدتهُ حجر الأرض فقلده الأمر وأرسله إلى خراسان فبث الدعوة ونظم الادارة ثم وثب وحارب قواد مروان وبايع للسفاح فصفت له خراسان وقال:

أدركت بالحزم والكتمان ماعجزت	عنهُ ملوك بني مروان إذ حشدوا
مازلت أسعى بجهدي في دمارهم	والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا	من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنماً في أرض مسبعة	ونام عنها تولى رعيها الأسد

ولما أمَّحت دولة بنى أمية وأسست دولة بنى العباس طمع أبو مسلم في الخلافة وطلب إلى السفاح أن يسمح له بالحج آملاً أن يوليهُ امارته ولن يتولاها آنذاك إلا ولي العهد فأذن له السفاح بالحج واعتذر إليه إن قد سبق فوليت إمارة الحج إلى أخي المنصور فحقد أبو مسلم وحج مع المنصور وكان لا يأتمر بأمره ولايسير خلفه ويتقدمهُ في الرحيل وبذل في موسم الحج أموالاً طائلة فحبب إليه قلوب العرب واستمالوا وادعى أنهُ عباسي من ذرية سليط بن العباس وكان يبدأُ في مخاطبة المنصور ومكاتبتهِ بنفسهِ وخطب عمته آسية واستخف بالنصو فاحفظهُ واحنقهُ إلا أنهُ كظم غيظه حتى توفي السفاح وخلع عبد الله بن علي فأرسله المنصور إلى محاربته فذهب إليه وقضى على جيشه

وحاول المنصور أن يصرفهُ عن خراسان اتقاء عصيانه فأبى فاحتال عليه وقتله ثم استشار مسلم ابن قتيبة فى أبى مسلم فقال له الآية ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[1] ودخل جعفر بن حنظلة على المنصور وقال له ما تقول في أمر أبي مسلم؟ إن كنت أخذت منهُ شعرة فاقتل ثم اقتل فأراه أياه فى البساط قتيلاً فقال يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أول خلافتك.

(٢) عبد الله بن علي

هو عباسي الأصل عم المنصور وناب من أنياب الدولة العباسية وركن من أركانها وعظيم من عظمائها. نادب نفسه إلى قتال بنى أُمية وصاحب جيش المغرب وفالّ جيش مروان فى وقعة الزاب وثال عرش بنى أُمية فى دمشق وهاتك أستارهم ونابش قبور خلفائهم. كان عامل الخليفة فى دمشق فلما توفى السفاح دعا الناس إلى نفسه وقال لهم أن السفاح جمع أبناء أبيه وراودهم فى محاربة مروان وقال من انتدب منكم إليه فهو ولي عهدي فلم ينتدب غيري فذهب وأيدت للسفاح الملك وشهد له بعض أخصائه ومعارفه فبايعهُ لجميع فسير المنصور أبا مسلم إلى محاربته والتحم الجيشان وبعد قتال شديد هزم جيشه فذهب والتجأ إلى أخيهِ سليمان بالبصرة.

أن هزيمة جيش عبد الله بن علي لم تكن عن جهل وضعف تدبير وقلة جند وجبن رجال بل كل شئ كان موفوراً اللهم إلا أن الجند لم يكونوا يعتقدون بصحة قضيتهم وأنهم يقاتلون على الحق بل كانوا موقنين أنهم

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢.

مبطلون فى دعواهم وأن عبد الله بـن علـي خـارجي فلـم يصدقـوا الحملـة ولم يحاربوا برغبة ولم يثبتـوا فـى القتـال فهزمـوا فلـو كـانوا مؤمنـين بصحـة دعـوة قائدهم لاستبسلوا ونُصروا نصراً مبيناً. ومن أبطال دعوة العباسيين سليمان بن كثير وأبى سلمة الخلاّل وزير بنى هاشم ثم البرامكـة وغـيرهم ولكنـا لانقصـد هنا أن نلم بذكر جميع القواد العظام ونقتصر على تراجم هؤلاء الأبطال لترسخ فى ذهن الطالب شهرتهم ويعلم أن فى قومه رجالاً لا يقلون عن رجال الغرب الذين يتغنى بهم قومهم.

الفصل التاسع

(٤٧) الدولة الفاطمية نشوءها ودخولها مصر وبناء القاهرة

اعتقد أبناء فاطمة الزهراء بأنهم أحق بالخلافة من سواهم وبدأوا يعملون سراً لاسترجاعها. فتسرع بعضهم وجهر بدعوته قبل أن يكون له جيش يعززه فلاقوا القتل والصلب جزاء فعلتهم.

أما الفاطميون فقد أدركوا هذا السر واختاروا اقليماً قاصياً عن العمران بعيداً عن مركز الخلافة لينطوي ذكرهم ويخفى خبرهم فأرسلوا داعيتهم أبو عبد الله الشيعي سنة ٢٨٠هـ وسنة ٨٩٣م إلى شمالي إفريقية يدعو إلى المهدي(*) ولم يعلن اسمه فلما انتصف أبو عبد الله واطاعتهُ القبائل ناوأ الحكومة واستولى على إفريقية ثم استقدم المهدي فسار عن طريق مصر وحل بمدينة رُقادَه وأمر أن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة ولقب بأمير المؤمنين وقد أخذته الوحشة من أبى عبد الله الشيعي فقتله وأخاه أبا العباس بعد أن دانت له جميع بلاد المغرب.

ثم تاقت نفسه لفتح مصر وقد حاول خلفاؤُه من بعده ذلك فحالت دونهم حوائل إلى أن ولى الخلافة المعز لدين الله(**) سنة ٣٤١هـ وسنة ٩٥٢م

(*) هو عبد الله بن محمد وقد اختلف النسابون والمؤرخون فى نسبه فمنهم من يقول أنهُ فاطمي وهو الصحيح ومنهم من ينكر ذلك.

(**) كان خطيباً عالماً باللغة اليونانية واللغات الإفريقية شجاعاً قديراً فى السياسة حريصاً على النفوس.

فوجه همه وقوته إلى فتح مصر وسير إليها أكبر قواده جوهر. فدخلها ظافراً في سنة ٣٥٨هـ وقضى على الدولة الأخشيدية ثم ملك البلاد وبنى مدينة القاهرة والجامع الأزهر العظيم وسير جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام في جمع كبير فبلغ الرملة وحارب الحسن بن عبيد الله بن طغج فظفر به وأسره مع قواده وبعث بهم إلى جوهر في مصر ودخل البلد عنوة وقتل من أهلها كثيراً. وجبى الخراج وسار إلى طبرية فوجد ابن ملهم قد أقام الدعوة الفاطمية فسار عنها إلى دمشق وبعد حروب عديدة استولى عليها.

تكون في المملكة العربية حكومات كثيرة ولكن لم يجرؤ أحد على ادعاء امارة المؤمنين واكتفوا بالسلطة الزمنية فقط فلما ظهرت الدولة الفاطمية القرشية أحدقت بالدولة العباسية الأخطار لأنها نازعتهم الخلافة والسلطنة معاً ولقبوا بأمراء المؤمنين ودعوا لأنفسهم على المنابر أما الدولة الطولونية والأخشيدية والأموية "الأندلسية" والطاهرية وغيرها فكان استقلالهم ينحصر في السلطة السياسية وظلوا يعترفون بالخلافة إلى الخلفاء العباسيين فصار للمسلمين آنذاك خليفتان عظيمان الأولى عباسي على ضفاف نهر دجلة والآخر فاطمي في حوض النيل وشرعا يتنازعان السيادة وكل بلاد كان يفتحها أحدهما لتقلص عنها دعوة الآخر ولكن بني أمية في الأندلس فأنه تربصوا حتى عهد عبد الرحمن الناصر فخطب له على المنابر ولقب بأمير المؤمنين.

تهيبت دول الشرق الحكومة الفاطمية وخافوا بأسها وقوتها فلم يقدموا على التحرش بها لعظمتها وفتوتها. وانبرى عز الدولة بختيار البويهي فأغرى

قائد القرامطة على مقاومة الفاطميين وساعده بالمال والسلاح فسار في سنة ٣٦٠هـ إلى دمشق يطلب الاتاوة(*) من أهل دمشق التى كان قطعها الفاطميون فلم يحفل جعفر بن فلاح بجمعهم واستهان بهم فكسبوه وقتلوه وامتلكوا دمشق فأَمَّنوا أهلها وطمحت نفوس القرامطة إلى هدم دولة الفاطميين والاستيلاء على بلادهم فانقضوا علِى الرملة واحتلوها واستولوا على مافيها وحصروا جند الفاطميين في يافا. وقصدوا مصر وقد التف حولهم خلق كثير منهم حسان بن الجرَّاح الطائى أمير عرب الشام فتصافوا قرب عين شمس واقتتلوا مرات كان الظفر فيها للقرامطة فاستعظم المعز الأمر وهاله فعمد إلى الحيلة واستمال أمير العرب حسان الطائي ورشاه بمبلغ ١٠٠ الف دينار فانسحب وتبعه العرب وثبت القرامطة إلى أن أرهقهم جند المعز فانقلبوا راجعين وأتوا الرملة وشددوا الحصار على يافا فسير جوهر من مصر ١٥ مركباً تحمل ميرة ونجدة للمحصورين فأخذها القرامطة ولم ينج منها إلا مركبان غنمهما الروم ومن قول ابن بهرام القرمطي:

زعمت رجال الغرب أنى هبتها ... فدمي إذن ما بينهم مطلول

يامصران لم أسق أرضك من دم ... يروي ثراك فلا سقاني النيل

وساروا من فلسطين سنة ٣٦٣ إلى أذرعات ومنها إلى الإحساء وفي سنة ٣٦١هـ سار المعز لدين الله الفاطمي من إفريقية إلى مصر ونقل عاصمته إليها. وسنة ٣٦٤هـ انهزم أفتكين(**) التركي من مولاه بختيار وسار في طائفة

(*) كان للقرامطة ٣٠٠ الف دينار يأخذونها سنوياً من ابن طغج. (**) يسميه الأتراك أنوشتكين والدروز نشتكين

صالحة من جند الترك فوصل إلى حمص ومنها إلى دمشق فدخل المدينة وأخرج حاكمها ريان وقطع خطبة المعز وخطب للطائع العباسي، فلما مات المعز جمع بحيازة واغتصاب بلاده وأغار على صيدا وانتصر على حاكمها وقصد طبرية فنهبها وعاث فيها فغضب الخليفة العزيز وأرسل جوهراً بجيش ضخم فانسحب أفتكين إلى الشام واستصرخ القرمطي فلباه فعرف جوهر وانصرف فسارا فى أثره فأدركاه بظاهر الرملة ونزلوا على نهر الطواحين (نهر روبين) فقطعوا عن الماء(*) فتراجع إلى عسقلان فحصراه مدة ثم فسحا له فذهب إلى مصر وأعلم العزيز فبرز وفرق الأموال وجمع الرجال وسار إلى محاربة القرمطي وافتكين وعلى مقدمتهِ جوهر فاصطدم الجيشان على مقربة من الرملة وبعد قتال عنيف انهزم القرمطي وتبعه أفتكين ومن معهما فبذل العزيز مائة الف دينار لكل من أتاه بافتكين أسيراً فأدركه المفرج بن دغفل الطائي وقد كظه العطش فأخذه إلى بيته وأكرم مثواه لما كان بينهما من الأنس القديم. ثم أعلم العزيز به فدفع إليه الجعالة وتسلمه فأحسن إليه وقربه وأعطاه الخيام وأعلى مكانه وأعاد إليه من كان يخدمه وحمله معهُ إلى مصر وجعله من أخص أعوانه. أما القرمطي فقد بعث إليه العزيز رسولاً يدعوه ليحسن إليه فلم يأمن وخاف الغدر فعين إليه ٢٠ ألف دينار سنوياً. وفى سنة ٣٦٨هـ تغلب المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي على الرملة وناحيتها وأظهر طاعة العزيز من غير أن يتصرف بأحكامه فعظم شأنه وكثر جمعه وعاث فى الأرض فساداً فجهز العزيز با لله العسكر وأمـــــر

(*) كان ينحدر الماء إلى الرملة من عين بردة وهي تبعد ١٥ كيلو متر من شرقها وآثار القناة باقية للآن.

عليها القائد يلتكين فسار مجداً إلى الرملة وقد التف حوله القيسية "العرب" فقابله جيش المفرج وكان منظماً وبعد حرب قصير فرَّ ابن الجراح إلى أنطاكية والتجأ إلى أميرها اللخمي التنوخي. فانقضت خلافة العزيز وداخلية البلاد فى اضطراب واختلاف مع أنهُ كان حليماً عادلاً غير متعصب كثير التسامح لايفرق بين المذاهب والأديان فكانِ كاتبه الخاص عيسى بن نسطورس مسيحي ونائبه فى دمشق منشا يهودي وقد اعتز المسيحيون واليهود فى خلافته وهجاه شاعر فقال:

تنصر فالتنصر دين حق | عليه زمانـنا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا | وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير اب وهذا الـ | ـعزيز ابن وروح القدس فضل

فامتعض وغضب ولكن عفا عنهُ فأطال لسانه أحد الشعراء وغضَّ من هيبة الملك وقال:

زبارجي نديم | وكلّسيٌّ وزير
نعم على قدر الـ | ـكلب يصلح الساجور

فبلغه الخبر وعرف القائل فقال لابن كلس قد اشتركنا فى الهجاء فشأركنى فى العفو وتوفى سنة ٣٧٦هـ وعهد إلى ابنه أبى على المنصور الملقب الحاكم بأمر ا لله ولغرابة أطوار هذا الخليفة نفرد له نبذة خاصة ..

(٤٨) الحاكم بأمر الله

ولى الخلافة سنة ٩٩٦م سنة ٣٧٦هـ وعمره إحدى عشر سنة ونصف فأوصى به والده ارجوان الخادم وجعله مدير دولته فتغلب عليه الحسن بن عمار شيخ قبيلة كتامة وسيدها وبغى على الخليفة وتحكم فى المملكة وتلقب بأمين الدولة وهو أول من تلقب فى الدولة الفاطمية وعبث بالخليفة واستصغره فتبسطت كتامة فى البلاد ومدوا أيديهم إلى أموال الرعية فأنف ارجوان وصبي الحاكم وكاتب بعض القواد والعمال لاستخلاص البلاد منهُ فسار حاكم دمشق منجوتكين إلى مصر فأذاع ابن عمار أنهُ عصى الخليفة وندب العساكر لمحاربته وأمّر عليها أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح فتصافا قرب عسقلان وأسر منجوتكين وهزم جمعه وبعث به أبو تميم إلى مصر فغضب ارجوان وثار فى مصر وأخذ السلطة من يد ابن عمار وبايع الحاكم ثانية فطمع المفرّج الطائي ونزل على الرملة ونهب ما وجده فأنفذ إليه ارجون جيش بن الصمصامة فاسترد الرّملة وهرب المفرج الطائى من بين يديه ثم ثار ثانية فملك الرملة وما والاها فاستبشر أبو القاسم المغربي وزير شرف الدَّولة وانسل إليه وحبب إليه الخروج عن طاعة الفاطميين وحسن له أن يبايع سواهم فراسل أمير مكة الشريف أبا الفتوح وخاطبه بأمير المؤمنين ورغبه فى القدوم إلى الرملة ليبايع له بالخلافة فاستناب بمكة وحضر وخوطب بأمير المؤمنين ففرق الحاكم وراسل المفرّج وأبنه حسان ومجدهما وترضاهما وضمن لهما الاقطاع الكثير والعطاء الجزيل فعدلاً عن الريف وردَّاه إلى مكة وعادا إلى طاعة الحاكم الذي جهز عسكراً إلى الشام بقيادة على بن جعفر وأمره أن يكبس بني طيّ. فلما

وصل الرملة أزاح حسان وأبيه المفرج وعشيرتهما عن تلك الأراضي وأخذ ما كان لهم من الحصون بجبل الشراة ونهب أموالهم وذخائرهم واستأنف السير إلى دمشق. ثم أمن الحاكم المفرَّج وأكرمه ووضع عليه من سمه فارتاح من شغبه. ومن أعمال الحاكم المتناقضة التى تشهد بضعف عقله وهوسه أنه ادّعى الألوهية وسمى نفسه الحاكم بأمرِه واضطهد الديانة الاسلامية وأمر بسب الصحابة وترك صلاة التراويح ونشر مذهباً جديداً أباح فيه زواج الأخ بأخته وحرّم أكل الملوخية لأن معاوية بن أبى سفيان كان مغرماً بها وأكرم النصارى واستوزر منهم فهد بن إبراهيم المسيحي ثم اضطهدهم واليهود فأمر بهدم كنيسة القيامة فى القدس وغيرها من الكنائس ثم أمر بعمارتها على نفقته وسلب أموالهم وأمرهم أن يلبسوا السواد شعار العباسيين احتقاراً لهم.

ونهى النساء عن الخروج من بيوتهن وقد أجمع الشعب على كرهه وتوقعوا بطشه فضجرت منه أخته ست الملك وتوقعت نقمته فاحتاطت لنفسها واتفقت مع القائد ابن دوَّاس على قتله فأمر من اغتاله قرب المقطم وأخفى جثته. ومن آثار شيعة الحاكم في سورية وفلسطين الأمة الدرزية التى تنتسب إلى أنوشتكين الدّرزَي ومحمد بن اسماعيل التميمي لداعي وهما المبشران بألوهية الحاكم ومذهب التقمص الذي صادف هوى فى نفوس القرامطة "الدروز" فاعتنقوه. وبعد أن فقد الحاكم جمعت ست الملك الناس وأحسنت إليهم ورتبت الأمور وبايعت للظاهر لاعزاز دين الله وجعلت الأمر فى يد ابن دواس تطميناً له ثم أمرت بقتله وأعلنت للقواد أنه هو الذى قتل سيدهم ومدّت يدها إلى الملك فاستبدت به.

وسنة ٤٠٢هـ استطال حسان الطائي واستفحل أمره فى فلسطين وعقد حلفاً مع صالح بن مرداس أمير بنى كلاب وسنان بن عليان واتفقوا على أن يقتسموا سورية بينهم فيكون من حلب إلى عانة لصالح ودمشق وملحقاتها إلى سنان ومن فلسطين إلى مصر لحسان فاستولى صالح على حلب وبلادها وحصر حسان الرملة وامتلكها ومن تأمل قليلاً فى هذا الحلف يجده منطوياً على أسرار خطيرة لأن هؤلاء الرجال كانوا أُمراء القبائل العربية فى عصرهم ويشبهون فى الحالة الراهنة ابن سعود وخزعل وابن الشعلان وابن مهيد.. إلخ. وقد رأيت مما مرّ بنا أن أسماء القواد والعمال كانت أَجنبية ولم يبق للعرب حظّ فى دولتهم فنقموا هذه السياسة وعقدوا حلفاً عربياً صرفاً ضد الأعاجم الذين كانوا يحكمون رقاب قومهم ويسومونهم سوء العذاب. وقد تنبه الوزير لمهلبى إلى هذه الأخطار وأشار إلى ماترمي إليه الحكومة من سوء الإدارة باقصاء العرب وتقريب الأجانب.

وقد لمح المتنبى فى شعره إلى أن البلاد العربية أصبحت أعجمية فقال قصيدة منها:

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

فمن هذا يظهر أن البلاد العربية والشعب العربي انفصل عن حكومته وسادت عليه العناصر الأخرى فكان يشكو ويتألم ولكن بلا جدوى لأنهم كانوا غير قادرين على دفعهم والخلفاء لايأخذون بيدهم فعقدوا هذا الحلف

وحاولوا أثبات حقهم وكان يجب على الخليفة الظاهر أن يؤازرهم ولكنهُ سخط وغضب ثم جهز قائده أنوشتكين البريدي بجيش كبير فسار إلى فلسطين ودلف إليه حسان وصالح فتصافوا في سهل الأقحوانه(*) وبعد قتال عنيف قتل صالح وابنه الأصغر وأرسل أنوشتكين رأسيهما إلى مصر واستولى على جميع البلاد ونجا نصر بن صالح فأسس في حلب الدولة المرداسية واستكان حسان حتى سنة ٤٣٣هـ ثم نهض مع بنى كلاب وثاروا ثانية ولكنهم لم يفلحوا وسنة ٤٦٠هـ كثرت الزلازل بمصر والشام فانثلم سور القدس وانهدم أكثر منازل الرملة وهللت تحت الردم خلق كثير فتحولت المدينة إلى قرية وانشقت صخرة بيت المقدس. وسنة ٤٢٩هـ سمح الخليفة المستنصر بتعمير كنيسة القيامة وهادن ملك القسطنطينية.

وفي أيام هذا الخليفة اجتاز عرب بنى هلال فلسطين وعبروا مصر وقد بولغ في قصصهم حتى اختلط الصحيح بالفاسد ولكن ابن الأثير وابن خلدون ذكرا ما نورده هنا بعد التمحيص فقالا: أن المستنصر استوزر الحسن بن على من قرية يازور (قرب يافا) ولم يك من أهل الوزارة بل كان قاضياً على الرملة فأكرم العلماء وبجلهم فأحبوه وساعده الحظ فارتقى الوزارة ونال الإمارة بجده وعلمه واتفق أن والى إفريقيا المعز بن باديس قطع خطبة العلوي سنة ٤٤٠هـ وخطب للقائم العباسي فحنق المستنصر وتهدده فأغلظ المعز في الجواب وخرج عن مألوف المخاطبات مع اليازوري وكاتبه بصنيعتهِ "وليس بعبده" فعاتبهُ فلم

(*) القحوانة قرب طبرية على شاطئ البحيرة.

يرجع وطغى فلما ان قدمت قبائل بني هلال زغبة ورياح وسليم وعدى وخفاجة وأميرهم مؤنس بن يحيى المرداسى انتهز المستنصر ورجاله هذه الفرصة وأصلحوا ما بينهم وأزالوا أحقادهم وأعطوهم أموالاً ووجهوهم إلى القيروان وعاهدوهم بأن يعطى لهم كل ما يفتحونه ووعدوهم بالمدد والمساعدة فدخلت العرب أفريقية وكتب اليازوري إلى المعزّ: "أما بعد فقد أرسلت إليك خيولاً فحولاً ورجالاً كهولاً ليقضي ا لله أمراً كان مفعولاً" فجاسوا الديار وعاثوا فيها وامتلكوها وظلوا فى حروب مستمرة حتى أواخر سنة ٤٥٧هـ فاصطلموا زنانة وتم لهم النصر.

وفى عهد المستنصر با لله كثرت الاضطرابات فى مصر فاستقدم الخليفة بدر الجمالي حاكم عكا لاصلاح ما فسد فنشط بدر ودخل مصر فى جيش من أهل فلسطين ففتك بجند الأتراك ولكن الخليفة لم يتعهد بلاد سورية فشغرت وهب ملكشاه السلجوقى لامتلاكها وفى سنة ٤٨٧هـ توفى الخليفة المستنصر وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة أشهر.

(٤٩) الدولة السلجوقية

زحف من تركستان إلى البلاد الإسلامية قبائل متعددة كانت خاضعة إلى الأمراء السلاجقة الذين انقسموا فيما بعد إلى دول ثلاث: خراسانية وسورية وأناضولية. وقد اشتهر طغرل بك حفيد سلجوق بالشجاعة والفطانة وساعده الحظ والاجتهاد إلى أن دخل بغداد وخطب له على منابرها واخضع من تمرد على العباسيين ولكنهُ توفى عقيماً فانتقل ملكه إلى ابن أخيه السلطان

ألب أرسلان الذى امتد نفوذه واتسعت حدود بلاده واستولى على حلب فلما قضى خلفه ابنه ملكشاه فهمّ بفتح مصر واستئصال الدولة الفاطمية وسير سنة ٤٦٣هـ وسنة ١٠٧٧م أحد قواده اتسز "اقسز" بن أوق لخوارزمي إلى فلسطين ففتح مدينة الرملة وحاصر القدس وفتحها وملك مايجاورهما من البلاد خلا عسقلان وقطع الخطبة الفاطمية وأحيا الخطبة العباسية وفى سنة ٤٦٨هـ حاصر دمشق وفتحها ومنع الشيعيين أن يجهروا في آذانهم بفقرة "حيَّ على خير العمل" وان يؤَذنوا كالسنيين وفى سنة ٤٦٩هـ سار لفتح مصر فقابله أمير الجيوش بدر ومعه جمع كبير من العرب فهزمه وقتل أخاه وأكثر أصحابه فعاد اتسز منهزماً إلى الرملة ثم سار منها إلى دمشق وقد خالف أهل القدس حاكمهم فنهد إليهم وحصر المدينة ففتحها عنوة ونهبها وقتل أهلها حتى من التجأ إلى المسجد الأقصى وكف عمن عاذ بالصخرة. وفى سنة ٤٧١هـ أقطع السلطان ملكشاه الشام لأخيه تاج الدولة تتش فكف هجمات المصريين عن البلاد وقتل أتسز لأنهُ لم يستقبله وبعد وفاة ملكشاه استقل فى سورية ودعا لنفسه. وفى سنة ٤٨٢هـ نهضت عساكر مصر لاسترداد سورية فلم يتوفقوا إلا لفتح عكا وبعض بلدان فلسطين فعين أمير الجيوش عليها الأمراء والعمال وفى سنة ٤٨٦هـ فتحوا مدينة صور. ولما توفى تتش انقسمت مملكته إلى قسمين كانت قاعدة أحداهما حلب وملكها ابنه رضوان وحاضرة الأخرى دمشق وسلطانها دقاق: فشاق رضون أخاه وسار إلى فلسطين ليفتحها فجاء إلى نابلس والقدس ورجع خائباً ثم مات دقاق ملك سورية وأستبد بالمملكة أتابكه "مملوكه" طغتكين وأسس ملكاً لولده بوري المنتسبة إليه هذه

الدولة وقد وهم بعضهم فظنها دولة سلجوقية والواقع أنها بورية وهكذا ظلت الدولتان السلجوقية والفاطمية فى عراك وصدام فإذا ما استضعفت أحداهما الأخرى كانت تغير على بلادها وتقتطعها فتتربص الثانية حتى يوهن عدوتها فتق أو طارئ جديد فتنال به غرة وتهب بخفة وتسترد منها ماسلب. فباغتهم الصليبيون وهم منهوكو القوى وبلادهم فوضى وجيوشهم قد سئمت الحرب وملته وزهدت فى القتال والدفاع وطما عليهم السيل الغربي وأيقظهم التيار الأوروبي فغمر بلادهم وحكم فى رقابهم وطردهم من أوطانهم وسلب أطيب رقادهم حتى قيض ا لله لهم صلاح الدين فأخذ ثأرهم ونفى عارهم واسترد استقلالهم ونجاهم من عذاب أليم.

الفصل العاشر

(٥٠) الصليبيون

توالى على العرب فى فلسطين لنزع السيادة منهم هجمات كثيرة أعظمها الحملات الصليبية الأوروَبية التى كان الباعث لها أسباباً خطيرة لايسعنا تفصيلها فى هذا الموجز بل نكتفى بسردها مختصرة فنقول: ظهرت هذه الحرب لعامة شعوب أوربا بمظهر دينى فقط فأشاعوا أن السلجوقيين أهانوا حجاج المسيحيين واعتدوا عليهم غير أن التواريخ العربية لم ترو هذا الخبر قطعاً بل ذكرت أن المسيحيين كانوا ينعمون فى حريتهم مثل المسلمين وما كان يقترفه بعض الملوك مثل الحاكم الفاطمى من الظلم والجور كان يشمل المسلمين والمسيحين على السواء ولكن هذه الحروب كانت منطوية على أمور سياسية كما ورد فى خطاب البابا أوربانوس الذى حرض به الممالك التجارية على اغتنام هذه الفرصة ويقال أن روم القسطنطينية خافوا سلجوقيى الأناضول فاستغاث امبراطورهم بالبابا ووعده أن يضم كنيسته إلى كنيسة روما ويقال أن الحكومات التجارية حرصت على أسواق الشرق لما اضطربت العلائق بين آسيا وأووروبا فهبت تدافع عن مصالحها وقيل أن أيدي أمراء المقاطعات فى أوروبا سيما فى أنكلترا كفت وألغيت امتيازاتهم فأخذوا يبحثون لهم عن بلاد أخرى يستعيضون بها عن مقاطعاتهم. ومما هو جدير بالذكر أن أوروبا كانت حينئذ مسوقة بتيار دينى وهوَس مسيحي وكان ذلك الوقت زمن

الفروسية والنجدة فنذر كل فارس أن ينقذ الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ويغيث الضعيف والمظلوم. وهذا الشعور الدينى كان عاملاً عظيماً فى الحروب الصليبية لأنهُ عز على أبناء المسيح فى أوروبا أن يروا أقدس بقعة لديهم فى يد عدوهم.

فلما زار القدس بطرس الناسك الأفرنسى فى أواخر القرن الحادي عشر وشهد خشونة التجبر وذاق مرارة التحكم التهبت فى صدره نار الحمية وقابل بطريرك القدس فحدثه بهذه الشدة والقساوة ووعده أن يستبدل هذا الذل بالعز وصمم على اثارة نفوس زعماء أوروبا إذا هو لم يمت فلما رجع أعلن ما رآه وحدث البابا بما عاين ولمس فعقد الاجتماعات وأرسل المناشير وخطب ووعظ فنجح وأقنع الأمم الأوروبية وهاجهم وحرضهم على فتح فلسطين والاستيلاء على الأماكن المقدسة ولكنا نضرب صفحاً عما يتعلق منها بأوروبا بحثنا بما جرى فى فلسطين لأن هذا المختصر لايتحمل التطويل فنقول كانت فلسطين قبل قدوم الأفرنج محطة للنوائب لأنها توالت عليها الزلازل وفتكت بها الحروب والفتن وأهزلتها المجاعات بل كانت شبه كرة يتلقفها فريق ويتخطفها آخر فيوماً تكون تحت النفوذ العباسى ويوماً فى يد الفاطمى يتنازع عليها القواد ويغتصبها الأمراء ويقتسمها العمال وليس للخلفاء إلا الخطبة والسكة والطراز وأصحاب الأقاليم والبلاد هم السلاطين والملوك يحكمون ويجبون الأموال يعلنون الحروب ويؤيدون الخليفة ويتمسكون به ليهبهم الألقاب ويخطب لهم على المنابر.

فزحفت جموع أوروبا إلى سورية باذلة أرواحها ومهج بنيها وحملوا على الشرق تسع حملات تخللها كثير من النجدات بعضها هوى فى الطريق والبعض الآخر وصل فلسطين.

الحملة الأولى : سنة ١٠٩٦م أو سنة ٤٩٠هـ

كانت الحملات الصليبية خَليطاً من الفرسان "Knights" والجنود المنتظمة والمتطوعة تسير جماعات بمواشيها كالقبائل الرحالة فلا قائد يتعهدهم ولا أمير يدبر شؤونهم كأنهم قطيع من البشر ساقهم التعصب الدينى إلى الموت.

اجتمع فى فرنسا سنة ١٠٩٥م جمهور مختلط يبلغ عددهم مئتى ألف نفس بلا رابطة تجمعهم ولا ألفة تمسكهم إلا عاطفة رسم الصليب + المنقوش على سلاحهم وصدورهم. فساروا إلى ألمانيا فالنمسا فهنغاريا فالآستانة وهنالك أحصى عددهم فإذا هم النصف والباقى تخطفهُ أهل البلاد فقتلوهم ومنهم من مات جوعاً أو ضل عن الطريق ومنهم من رجع فانطفأ أمله بانقاذ القبر المقدس. فاستأنف الباقون السير براً إلى الأناضول فصدهم السلاجقة إلا أنهم عجزوا عن إيقافهم. وبعد قتال عنيف استولوا على أنطاكية سنة ٤٩١هـ وسنة ١٠٩٦م ومنها انحدروا إلى المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا مجدين فى سيرهم مصممين على فتح بيت المقدس فلما عرف الفاطميون بقدومهم ورأوا الخطر المحدق بهم طلبوا مصالحتهم على شرط أن يسهلوا الطرق لمن أراد زيارة القدس من المسيحيين فرفض الأفرنج وقصدوا

الرملة فذهب إليهم نفر من أهالى بيت لحم ورحبوا بهم وحثوهم على قتال الفاطميين فصعدوا من الساحل إلى القدس وكان عددهم ٤٠ ألف مقاتل فحاصروها وتحملوا من المشاق والصعوبة ما أزعجهم.

(٥١) فتح القدس

كانت القدس قبل الفتح الصليبي في يد سلاجقة الشام فخرج عسكر الخليفة الفاطمي بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي واستولى عليها أماناً فى شعبان سنة ٤٨٩هـ فدخلت فى ملك المصريين وأنابوا عنهم فيها أفتخار الدولة فأتاها الأفرنج وحصروها نيفاً وأربعين يوماً وعانوا صعوبات شديدة نأتي على أجلها.

١- قلة الماء: فإنهم كانوا ينقلونُه من البيرة وعين كارم ولفتا.

٢- نفاذ الذخيرة: إننا قد شهدنا أثناء الحرب العامة ما كان مجموعاً لتأمين المجاعات ومع ذلك فقد شكا الجند الجوع والعطش وكانت الحكومة المحلية تحرسهم والشعب يوآزرهم فكيف بجماعات غرباء فى بلا يمقتهم أهلها ويقبحون أعمالهم وينكرون فظائعهم.

٣- لوازم الحصار: فإن المحاصر يحتاج إلى أخشاب وأدوات أخرى وهؤلاء الدخلاء لم يحضروا معهم شيئاً من ذلك وكانت البلاد قاحلة والأحراج بعيدة عن القدس ولولا قدوم السفن الإيطالية التى كان معها كثير من الأخشاب لما قدروا على بناء الأبراج ولما استطاعوا التسلق على جدران المدينة ولكنهم ذللوا كل هذه الصعوبات وحاصروا المدينة ودخلها غودفرى من باب الساهرة وهو أول الداخلين ثم فتحت جميع الأبواب

فملكوا القدس عنوة يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢هـ وسنة ١٠٩٩م ولبث الفرنج يقتلون ويفتكون فى نساء وأطفال وشيوخ ومرضى المسلمين أسبوعاً ويقدر ما قتل منهم في المسجد الأقصى ما يربو على ٧٠ ألف نفس وفيهم أئمة المسلمين وعلماؤهم وعبادهم ممن جاوروا بيت المقدس وما ندري لو تجلى السيد المسيح ورآهم يرتكبون تلك المخازى والمنكرات ماذا عساه يقول لهم وهو القائل "أحبوا أعداءَكم" ولو انا قايسنا بين دخول عمر بن الخطاب البدوى وبين دخول غودفرى الأفرنسي الذى عاش فى القرن الخامس بعد عمر لخجل الفرنج من سيرة قائدهم وفظائعه وأفتخر العرب بعدل خليفتهم ومآثره.

فلما رأى المسلمون ما حل بهم استجاشوا لجموع لمحاربة الفرنج واسترجاع بيت المقدس فهتف الأبيوردي بقصيدة عصماء منها:

وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فليها بنى الاسلام إن وراءكم	وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دُمى	توارى حياء حسنها بالمعاصم
ولك حروب من يغب عن غمارها	ليسلم يقرّع بعدها سن نادم
أرى أُمتي لا يشرعون إلى العدى	رماحهم والدين واهي الدعائم
فليتهم إن لم يذودوا حمية	عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

فهاجت نفوس المصريين وحشد الأفضل أمير الجيوش عساكره وسار إلى عسقلان وأنكر على الفرنج ما فعلوه وتهددهم فعاجلوه وهزموه وقتلوا من جيشه كثيراً وغنموا ما في المعسكر من مال وسلاح فانسحب إلى عسقلان ومنها إلى مصر فحصر الفرنج عسقلان وأخذوا من أهلها ٢٠ ألف دينار قطيعة لهم وعادوا إلى القدس متخاذلين فأسسوا مملكة لاتينية صغيرة على شكل الاقطاع الأوروبي القديم واختاروا غودفرى أميراً عليهم وشرعوا يفتحون ما بقى من مدن فلسطين فعاجل غودفرى أجله ودفن في كنيسة القيامة على يمين الداخل ويوجد هناك سيف يزعمون أنهُ سيفه ولا يعمل حقيقة ذلك الزعم وانتخب بعده أخوه بلدوين ففتح مدينة أرسوف أماناً وحيفا وقيسارية وقتلوا أهلها.

ثم فتحوا كافة مدن الساحل خلاً صور وعسقلان وظلوا فى حروب مستمرة مع الفاطميين وبوريي دمشق فلم يظفر أحدهم بالآخر وعجز المسلمون عن رد غاراتهم لأن بلادهم كانت منقسمة إلى إمارات وملوك عديدة واتفق أن استحكم الخلاف بين السلاجقة فشغلوا عن مقاومة الأجانب بمحاربة بعضهم بعضاً حتى إن بكتاش بن تتش أخو ملك سورية وايتكين الحلبى صاحب بصرى حالفاهم فاطمأن الصليبيون وظنوا أنهم ملكوا البلاد فبنوا قلعة الشوبك والكرك وحصون عثليت وصفد وطبرية. وفى سنة ٥١٩هـ انضم أمير العرب دبيس بن صدقة إلى الفرنج وحارب معهم العرب والمسلمين وفى سنة ٤٩٦هـ سير الأفضل أمير الجيوش مملوك أبيه سعد الدولة لمحاربة الفرنج فلقيهم بين الرملة ويافا وبعد قتال عنيف كبا بهِ الجواد فقتلوه وهزموا جنده

وملكوا ما فى خيامه فأرسل الأفضل ابنه شرف المعالي فى جمع كثيرا وصادمهم قرب يازور وهزمهم واثخن فيهم وأسر كثيراً من زعمائهم وأرسلهم إلى مصر وفتح الرملة وعزم أن يذهب إلى فتح القدس فجاءت نجدة صليبية من البحر فثبت عزمه وخارت قوته فانسحب إلى عسقلان واحتمى بها فحاصروهم ثم قفلوا راجعين إلى القدس.

وفى سنة ٥٠٢هـ سار طغتكين إلى طبرية فحارب ابن أخت بلدوين وانتصر منه وأسره ثم هادن بلدوين أربع سنوات. وفى سنة ٥٠٧هـ نزل طغتكين بجيشه الأقحوانة وحارب الفرنج فخذلهم وغرق منهم خلق كثير فى البحيرة ونهر الأردن فاستغاثوا بالأفرنج طرابلس وانطاكية فانجدوهم وأعادوا الكرة ولكنهم جبنوا والتجأوا إلى جبل غرب طبرية فحصرهم طغتكين ٢٦ يوماً ثم سار إلى بيسان فنهب بلاد الفرنج بين عكا والقدس. وفى سنة ٥١٢هـ خف طغتكين لمحاربة الفرنج فلقيهم بين دير أيسوب وكفر بصل (فى حوران) ودخل طبريا ونهبها وما حولها وقصد عسقلان واتفق مع الجيش المصرى المرابط فيها ثم عاد إلى دمشق وهكذا ظل المسلمون والصليبيون فى كروفر حتى سنة ٥٤٧هـ وسنة ١١٥٣م فانقض الفرنج على مدينة عسقلان وفتحوها ونزعوها من يد الفاطميين فاستراحوا من غزواتهم وغاراتهم.

ثم قام بعد بلدوين الأول بلدوين الثاني والثالث والرابع والملك أموري ولكن هممهم أخذت تضعف وتفتر وهمم الوطنيين تقوى وتستعر لأن حماسة الصليبيين تلاشت وانطفت حرارتها فزال المحرك الذى ساقهم لانقاذ البلاد

والقبر المقدس مما رأوا من فساد الرهبان وأطماع الأمراء الذين رجعوا إلى سيرتهم الأولى فاختلفوا وانشقت كلمتهم وانصرف كثير منهم الى بلادهم وتخاصم الباقون على التاج والألقاب والسلطة والأموال وتفاقم بينهم الخلاف والانقسام ووجبت شمسهم بقدوم بطل الشرق السلطان صلاح الدين فدك عرشهم ونكس أعلامهم.

الفصل الحادى عشر

صلاح الدين الأيوبى

مؤسس الدولة الأيوبية

(٥٢) حالة العالم الاسلامى

قبل أن نشرح سيرة السلطان صلاح الدين نمهد للقارئ الأسباب التى ساعدته على بلوغ هذا المقام العالى فنقول: كان العالم الاسلامى فى سبات عميق فالاشراف يتنازعون الخلافة حتى لايكاد يمر عام إلا ونسمع أنهُ خطب لفلان على منابر اليمن أو الحجاز أو مصر ولآخر فى شمال أفريقية والعراق أو طبرستان إلخ.. والأمراء والملوك اقتسموا البلاد فاقتطع بنو زنكي "مماليك السلاجقة" ولاية الموصل وامتدوا إلى سورية واشتهر منهم نور الدين بمناهضته للفرنج فامتلك دمشق سنة ٥٤٩هـ واختار أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين قائداً عاماً لجنوده.

فلما اختلت أحكام مصر وغُلب الخلفاء على أمرهم تواثب الأمراء وطمعوا فى الوزارة فتولاها فى سنة واحدة أربعة ونهض أمير الصعيد ضرغام وغصبها من شاور الذى التجأ إلى دمشق وطلب إلى نور الدين أن يساعده بقوة عسكرية لاسترجاع منصبه بشرط أن يعطيه ثلث حاصلات البلاد خلاً أقطاعات العساكر ويظل شيركوه بعساكره فى مصر "احتلال عسكري"

فأرسل معهُ أسد الدين شيركوه فدخل مصر وقتل ضرغاماً وعين شاوراً محله فنكث وعده واستعان الصليبيين على إخراج أسد الدين من بلاده فأجابوه وردوا الجيوش الشامية.

وفي سنة ٥٦٢هـ سار أسد الدين ثانية إلى مصر بجيش مجهز ففتح ثغر الاسكندرية واثخن في الصليبيين وعساكر مصر وفتح الصعيد وجبى أمواله وأخيراً اتفقوا على أن تبرح جنود نور الدين والصليبيين مصر بشرط أن يدفعوا إلى شيركوه خمسين الف دينار سوى ما جباه من الأموال فتمت المعاهدة ورجع إلى الشام. لكن الصليبيين نقضوا وتواطأوا مع المصريين على أن يكون لهم بالقاهرة شحنة تحرس أبواس المدينة ويعطى لها معاشاً سنوياً مائة الف دينار من واردات مصر فتجاوزوا هذا الحد وتجبروا وطمعا في استملاك البلاد وأرسلوا جنداً للاستيلاء على مدينة بلبيس وافحشوا فيها وحاصروا القاهرة فاستغاث الخليفة العاضد بنور الدين واستنجده فلباه بارسال أسد الدين مع جيش كبير مجهز بالمهمات وأعطى لكل جندى علاوة على راتبه عشرين ديناراً فساروا حتى قاربوا مصر فرحل الفرنج عنها واستمر أسد الدين في سيره حتى قدم القاهرة فدخلها ورضى عنه العاضد لكن شاور أخذ يماطل في اقطاع الجند وثلث البلاد ففرغ صبر صلاح الدين وفتك به فخلع العاضد على شيركوه خلع الوزارة ولقبهُ الملك المنصور. وبعد شهرين وخمسة أيام من تاريخ وزارته توفى "حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة" فهب أمراء الأجناد يطالبون منصبه وكل منهم جمع أصحابه ليغالب عليه فاختار العاضد يوسف صلاح الدين ابن أخى أسد الدين وولاه الوزارة وخلع عليه مراسيمها ظاناً انه صغير

السن قليل الاختبار والدربة فيتمكن منه بما يريد ويستميل الجند ويخرجه من بلاده ويسترد استقلاله.

وطمع الفرنج فى صلاح الدين وحاولوا امتلاك مصر فساروا إلى دمياط وحاصروها سنة ٥٦٥هـ وسنة ١١٦٩م فقاومهم صلاح الدين وأغار على بلادهم السامية وناوأ الكرك فخافوا العقبى وارتدوا على أعقابهم فاقتفاهم وكبس عسقلان والرملة ونهب ربض غزة وفتح فرضة أيلة "العقبة" ثم أرسل أخاه شمس الدولة إلى اليمن ففتحها وتوغل هو فى السودان وضمهُ إلى مصر. فدبت الغيرة فى صدر نور الدين وخشى أن يتفق صلاح الدين والفاطميين ويخلعوا طاعته فطلب إليه أن يقطع خطبة العاضد ويخطب إلى المستضئ العباسى ابتغاء جمع الكلمة فتردد صلاح الدين قليلاً ثم أمر سنة ٥٦٧هـ وسنة ١١٧١م بلبس السواد شعار العباسيين وخطب فى الجوامع للمستضئ وقطع خطبة الفاطميين فانقرضت الخلافة الفاطمية بعد أن دامت ٢٦١هـ سنة فلم تطب نفس نور الدين وخاف العقبى فاستوحش صلاح الدين وسعى ليبقى الفرنج حاجزاً بينهما وكم حاول نور الدين الاجتماع به فلم يتوفق لأنه كان اذا ما اقترب منهُ قفل راجعاً إلى مصر متعللاً بالأعذار وظلا يراوغ أحدهما الآخر حتى توفى نور الدين واستخلف بعده ولده الملك الصالح إسماعيل فخطب له صلاح الدين وضرب السكة باسمهِ وتربص مترقباً حصول فتنة أو خلاف فى بيت زنكي فلما حدث أسرع إلى دمشق وفتحها وهو يظهر الطاعة إلى الملك الصالح الذى كان يخاطبه بالمملوك ثم فتح قلعة حمص وبعلبك وحماه وغير ذلك.

وفى سنة ٥٧٣هـ سار صلاح الدين إلى ساحل الشام فوصل عسقلان وبث السرايا للغارة والارهاب وانفرد بثلة قليلة من الجند فباغتهُ الفرنج على نهر روبين وفتكوا بجنده فرجع مخذولاً وأرسل إلى أخيه توران شاه يقول:

ذكرتك والخطي يخطر بيننا ‏ ‏ ‏ وقد نهلت منا المثقفة السمر
نجونا من الموت الوحى غير مرة ‏ ‏ ‏ وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر

وفى سنة ٥٨٠هـ بنى الفرنج حصناً منيعاً بمخاضة الأحزان "جسر بنات يعقوب قرب صفد" فعز على صلاح الدين فواقعهم وبعد معركة شديدة أسر فيها حكام الرملة ونابلس وطبرية وجنين فتح الحصن وهدمهُ وكان فخر هذا النصر إلى فرخشاه ابن أخى صلاح الدين الذى غشى الوغى وهو يتمثل

فان تكن الدولات قسماً فانها ‏ ‏ ‏ لمن يرد الموت الزؤام تؤول
ومن هوّن الدنيا على النفس ساعة ‏ ‏ ‏ وللبيض فى هام الكماة صليل

إن الحركات الحربية بين الصليبيين والوطنيين كانت تدور شرقى القدس على الكرك والشوبك لأنهما فى طريق الحج وجسر اتصال بين الشام والحجاز ومصر ومن جهة غربيها على عسقلان لأنها محطة الارتباط بين مصر ودمشق فمن كان يملك هذين المركزين كان يقطع المواصلات ويعيق الحركات وقد أدرك الصليبيون مكانة هذه النقط فامتلكوها واحتفظوا بها وحصنوها فحجزوا ما بين مصر والشام وضيقوا مجرى تنفسهما بل داخلهم الغرور وطمعوا فى مهاجمة مكة والمدينة المقدستين للقضاء على الدين الإسلامي فسار البرنس ارنا "رينو" **Renaud** صاحب الكرك إلى تيماء فى سنة ٥٧٧هـ وسنة

١١٨٢م مستطلعاً فسمع بذلك عز الدين فرخشاه والى دمشق وسار مجداً إلى الكرك فنهب بلادها وصد أرناط عن التقدم ولكن فى سنة ٥٧٨هـ نضجت فكرة فتح الحجاز فى دماغ البرنس ارناط وعزم على خضد شوكة المسلمين فعمل أسطولاً وجمع قطعه مفككة وحملها إلى بحر إيلة ثم ركبها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فى البحر الأحمر وحصر من فى ايلة ومخر من معه بحر عيذاب وأفسدوا السواحل فعرف الملك العادل وأمر قائد أسطوله لؤلؤاً بمطاردتهِ فسار وبلغ أيلة وقتل من عليها وتبع من فى البحر بمراكبهِ وجنده فادركهم فى ساحل الجوزاء وأوقع بهم فاعتصموا بشعاب البر فأخذ خيلاً من الأعراب وأركبها جنده ومازال يقاتلهم حتى ظفر بهم وأسر منهم كثيراً ونحرهم وسار صلاح الدين من دمشق إلى طبريا فخيم فى الأقحوانه ونزل الفرنج طبريا فشد فرخشاه على بيسان وفتحها وغنم ما فيها ثم أغار على جنين واللجون ومرج عكا.

وعاود الكرة ثانية فغزا بيسان وخربها وأغار على الكرك لما صدر عنها نهب مدينة نابلس وأحرقها ونهب كل ما على طريقها ونهب سبسطية وجنين وفى سنة ٥٨٢هـ انحاز كونت "قُمص" طرابلس إلى صلاح الدين فوعده بالمناصرة وضمن له أن يجعله ملكاً مستقلاً وأطلق من عنده من أساه. وقد طاش سهم البرنس أرناط فغدر بعهده بعد الهدنة وأغار على قافلة عظيمة كان فيها أخت صلاح الدين فنهبها وأسر رجالها. فغضبت الأفضل بن صلاح الدين وغزا بلاد عكا وحارب الأعداء فى قرية صفورية فكسرهم وقتل عدداً من شجعانهم ولكن جميع هذه المواقع مع الفرنج لم تكن سوى مناوشات ومقدمات

لمعركة فاصلة أما أن تكون له أو عليه.

(٥٣) معركة حطين(*)

رأى صلاح الدين أن الفرنج قد أسسوا أربع مقاطعات فى داخل مملكته: الأولى مقاطعة القدس والثانية طرابلس الشام والثالثة أنطاكية والرابعة الرها وارفا وأن تلك المقاطعات كانت بؤرة ثورات وفساد فى قلب مملكته. وكان أشدهن تنكيلاً برجاله وأثقلهن عليه مقاطعة فلسطين وأعظم أبطالهم واعندهم البرنس أرناط صاحب الكرك الذى حاول احتلال الحجاز وتعرض لاخت صلاح الدين وكرر نكثه للعهود مما أسخط المسلمين وأحفظهم على صلاح الدين فأطالوا ألسنتهم فوّقوا إليه سهام السباب واللعن وقالوا ترك قتال الفرنج وأقبل على المسلمين يقاتلهم ويفتح بلادهم. فتحركت لذلك غيرة صلاح الدين واستفز الناس للجهاد وجمع جيشاً عرمرماً وعسكر فى سهل الأقحوانة واستشار قواده فأشار عليه بعضهم بترك مناضلة الأعداء والاكتفاء بشن الغارات وأشار عليه الآخرون بملاقاتهم ومناجزتهم فعزم على المناجزة والدخول مع الفرنج فى ملحمة كبرى فسار إلى طبرية وفتح المدينة دون القلعة وأحرق مافيها من الذخائر الفاضلة عن حاجتهِ واحتفظ بمنابع المياه ولما أحس الفرنج بعمله استخفوا به وبجيشهِ وساروا إلى ملاقاتِه فى ٢ تموز الموافق ٢٤ ربيع الآخر فاشتد عليهم العطش من حمّارة القيظ وتقابل الفريقان فى سهل قرية لوبيا وعزم الفرنج على ورود الماء فأدرك صلاح الدين مرادهم وصدهم

(*) قرية صغيرة واقعة فوق تل يشرف على غرب بحيرة طبريا.

عنهُ وأمر بـاحراق العشب والأشـواك فـأخذ منهـم الظمـأ كـل مـأخذ وحملـوا حملات عنيفـة كـادوا يزيلـون بهـا المسلمين لـولا ثبـات أبنـاء فلسـطين الذيـن استماتوا في حومـة الوغـى حتـى هـب عليهـم ريـح النصـر وكسـروا الفرنـج وركبوا أقفيتهمْ وطحنوا جيشهم حتى لم تقم لهم بعدها قائمة وتقدر قتلاهم في حطين بثلاثين ألفاً خلا الأسرى فقد أُسر وكثير من أبطالهم منهم الملك (Guy) غاي ورنو "أرناط" صاحب الكرك وبعد أن فرغ المسلمون مـن القتـال فـائزين جلس صلاح الدين في خيمتـهِ وأحضـر ملـك الفرنـج ورنـو صـاحب الكـرك وأجلس الملك إلى يمينه وأعطاه ماءً مثلوجاً فشرب وأعطى فضله البرنس أرناط فغضب السلطان وقال للملك أن هذا الملعون لم يشرب باذني فينال أمـاني ثـم التفت إلى البرنس وذكره بذنوبه وعدد عليه عوراته وقام إليـه بنفسـه وضـرب رقبته وقال كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت به الأولى حينمـا أراد المسـير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القافلـة غـدراً ثـم أمـر بـهِ فسـحب إلى خـارج المكان وباسط الملك وأَمَّنهُ.

كانت معركة حطين مـن المعـارك الفاصلـة التـي ختمـت بهـا الحـروب الطويلة بين الشرق والغرب وجدير بأهل فلسطين أن يجعلوا يوم السبت الرابـع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ عيداً سنوياً وتذكاراً ورحياً عظيماً فـإن فيه خضدت شوكة الجيش الصليبي وفلّ حده وقويت جموع الوطنيين وانتعشت نفوسهم فعادوا إلى طبريا وتسلموا قلعتها مـن زوجـة صاحبهـا أمانـاً ووفـى لهـا صلاح الدين ثم سار إلى عكا وامتلكها وجـاء الملـك العـادل مـن مصـر وفتـح حصن مجدل يابا "مجلد الصادق" ويافا وسـاحت عسـاكر السـلطان فـي البـلاد

ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا فالشقيف وغيرها من البلاد المجاورة ثم سبسطية ونابلس واجتمع عسكر الملك صلاح الدين بجنود أخيه العادل وساروا إلى عسقلان وفتحوها وبثوا السرايا فى أطراف البلاد المجاورة ففتحوا الرملة واللد وغزة والخليل ويبنة وبيت لحم وبيت جبرين. وأمر قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤاً أن يقطع طريق البحر ويتصيد مراكب العدو ويمنعها أن ترسو على سواحل البلاد وأرسل رسلاً لمفاوضة أهل القدس كى يسلموا المدينة فرفضوا فنهد إليهم بجنده وخيم على النكفورية بين المحطة وبركة ماملا وظل خمسة أيام يطوف حولها لينظر أى الجهات أسهل للمهاجمة ثم انتقل بجيشه إلى الشمال الغربى جهة المسكوبية وباب العمود وباب الساهرة وشدد الحصار فسلمت المدينة يوم الجمعة فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ وفى ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧م على شروط منها:

أن يؤخذ عن كل رجل ١٠ دنانير والمرأة خمسة والولد دينارين فدية ومن لم يدفع حتى أربعين يوماً يصبح مملوكاً للعرب فبذل باليان عن فقراء قومه ثلاثين ألف دينار ووضع صلاح الدين على أبواب البلدة أمناء ليأخذوا ما ضرب على الفرنج وأظهر من العدل والعظمة ما شهد له به الأعداء فسمح لنساء المملوك والأميرات بحشمهن وخدمهن ولم يأخذ من البطريرك إلا عشرة دنانير ولم يشره إلى ما كان معهُ من الأموال والذخائر وعامل نصارى العرب معاملة حسنة وترك لهم أموالهم وأملاكهم وسمح لهم أن يشتروا متاع الأفرنج وقد وهب لمظفر الدين كوكبوري الف مملوك من الفرنج فأعتقهم ووهب أيضاً لأخيه العادل ولكثير من الأمراء أمثال ذلك ووزع الأموال والدواب على

الضعفاء ورفق بالفقراء فسمح لهم بالخروج من باب العمود وأرسل معهم جنوداً لايصالهم إلى المدن التى كانت لا تزال فى أيديهم فأنكرهم أخوانهم وأبوا قبولهم وأغلقوا الأبواب في وجوههم وأرسلوا خلفهم من نهب متاعهم. فتاهوا فى الفيافي وتتتوا فى أنحاء البلاد فرثى لهم عدوهم العربي ورحمهم وأغلظ لهم صديقهم الغربي وجفاهم مشايعهم الأفرنجى ولو أنا قابلنا هذا العمل بما أتاه الفرنج قبل ٨٨ سنة لرأينا الأخلاق والإنسانية والمكارم وعزة الملك وكبر النفس جلية فى أعمال صلاح الدين وشهدنا القساوة والفظاعة والتوحش والتعصب واضحاً فى أفعال غودفرى الذى قضى على ألوف من المسلمين.

أكمل صلاح الدين الأيوبى عمله وشرع ينظم المدينة فأزال كل أثر صليبي فى الصخرة والمسجد الأقصى وكسر الصور والتماثيل الصغيرة والصلبان التى نقشوها ونقل إلى المسجد الأقصى المنبر الذى أمر بصنعه نور الدين زنكي فى حلب وبالغ فى اتقانه فاستغرق عمله عدة سنوات، وكان بين صنعه ونقله إلى القدس ٢٠ سنة وأمر بعمارة المسجد الأقصى وتحسينه وترصيفه بالفسيفساء والرخام وغير ذلك مما يحتاج إليه وجعل كنيسة القديسة حنة مدرسة للشافعية "الصلاحية" وأخذ قسماً من منزل البطريرك وحوّله إلى جامع وخانقاه للصوفية "الخانكي". وفى سنة ٥٨٤هـ فتح الملك العادل قلعة الكرك والشوبك وسار صلاح الدين إلى صفد فامتلكها وذهب من فيها إلى صور وفتح حصن كوكب بعد عناء والتحق فرنجه بصور حتى غصت بالمهاجرين وانقلب أفراط صلاح الدين وتساهله مع الفرنج وبالاً عليه حتى

قال ابن الأثير "لم يكن لأحد ذنب في أمر صور غير صلاح الدين فانهُ هو الذى جهز إليها جنود الفرنج وأمدّهم بالرجال والأموال من أهل عكا والقدس وعسقلان" فأصبحت مركزاً لحملاتهم ونجداتهم ولكن سورية ومصر أصبحت متصلة بعضها ببعض لا يفصلهما تخم ولا يحجز بينهما عدو.

(٥٤) الحملة الصليبية الثالثة

كان العالم الاسلامى يظن أن الحروب الصليبية قد انتهت ولم يدران وقوع القدس فى يد صلاح الدين أحدث تأثيراً عظيماً وصدى سيئاً فى نفوس الغربيين فقام منهم رجال كثيرون وحرضوا قومهم على استرجاع القدس وانتزاعها من أيدى المسلمين فنجحوا وأجمعت أمم أوروبا وحكوماتها ثانية على محاربة الشرق الأدنى واعلان النفير العام لاسترجاع القدس فهب ركاردس البطل الشهير الملقب بقلب الأسد وترك عرشه فى انكلترا رغبة فى انقاذ بيت المقدس ونهد امبارطور المانيا بربروسا "ذو اللحية الحمراء" وآزرهما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فغرق ملك الألمان فى نهر سالون قرب أنطاكية ورجع فيليب إلى فرنسا بعد فتح عكا وقام بالمهمة قلب الأسد.

تكاثرت جموع الفرنج فى صور فتحمسوا وجددوا نشاطهم واضطرمت النار بغتة فى صدورهم فساروا بجموعهم إلى عكا فخف لصدهم صلاح الدين فسبقوه لأنه كان وقتئذ موعوكاً فمرَّ بكفر كنا وخيم على تل كيسان وامتدت ميمنته إلى تل العياضية وميسرته إلى نهر المقطع وأنزل الأثقال فى قرية صفورية واستعرت الحرب بين الفريقين وحدثت موقعة طاحنة انهزم

فيها قسم من الوطنيين وفاز الباقون وظفروا بعدوّهم ثم انتكست صحة صلاح الدين فرحل إلى الخروبة "تـل الفخار" حيث توفى أحد قواده ضياء الدين عيسى الهكاري العلمي الحسني فنقل إلى القدس ولما أبلّ صلاح الدين عاد إلى مخيمهِ القديم "تل كيسان" فوجد الفرنج يجدون فى حصار عكا وقد احتاطت بها أبراجهم فاخترع على ابن عريف النحاسين الدمشقى نفطاً أحرق به الأبراج الثلاثة فاطمأن السلطان ورجع إلى الخروبة ونقل أثقال المسلمين إلى قرية الدامون "ميمون" الواقعة على بعد ٣ فراسخ من الخروبة وقد ذكر ابن الأثير أن نصارى العرب كانوا مأمورين إعاشة جيش صلاح الدين وخزنة أمواله وكان مركزهم فى مدينة حيفا وظل الحرب سجالا إلى أن قدم فيليب ملك فرنسا فجد فى قتال مسلمي عكا وشدد فى حصارهم فكان صلاح الدين يركب يومياً من شفا عمرو ويشاغلهم بالقتال ليفرج عن البلد فلما أتى قلب الأسد تحول صلاح الدين ونزل عليهم لئلا يتعب عسكره من الغدو والرواح وفى ١٧ جمادى الأخرى سنة ٥٨٧هـ استولى الفرنج على عكا سلماً بشروط غدروا ولم يفوا بها وانحدر قلب الأسد جنوباً وعسكر صلاح الدين يحاذيهم من جهة الشرق فالتقوا فى مدينة أرسوف "على مقربة من حرم على بن عليم" واضطربوا فهزم جيش المسلمين وأخذ الفرنج يفتحون البلاد الصغيرة حتى أنهم دخلوا يافا ولم يجدوا فيها أحداً. أما صلاح الدين فانهُ استشار قواده فى شأن عسقلان فقرروا هدمها لمكانة موقعها الحرب ولعجزهم عن حمايتها ولأن من يستولى عليها يستطيع أن يقطع الطريق من مصر ودمشق وقد ذكرنا سابقا أن صلاح الدين كان يرسل نجداته وجيوشه عن طريق البادية

خيفة هجمات الحصون الساحلية فهدم صلاح الدين مدينة عسقلان وباع أهلها كل ١٢ دجاجة بدرهم وانقلب إلى الرملة فخرب حصنها وهدم قسماً من اللد وخرب قلعة الأطرون فآخذ المركيز كونراد قلب الأسد على تمكين أعدائه من هدم وتخريب عسقلان ولكن قلب الأسد لم يعبأ بتقريعه ومال إلى عقد هدنة وفاوض الملك العادل وكان يدخل معسكر المسلمين ويطرب إلى موسيقى العرب ويعجب بنغماتها وبعد المذكرات اتفقا على شروط وهي:

أن يتزوج الملك العادل أخت قلب الأسد أرملة ملك صقلية وتكون القدس وما في أيدى المسلمين من بلاد الساحل للملك العادل وعكا وما فى أيدي الفرنج من البلاد لأخت قلب الأسد مضافاً إلى اقطاعها فى بلادها وواقق على ذلك صلاح الدين إلا أن القسيسين والأساقفة حالوا بين ذلك ومنعوه فانقطعت المفاوضة وعادت البلاد إلى الحرب فناجز صلاح الدين الفرنج حتى الشتاء ثم انسحب إلى القدس فتبعوه إلى الأطرون ففزع منهم وأمر بعمارة سور بيت المقدس وتجديد ما رث منهُ وكان ينقل الحجارة بنفسهِ مع العمال وأحكم الخل الذى ملك منهُ البلد وأتقنهُ وقوّاه وأمر بحفر خندق خارج السور وسلم كل برج إلى أمير فرجع الصليبيون إلى الرملة ومضوا إلى عسقلان وشرعا فى عمارتهالما لها من المركز الحربى والتجارى.

وفى سنة ٥٨٨هـ استولى الفرنج على حصن الداروم(*) ورجعوا إلى قرية بيت نوبة ومنها إلى قلونية فردتهم سرايا المسلمين فأغاروا على قافلة بجوار

(*) بين غزة والعريش ونظنه تل العجول وفى جنوب غزة محل يدعى باب الداروم يؤدى إلى ذلك التل الذى يبعد فرسخاً عن البحر كما ذكر.

الخليل وأوقعوا بها ونهبوها. فغضب لذلك صلاح الدين وحاصر يافا وملك المدينة دون القلعة ثم تركها وعاد إلى الرملة وفى شهر شعبان الموافق لشهر أيلول من السنة المذكورة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة على شروط منها:

١- أن تظل عسقلان خراباً وتبقى أملاك صلاح الدين فى يده وأملاك الفرنج فى أيديهم وهى يافا وقيسارية وارسوف وحيفا وعكا واعمالها جميعاً أما اللد والرملة فتبقى "مناصفة" مشتركة بين الفريقين.

٢- وأن تكون الهدنة ٣ سنين و٨ شهور.

٣- وألاّ يتعرض الصليبيون لبيت المقدس.

٤- وأن يسمح صلاح الدين لزوار الفرنج بدخول القدس فأتى الزوار إليها وزاروها فعلاً وسمى هذا الصلح "صلح الرملة" وبعد انعقاد الهدنة رحل قلب الأسد إلى عكا ومنها إلى انكلترا فتفقد صلاح الدين القلاع والحصون ثم ذهب إلى دمشق بعد أن أناب على القدس الأمير جورديك ولكن فاجأته المنية فى صفر سنة ٥٨٩هـ الموافق شهر شباط سنة ١١٩٣م فدفن فى القلعة ثم نقل إلى جوار الجامع الأموى وقبره مشهور ولابد هنا من أن نذكر صفحة من حسنات هذا البطل العظيم والقائد الكبير فنقول:

إنه وان كان صلاح الدين كردياً(*) فإنه كان من عظماء رجال الإسلام

(*) ذهب كثير من المؤرخين أن بعض القبائل العربية نزحت إلى بلاد الأكراد فامتزجت بالقبائل الكردية ويرجعون بنسب صلاح الدين إلى الحسن بن على بن أبى طالب.

وقد خدم العرب خدمات جليلة وأظهر من محاسن الشيم ما خلد ذكره فمنها:

١- معاملته الحسنة الصليبي بيت المقدس مع أنهم من ألدّ أعدائه.

٢- ملاطفة أسرى حطين وتقديم الماء المثلوج إلى الملك.

٣- اكرام وفادة أرملة رنو صاحب الكرك لما جاءت تطلب ابنها.

٤- حفظه للعهود واستكباره غدر الفرنج ونكثهم بها وعفوه عمن أراد قتله. إلا أنه كان مفرطاً فى الحلم وكل شئ تجاوز حده انقلب إلى ضده فإن قواده طمعوا فيه وأخذوا يخالفون أمره.

إن صلاح الدين لم يكن قائداً فقط بل كان رجل أخلاق ودين يغار على الإسلام ويدافع عنهُ بكل غيرة وإخلاص فقد جمع كلمة المسلمين المتفرقة وألف بين قلوبهم وأخرج الأجانب من ديارهم وأباد الفاطميين وأيد كلمة لعباسيين وبنى المدارس والرباطات ومات ولم يترك فى خزينته سوى دينار وأربعين درهماً فمن للشرق اليوم بمثل هذا البطل العظيم ينهض به من كبوته وينقذ أهله من براثن الموت والشقاء؟

(٥٥) صلاح الدين ومواسم فلسطين وشئ عن القبائل

فتح الفرنج البلاد فأخذوا يظلمون العرب مسلميهم ومسيحيهم فنزح بعضهم إلى الأقطار العربية الخارجة عن سلطة الفرنج فلما استجاش صلاح الدين الملوك والأمراء والقبائل وصدم الفرنج فى وقعة حطين وأزاحهم عن البلاد شغرت أكثر مدن فلسطين فأسكنها القبائل وأقطعها لهم فتوطن القدس

موقتاً قبائل بنى حارث وكانت منازلهم خارج المدينة عند القلعة وحارة بنى مرة من جهة العرب الشمالي إلى سوق الفخر "خان الزيت" وحارة السعدية لبني سعد(*) ويلى عقبة الشيوخ من جهة الشمال حارة بنى زيد وحارة الجرامنة سوق القطانين ثم وزعهم على البلدان التى حول القدس فأخذ بنى زيد ٩ قرية شمال رام الله وألحق بهم بنى مرة وهم ثماني قرى وبني سالم وهم فى أربع قرى وعهد إليهم بحماية برج مجدل يابا "مجدل الصادق" وماء نهر الأعوج والطريق بين القدس ونابلس. وأنشأ لهم موسماً في مقام النبى صالح يقام فى جمعة زفة البياق "الجمعة الحزينة" فى القدس وأعطى بنى حارث ١٧ قرية جنوب بنى زيد وعمل لهم موسماً فى النبى عنير يوم الجمعة المذكورة واختص الأمراء الجرامنة بساحل يافا والعرق ووادي الصرار وبنى عمير وأخذ بنى حمار ١١ قرية وجعل لهم جميعهم موسى النبى صالح فى الرملة وأخذ بنى صعب ٢٨ قرية والحق بهم الشعراوية وعين لهم موسماً فى أبى العون وعلى بن عليم ثم تحول زمانه واختلف عن المواسم الأخرى وأنشأ بغزة موسم الداروم وعمل إلى بدو غزة موسم المنطار وإلى بدو عسقلان وأطرافها موسم الحسين وعين إلى عرب المساعيد والمشالخة والصقر موسم أبى عبيدة بن الجراح وجعلها جميعها تابعة لموسم النبى موسى الذى جمع له بنى مالك وهم ٢٤ قرية وبنى حسن وهم ١٣ قرية وجبل القدس وهم ٢٢ قرية والوادية وهم ٩ قرى وعززهم بجبل الخليل وجبل نابلس الذين يردون متعاقبين إلىالقدس. وتتوافد قبائل

(*) منهم دار نجم وغيرهم كان لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه فى يدهم وكان لهم مفاخة في حيهم.

شرقى الأردن إلى مشهد النبى موسى فتصادف جميع هذه المواسم عيد الفصح الذى يأتى فيه الأوروبيون لزيارة القدس فتكون آنذاك الأهالى فى نفير عام قد تجمهروا فى شعبان أخذ عسكر نبى صالح بنى زيد ونبى عنير بنى حارث ونبى صالح الرملة وروبين يافا وحسين عسقلان ومنطار العريان وداروم غزة وأبى العون بنى صعب وأبى عبيدة الغور ونبى موسى القدس مستعدين بسلاحهم وذخائرهم ومؤونتهم لمفاجأة الطوارئ فإذا ما حدث فتق فزعوا لرتقهِ لأن السلطان صلاح الدين ألف من غدر الصليبيين ونكثهم بالعهود ما جعله يحتاط ويخشى أن هم دخلوا القدس زواراً ينقلبون جنوداً ويحتلون المدينة ويمتلكونها سلماً فأنشأ هذه المواسم موافقة لأيام عيدهم لتكون القدس حينئذ غاصة بأهالي الخليل ونابلس المجاورة وتكون البلاد كأنها ثكنة عسكرية متأهبة لرد كل غارة ودفع كل عداء. وبهذا العمل استطاع أن يأمن غدر الأجانب ويعصم البلاد من التعديات المتكررة ولما جاء الملك الظاهر بيبرس ومن خلفه من الملوك استحسنوا رأيه ونظموا هذا العمل وهو نظر بعيد وفكر صائب يستحق عليه الشكر الجزيل والثناء الخالد لأنه عيد استقلال البلاد وذكرى خلاصها. وجدير بالأمة أن تستفيد من هذه المواسم الوطنية فوائد اقتصادية واجتماعية.

(٥٦) فلسطين والدولة الأيوبية سنة ٥٩٠هـ -٦٤٨هـ وسنة ١١٩٣م - ١٢٥٠م.

أسست الدولة الأيوبية على عظمة صلاح الدين ودفنت بدفنه لأنه ألّف بين عدة خيوط غير مؤتلفة ولا متفقة فانتقضت من بعده وقد أحس

صلاح الدين بهذا الخطر الذى يتهدد دولته فجمع القواد والعساكر غير مره وأخذ عليهم عهد الطاعة لولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين واقطعهُ دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وسورية الغربية فلما توفى صلاح الدين انتكث الغزل وانتثرت جماعاته افراداً وطمع بعضهم ببعض ونسوا عدوهم الغريب فاستقِل الملك الظاهر فى حلب وسورية الشمالية وربض الملك العزيز فى مصر واستولى عليها وطمع الملك العادل أخو صلاح الدين فى الكرك والشوبك واحتمى بهما. فأصبحت فلسطين بهذا التقسيم موزعة بين ثلاثة دول الملك الأفضل والملك العادل والفرنج ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً لأن الملك العادل ولع بإغراء بنى أخيه على بعضهم بعضاً وأنساهم عهد صلاح الدين إلى الأفضل ومناهم بالملك فتشوف كل منهم إلى حصر السلطة فى يده والقضاء على ما سواه.

فتنبه لذلك الملك الظاهر وقال للأفضل "أخرج عمنا من بيننا فانهُ لا يجيئ علينا منهُ خير ونحن ندخل لك تحت كل ماتريد" فرفض الأفضل وظل منصاعاً لدسائس الملك العادل فحنق العزيز وسار إلى دمشق وحصر الأفضل بها فاستنجد عمه العادل واستحثه فأتاه بجند كثيف وترددت بينهم الرسل على أن يضم إلى العزيز القدس وما جاورهم فرضى وقفل راجعاً ولكنهُ عاد إليها ثانية فلم يحل بطائل. ثم اتفق الأفضل والعادل على فتح مر وضمها للأفضل مع دمشق فسارا وملكا القدس من واليها سنقر الكبير وجاسوا بلاد مصر فانقلب العادل عن الأفضل ونكث عهده. ومالأ العزيز سراً وتوسط فى الصلح على أن تظل البلاد كما كانت بشرط أن يقيم هو فى مصر فنجح

وبعدئذ اقنع العزيز وراوده على فتح دمشق واستخلاصها من الأفضل ففعلا وأخذاها منه وعوضاه قلعة صرخد فاستوطنها وشكا أمره إلى الخليفة الناصر فقال:

مولاى أن أبا بكر وصاحبه	عثمان قد أخذا بالظلم حق على
فانظرإلى حظ هذا الاسم كيف لقى	من الأواخر ما لاقى من الأول

فأجابه الناصر:

غصبوا علياً حقه إذا لم يكن	بعد النبى له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غدا عليه حسابهم	وأبشر فناصرك الإمام الناصر
فلما رأى الصليبيون الخلاف	مستحكماً بين العرب هاجموهم

فناهضهم العادل وخيم على عين جالوت "بين جنين وبيسان" ثم رحل إلى يافا وملكها. وبعد أن توفى الملك لعزيز سنة ٥٩٦هـ ولى الأفضل الديار المصرية فخافهُ الأمير جركس "جهاركس" وفر إلى بيت المقدس وتغلب عليها ثم انضم إليه ميمون(*) القصرى حاكم نابلس فقويت شوكته وأرسلوا إلى العادل فجاءَ وأخذ البلاد من الأفضل وعوضهُ ميافارقين وبلاداً أخرى ولكنهُ لم يسلمها له.

وفى سنة ٥٩٧هـ حدث زلزال هدم قسماً من عكا ونابلس وفى سنة ٦٠٠هـ تحرك الفرنج ونهبوا قرى الأردن فنهد إليهم العادل وعسكر قرب

(*) المنتسبة إليه المدرسة "المأمونية"

جبل طور الناصرة ثم عقدوا معاهدة على ما يأتى..

أن يأخذ الفرنج الناصرة ويافا يتنازل العادل لهم عن البلاد المشتركة بنيها كاللد والرملة وغيرهما..

ثم فى سنة ٦٠٩هـ خرَّب الملك العادل حصن كوكب "قرب طبريا" ومحا أثره وبنى حصناً على جبل الطوَر ثم خربه الملك المعظم سنة ٦١٤هـ مخافة أن يملكه الفرنج لأنهم ثاروا وملكوا بيسان وعاثوا فى البلاد ثم توفى العادل بعد أن قسم البلاد بين أولاده فجعل الملك الكامل على مصر والملك المعظم على جميع سورية فسار الملك المعظم وهدم أسوار القدس لعجزه عن حمايتها وخوفه أن يحتلها الفرنج ويمتنعوا بها وعمل أبواب الخشب التى على باب المسجد وأوقف لمسجد الخليل حاصلات قريتى دوره وكفر البريك. وفى سنة ٦٢٥هـ سار الملك الكامل بعد وفاة أخيه المعظم وامتلك القدس ونابلس ثم تأخر إلى تل العجول(*) مشاقاً لاخوانهِ فقابله الملك الأشرف وحذره عاقبة الخلاف فرضى ولكن نفسه كان تحدثه بامتلاك جميع البلاد غير ملتفت إلى النجدات والحملات الصليبية المتعاقبة التى حاولت استرجاع القدس ولم تفلح. فلما استحكم الخلاف وأعلنت المشاجرة بين أبناء العادل تسابقوا إلى مرضاة الفرنج ابتغاء التفرغ إلى بعضهم البعض فجاءَ فريدريك امبراطور المانيا سنة ٦٢٦هـ ١٢٢٩م وعقد معه الكامل هدنة على هذه الشروط:

(*) تل يبعد إلى الجنوب من غزة ١٥ كيلو متر تقريباً وربما كان حصن الداروم.

١- أن يسلم إلى الفرنج بيت المقدس مع بضع ملحقاتها بشرط ألاّ يعمروا السور الذى خربه الملك المعظم ولايتصدوا لقبة الصخرة ولا للجامع الأقصى.

٢- أن تظل "الرساتيق" الخليل ونابلس وطبريا والغور فى يد المسلمين.

فتم هذا الاحتلال السلمي الذى لم يصادف قبولاً من الفرنج لأن الامبراطور فريدريك كان محروماً من البابا وغضب المسلمين على الكامل لأنه سلم القدس للفرنج بلا داع يستند عليه إلا ليتقوى بهم على إخوانهِ وأبناء عمه. وفى سنة ٦٣٥هـ توفى الملك الأشرف ملك دمشق وعهد بها إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل. وفى سنة ٦٣٦هـ أعطى الصالح أيوب سنجار والرقة إلى الملك الجواد وأخذ منهُ دمشق فطمع بمصر وسار بعساكره ليأخذها فغدره الملك الصالح اسماعيل والملك المجاهد "صاحب حمص" وهجما على دمشق وأخذاها فلما بلغ الصالح أيوب الخبر وهو بالغور تفرق عنه جنوده فقصد نابلس ونزل بها فسار إليه الملك الناصر صاحب الكرك وأمسكه فاعتقله فى الكرك وأكرمه ثم جاء القدس فحصرها وفتحها وخرب قلعتها التى بناها الفرنج وخرب برج داود وعاهد الصالح أيوب وتحالفا على الصخرة بأن تكون مصر للصالح وسورية للناصر إذا هما امتلكاهما فتوجها إلى مصر وفتحاها فخاف الصالح اسماعيل وسلم الفرنج سنة ٦٣٨هـ صفد والشقيف وفى سنة ٦٤١هـ اتفق الصالح اسماعيل والناصر داود مع الفرنج واعتضدا بهم وسلما إليهم طبريا وعسقلان فعمروا قلعتيهما ثم أباحا لهم القدس

فغضب الصالح أيوب واستدعى الخوارزميين المنهزمين من وجه المغول وجنكيز خان.

(٥٧) الخوارزمية

ينتسب هؤلاء القوم إلى بلاد خوارزم شرقى بحر قزبين وهم تتر كانوا أصحاب حكومة ودولة فلما طم عليهم سيل المغول وأباد حكومتهم ساحوا فى البلاد يقتلون وينهبون كل من اعترض طريقهم بلا تفريق بين دين ومذهب وصدف إن كان الناس فوضى قد انقسموا على أنفسهم وتفرقت كلمتهم فأصبح كل زعيم لايهمه سوى الاستئثار بالسلطة ولو بهدم أهله وذويه فمصلحته الشخصية فوق كل شئ إذا زاحمهُ قريبه استعان عليه بعدوهما الذى يجهز عليه بعد القضاء على ابن عمه فيكون بذلك كالباحث عن حتفهِ بظلفه قد طعن نفسه وهدم عشيرته وأهله الأقربين بمعول حب الذات والنفوذ.

ظل جنكيز خان المغولى يدحرج الخوارزميين وهم ينحرون أمامه ولم يعقبوا حتى إذا وصلوا العراق جمعوا فلولهم ونظموا صفوفهم وأخذوا يتوسلون إلى الملك الصالح أيوب بقربى الدين لظنهم أنه أقوى الملوك فاستدعاهم اليه لمحاربة الفرنج وبنى عمه فاتفقوا معهُ على شرط أن يقطعهم الاقطاعات ويسكنهم البلدان فساروا إلى غزة سنة ٦٤٢هـ وانضموا إلى أمير العساكر المصرية وقاتلوا الفرنج وعسكر الشام بظاهر غزة فهزموهم واستولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل وفتح القدس وقطع رؤُوس الكهنة وخرَّب القبر المقدس وألقى الرعب فى قلوب الأهلين.

ثم بدر الصالح إلى دمشق وحاصرها. وفى سنة ٦٤٣هـ فتحها وخاس بعهده مع الخوارزميين فنقموا عليه وحالفوا الملك الصالح اسماعيل عم الصالح أيوب وانضم إليهم أمراء المصريين والملك الناصر داود صاحب الكرك وحاصروا دمشق فقلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة ولكن واليها حسام الدين قام فى حفظها خير قيام فانخذل المتحالفون ورُدوا على أعقابهم خاسرين فهاجم الصالح أيوب شرقى الأردن واستولى على مدنه وتسلم الكرك سنة ٦٤٧هـ وفى سنة ٦٤٥هـ استعاد المسلمون عسقلان وطبريا من الفرنج فتحمس أهالى أوروبا وجردوا حملة صليبية سنة ١٢٤٨م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا فعرجت على مصر وحاصرت دمياط فغلبهم المصريون وشتتوا شملهم ففروا أكثرهم إلى فرنسا والبعض الآخر إلى عكا ومكث لويس ملك فرنسا ٤ سنوات فى فلسطين وهو يحصن قيسارية ويافا مخافة أن يأخذها منهُ الوطنيون ولم تحدثه نفسه بمهاجمة القدس وأخيراً رجع إلى فرنسا مخذولاً ولم يقم للصليبين بعد ذلك قائمة لأنهم مكثوا فى البلاد أذلاء غرباء ضعفاء حتى سنة ١٢٩١م وسنة ٦٩٠هـ فسلموا عكا وصور وصيدا وبيروت وعثليت وانطرطوس وتركوا فلسطين وودعوها الوداع الأخير بعد ن دامت حروبهم قرنين وهم القوم الأشداء البواسل الذين عضدتهم أمم أوروبا أجمع فلم يظفروا بما أملوا وظلت البلاد عربية وانتهت روايتهم بالخسران.

(٥٨) أضرار الحروب الصليبية بفلسطين وفوائدها

هل أفادت الحروب الصليبية فلسطين أو اضرتها؟

ليس من السهل الجواب على هذا السؤال لأنهُ يفتقر إلى تفصيل ولكننا نجمل البحث فنقول:

تضرر الشرق عامة وأهل سورية وفلسطين خاصة بالحروب الصليبية أكثر مما استفادوا ولكن الفرنج جنوا منها نفعاً أرجح من أضرارهم. وهذه نبذة من مضارها الجسيمة ..

١- أنها أشعلت نار التعصب الدينى بين المسلمين والمسيحيين وزرعت النفور بين الأهالى ونظن أن مداخلة الفرنج فى أحوال سورية وفلسطين اضرت ببعض المسيحيين الوطنيين فأفسدت عقيدتهم الوطنية ومنتهم بأحلام جميلة فإذ هى سراب. وقد رأوا بأم أعينهم أن مسلمى العرب قد أحسنوا ورفقوا بمسيحيي العرب فى حين أن الفرنج قد أساءوا إليهم وأنكروهم.

٢- أن هذه الحروب الطاحنة أضعفت روح القومية العربية فى نفوس نصارى الشرق وزادوا ولاءً لبنى دينهم الأجانب وأكرم بنصارى فلسطين العرب الذين حافظوا على جنسيتهم ولغتهم ونبذوا التعصب الدينى وراءهم ظهرياً ولزموا إخوانهم مسلمي العرب وأثبتوا أنهم من أبناء غسان وطي وتغلب الذين هم من صميم العرب.

٣- فظاعة الحرب وسفك الدماء وتخريب البلدان والمدن وقطع الأشجار وتعطيل الأرض وانتشار الوباء وهدم المنافع العمرانية وبعبارة أخرى القضاء المبرم على الحركة الاقتصادية ولذلك ارتفعت أسعار الحاجيات ستة أضعاف ماكانت عليه سابقاً.

٤- تلطيخ الدين المسيحى والازدراء بتعاليمه ومباديه لأن مسيحيى الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم. وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين تقيدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الانسانية أكثر من الفرنج الناكثي العهود والقاتلى الأسرى والذين أفحشوافى سفك الدماء لما دخلوا القدس وحقروا الديانة المسيحية فى مهدها ولكنهم ذهبوا وخلفوا بقايا كثيرة من جنسهم مما سنوضحهُ فى تاريخ قبائل وأسر فلسطين. فبعض الألقاب الموجودة فى بيت لحم والناصرة والقدس وبيت جالا وغزة ويافا تدل على أن حاملها ليسوا عربا ولكن اصطبغوا وطبخوا فى معمل العربية وتزوجوا بنساء شرقيات عربيات وتوطنوا فى البلاد واندغموا فى أهلها وكذلك يوجد قبيلة بدوية خلف الجوف تدعى "صليبة" شقر الوجوه لايتزوج العرب منهم ويدعون أن أصلهم صليبين كما ورد فى تاريخ سينا والمقتطف.

أما الآثار الصليبية فلم يبق إلا قليلها: منها كنيسة الصلاحية وبقايا كنيسة البيرة والدير فى الرملة وحصن عثليت وقلاع صفد وطبرية والشوبك والكرك. ولم يؤثروا على لغة السكان ولهجتهم بل ظل العرب عرباً يخاطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة انتراجمة ولم يتعلم أحد الفريقين لغة الآخر لما بينهما من سابق العداوة المتأصلة فكان إذا تغلب فريق على مدينة نزح عنها الآخرون ولكن لما طال بهم الأمد امتزجوا قليلاً فخف الكره والبغض كما ورد فى رحلة ابن جبير الأندلسى ومما قاله عن مدينة بانياس أثناء زيارته لسورية:

"هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهى صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يفضى إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للفرنج يسمى "هونين" بين الفرنج والمسلمين ولهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ويتشاطرون الغلة على السواء ومواشيها مختلطة ولا حيف يجرى بينهم .. إلخ. ثم جاء إلى تبنين فى عجلون حيث يقدمون فيه والضرائب "جمارك" فقال والضريبة دينار وقيراط صورية ولا اعتراض على التاجر ثم مرّ بضياع كثيرة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون يؤدون للفرنج نصف غلتهم وديناراً وخمسة قراريط جزية على كل رأس ونزل بضيعة من ضياع عكا الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الفرنج فأضاف القافلة ضيافة حافلة وزار مدينة عكا ونزل بالخان ووصف كتاب الفرنج والسفن والمرفأ ومركزها التجارى وكثرة سكانها ثم ذهب إلى صور ومنها إلى الأندلس.

أما ابن بطوطة فجاء إلى فلسطين بعد ختام الحروب الصليبية من مصر عن طريق الساحل فقال أنه قدم قطية حيث تؤخذ فيها الزكاة وتفتش أمتعة التجار "جمرك" وهناك كتاب ومجباها كل يوم ألف دينار ذهب ثم جاء غزة فوصف عمارتها وأسواقها ومساجدها وعلماءها ومنها عطف على خليل الرحمن فقال أنها مدينة صغير الساحة وذكر مسجدها وموقعها الطبيعى وعرج على تربة يونس عليه السلام ثم زار بيت لحم وقال أنهم يضيفون الغرباء وأتى القدس فوصف قبة الصخرة ودهش بها وذكر فضلاء القدس وعلماءها وروى أن الأمير سيف الدين تنكيز حاكم دمشق جر الماء إلى القدس وسافر

ابن بطوطة إلى عسقلان فوجدها خراباً بباباً [ولا ندري لماذا لم يزر عسقلان لما كان في غزة] ثم سافر إلى الرملة فقال أنهـا كثيرة الخيرات حسنة الأسـواق وبها الجامع الأبيض وذكر بعض علمائها منهم مجد الدين النابلسى. ثـم خـرج منها إلى نابلس وقال أنها مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً ومنها يحمل الزيت والصابون إلى دمشق الشـام وبهـا تصنـع حلواء الخروب ثم ذهب منها إلى عجلون فوصفها واجتاز غور أبى عبيدة ومر بمدينة عكا ومنها إلى صور فمكث فـى سورية مـدة ورجـع إلى زيـارة الحجـاز فركب بصحبة الأمير محمد بـن رافـع شـيخ قبيلـة العجارمـة فمـر بذرعـاه ثـم بصرى وزيزاء "جيزة" واللجوم وحصن الكرك ووصفهُ وبالغ فى مناعته.

(٥٩) فرسان مار يوحنا "الاسبتاليون"

أسـس الصليبيـون هـذه الفرقـة وألفوهـا لتمريـض الجرحـى والمرضــى وخدمة الانسانية البحتة "كالصليب الأحمر" فـأتخذوا اسمـة خاصـة وهـي رسـم صليب ذي ثماني نقط على جنب لباسهم الأيسر وجعلوا ديـر مـار يوحنـا فـى سوق افتيميوس جنوب كنيسة القيامة مستشفى لموآسـاة الضعفـاء ثـم تغـيرت مهمتهم أثناء الحروب وأصبحت عسكرية محضة حتى أنهم كانوا أشـد الجنـود الصليبية على صلاح الدين وأكـثرهم نكايـة بجنـده وأثبتهـم امامـه ولمـا خـرج الفرنج من القدس تحولوا إلى صور ثم إلى عكا وهناك استماتوا فى الدفاع عـن الصليبين ولكنهم جلوا وسكنوا جزيرة رودس حتى أخذهـا منهـم العثمـانيون فنزحوا إلى مالطة ولايزال منهم جماعة تمثلهم وتحيى ذكرهم فـانهم أنشـأوا فـى

القدس مستشفى عيون فى البقعة واقعاً بين بركة السلطان والمحطة ولا أحد ينكر ما له من الخدمات والأيادى البيضاء على سكان البلاد بمعالجة عيونهم مداواتها ويؤمه فى عهدنا هذا ألوف من الناس للاستشفاء. ولهم أيضاً مضافة (Hospice) فى آخر شارع الخانقي بالقرب من سوق خان الزيت.

(٦٠) فرسان الهيكل

تألفت فرق صغيرة أخرى غير فرسان مار يوحنا أهمها فرسان الهيكل (الداوية) وكانت مهمتهم حماية الزوّار وايصالهم إلى القدس وحراستهم من تعدي المسلمين غير أنهم تحوّلوا إلى فرقة عسكرية شديدة البأس والشكيمة واتخذوا الجامع الأقصى مقرّاً لهم وجعلوه مخزناً لطعامهم وأسلحتهم وبنوا فيه محلات أُخرى فاستبدوا وظلموا وولعوا بالنهب والسلب ولذلك أنذرهم صلاح الدين بأنه لايأسر أحداً منهم إلا قتله ونقم عليهم البابا والناس أجمعون فتلاشوا وانقرضوا.

أتى الصليبيون ففتحوا البلاد وتمكنوا بها إلى أن قيض الله للشرق البطل الكبير صلاح الدين رأس الأسرة الأيوبية فقضى عليهم وفتح معظم البلاد العربية ثم أورثها أخاه وأبناءَه وتداولوها حتى سنة ١٢٥٠م. وسنة ٦٤٨هـ حيث ضعفت شوكتهم وتقلص نفوذهم ودالت دولتهم فقتل الملك الظاهر بيبرس توران شاه سنة ٦٤٨هـ وانتخب بعده "شجرة الدر" وهي الملكة الوحيدة التي توجت فى الممالك الإسلامية العربية وضربت السكة باسمها وخطب لها فنفر أمراء دمشق وانضموا إلى الملك الناصر يوسف صاحب

حلب فأعلنوا طاعته ودخلت جميع بلاد سورية فـي حكمـه فعظـم الخـبر علـى المصريين وخلعوها وولوا أمرهم عز الدين أيبك "المملوك" ولقبوه بـالملك المعـز فتزوج شجرة الدر ليرضى الشعب ولكنـهُ لم يـرق لهـم هـذا العمـل واختـاروا الملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن وقرروا أن يكون أيبك أتـابك جنده فغضبت دولـة دمشـق الأيوبيـة وسـار الملـك النـاصر يوسـف إلى مصـر وحاول الاستيلاء عليها ولكنه فر منهزما واحتدم الخـلاف بـين مصـر الأيوبيـة تحـت إمـارة الممـاليك ودمشـق الأيوبيـة البحتة إلى أن أصلـح بينهـم الخليفــة العباسي على أن يكون الحـد الفـاصل بينهمـا نهـر الأردن ثـم ثـار أيبـك سـنة ٦٥٢هـ وخلع الأشرف واستبد بالملك فشق ذلك على المـاليك ورحلـوا إلى دمشق وأطمعوا صاحبها فى ملك مصر واستحثوه فسار إلى غزة وهناك اتفقوا على أن يكون حد الدمشقيين العريـش. وفـى سـنة ٦٥٧هـ قدمـت عسـاكر هولاكو التتري وتملكوا الشام وقتل الملك الناصر ابن الأشـرف سـنة ٦٥٩هـ فانقرض ملكهم من الشام كما انطفى من مصر.

***

الفصل الثانى عشر

فلسطين فى حكم المماليك

(٦١) المماليك البحرية

المماليك جمع مملوك وهم الجماعة الذين دخلوا خدمة الملوك والأمراء فترقوا من خادم إلى ملك ومن أجير إلى أمير ويرجع أصلهم إلى الأسرة المغولية من سكان أواسط آسيا. فالسلجوقيون والخوارزميون والمماليك والعثمانيون من فصيلة واحدة بعضهم نزح بعياله ومواشيه إلى حدود المملكة العربية خشية بطش جنكيز خان أو غيره وبعضهم كان يجلب ويباع فى العواصم أو يقدم هدايا للملوك والأمراء فمن كان منهم قوياً ذكياً كان يقدمه جده ومقدرته فيلبس التاج ويؤسس مجداً باسقاً ومن كان منهم ضعيفاً عاش خاملاً ومات خادماً ومن يتصفح تاريخ الحكومات العربية ويستقصي حوادثها يدرك لأول وهلة سراً خطيراً وهو أن جميع الدول كانت تستكثر من الخدم "المماليك" وتكرمهم وتقربهم وترقيهم وتمنحهم القاب الأمراء وتقطعهم البلاد فيستبدون ويتحكمون ثم يؤسسون حكومات تكون فروعاً للجذع الذى نبتوا عليه فإذا ما عظموا قطعوا عنهُ وأصبحوا وهم العبيد أصحاب البلاد. وما من دولة إلا ارتكبت هذه الغلطة فانقرضت وتلاشت جميعها عن أيدى مماليكها وخدمها ولم تتعظ واحدة منها بالأخرى وليس هذا بعجيب لأننا معاشر الشرقيين بسطاء

القلوب مخلصون سمحون متساهلون لا توقظنا عظة الادهار ولاتنبهنا حوادث الأعصار شأننا في جميع أمورنا وأعمالنا ولو انا طفنا بيوت الأسر الكبيرة لكشفنا ذلك السر ولاطلعنا على أمور توضح لنا أسباب رقي أولئك المماليك ونجاحهم وإليك أيها القارئ الكريم مثالاً.

يأتي السيد العربي بخادم أو خادمة إلى بيته فيجعله فرداً من العائلة ويشركه في أمره ويد لله ويطلعُه على أسرار البيت وعورات أهله ودخائله فيعرف فقره وغناه ومقامه الحقيقي والظاهري ويتدخل بينهم فيجدهم أحزاباً يستعين به أحدهم على الآخر ويتقوى به أضعفهم ويستند عليه أعجزهم فيحترم ويكرم ويتنافسون في استمالته إليهم حتى يصبح مستشاراً لا خادماً فيخالفهم ويخاشنهم. أما الغربيون فيظل خادمهم خادماً لا يعرف من أمرهم شيئا وليس له عليهم من سبيل؛ وربما طردوه لأقل ذنب اقترفه أو خطأ جناه ولو كان طفيفاً.

تشعبت الدولة الأيوبية وطمع بها كثيراً وأصبحت البلاد لمن غلب فاستكثر الملك الصالح المماليك وقربهم منهُ وولاهم الإدارات فاستفحل أمرهم وقويت شوكتهم وسطع نجمهم وأيدهم السلاح الذي بين أيديهم فنالوا المناصب العالية وأصبح الحل والربط منوطاً بهم فاحتقروا آخر ملوك الأيوبيين وخلعوه واستبد بالملك أيبك الجاشنكير أول ملوك المماليك البحرية الذين لقبوا بهذا اللقب لأن مقرهم كان في جزيرة النيل عند نقطة سميت بالبحر لاتساعها تميزاً لهم عن المماليك الجراكسة.

(٦٢) قطز الملك المظفر

ولى السلطان قطز الملك سنة ٦٥٧هـ وهو الثالث من ملوك المماليك البحرية ولم يدم سلطانه سوى أحد عشر شهراً لأن هولاكو زحف بجموع كالجراد المنتشر فدخل بغداد "دارالسلام" وقضى على حضارتها ومدنيتها الباهرة وانا نسطر هذه الفاجعة الأليمة المحزنة فنقول: كان هولاكو تتريا من أحفاد جنكيز خان وله حكومة قوية فاستدعاء مؤيد الدين العلقمي وزير المستعصم لفتح بغداد فلباه وهاجم البلاد العربية وكان لايأتي إلى بلد أو مدينة إلا وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً فلا يترك رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً إلا قتله فوصل بغداد وحصرها وضيق عليها فخرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمي [مسبب هذه النقمة] إليه وتوثق منهُ لنفسهِ وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال له ان هولاكو سيبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم في "الأناضول" ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر وحسن له استقباله فخرج المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه ونزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسين وظلوا يخرجون إلى التتر طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا وكان منهم محيى الدين بن الجوزي وأولاده فأمر بقتلهم جميعاً ثم مدوا الجسر ودخلوا بغداد واعملوا السيف في أهلها وهجموا على دار الخلافة وقتلوا من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا ألصغار ودام القتل والنهب نحو أربعين يوماً وقتل الخليفة ولم يعرف طريقة اغتياله ثم نودى بالأمان.

هكذا ختمت الخلافة العباسية البغدادية التى أجلّها واحترمها وهابها

السلاطين والملوك فداسها هؤلاء البرابرة بأرجلهم القذرة سنة ١٢٥٧م و٦٥٦هـ بعد أن عمرت خمسة قرون ونيفاً وتركت من المآثر الجليلة ما برزت بها على الأولين وبذت السابقين.

انقضت هذه الصاعقة أو الفاجعة بل الطامة على العرب فذعروا واستسلموا أو تمرد هولاكو فاستولى على العراق وتقدم غرباً وجنوباً إلى سورية ففر الملك الناصر من دمشق بأولاده ونسائه وأتباعه ونفائس ذخائره إلى بركة الكرك "زيزاء" فجاء نائب هولاكو القائد كتبغا وتسلم دمشق بأمان ثم بحث عن الناصر حتى عرف مقره فأمسكه وبعث به إلى هولاكو فقتله وانقرضت به الدولة الأيوبية الدمشقية ثم زحف التتر إلى عجلون وفلسطين وقدموا غزة وامتلكوها فالتقاهم الملك قطز وصحبته المنصور صاحب حماة والتحم الجيشان في الغور على عين جالوت بين بيسان وجنين فكانت موقعة كبرى قتل فيها كتبغا وأسر ابنه ثم قتل وتأثر فلولهم بيبرس ومازال يفتك بهم حتى أخرجهم من البلاد ورجع فقتل الملك المظفر قطز واستوى على العرش.

(٦٣) الملك الظاهر بيبرس البندقدارى

لاريب أن السلطان بيبرس هو أعظم المماليك وأشدهم بأساً فإنه حكم فلسطين وحارب مابقى فيها من الصليبيين وانتزع منهم الشوبك والكرك وفتح قيسارية وأرسوف وصفد وذبح أهلها وفتح يافا واهتم بالأماكن المقدسة ورمم قبة الصخرة وزاد فى أوقاف الحرمين الشريفين الأقصى والخليل وفى سنة ٦٦٨هـ سنة ١٢٦٩م عمَّر النبي موسى وزاد فيه ورتب موسمه وحسنه وقاوم

الفرنج.

(٦٥) محمد قلاوون

ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أن خلع مرتين وعمر فى القدس المساجد وأنشأ المآذن وصد هجمات ملك التتر قازان الذى أوغل فى البلاد وتجاوز حدود فلسطين فوجس الناصر وجهز سلار وبيبرس الجاشنكيز بجيش لمحاربتهم فاجهزوا عليهم وردوهم على أعقابهم منقلبين.

ولاحاجة للافاضة في هذا المختصر عن سيرة كل ملك من المماليك البحرية لأنه لم يحدث بفلسطين شئ جدير بالذكر غير خلع الملك هذا وتعيين ذاك مما لا يهم القراء معرفته.

(٦٦) المماليك الجراكسة أو دولة المماليك الثانية

كانت منازلهم فى سيبريا حول بحيرة بيكال فهجروها واستوطنوا بلاد الجركس وقفقاسية وما وراءها فاستقدمهم الملوك والأمراء واصفطوهم واستكثر منهم العباسيون وبنو أيوب والمماليك البحرية فقضوا على سلطتهم بأسلوبهم العجيب وهو تنصيب الأحداث والضعفاء من أبناء الملوك على سدة السلطنة لسهولة نزعها منهم ثم يكفله أحدهم ويدير شؤون المملكة فيستبد بالسلطان ويتربص له ويخلعه وأول ملوك المماليك الجراكسة.

(٦٧) أبو سعيد برقوق "الظاهر"

هو أحد موالي بنى قلاوون النابهين ساعده جده فبرز على قرانه ونال

التتر وصد هجماتهم عن سورية وفلسطين.

(٦٤) انتقال الخلافة العباسية إلى مصر

ومن الأعمال الجليلة التى قام بها الملك الظاهر بيبرس نقله الخلافة العباسية من العراق إلى مصر فانه لما استأصل هولاكو شأفة الأسرة العباسية المالكة فى بغداد ذهب إلى مصر رجَل بغدادي أسمر اللون اسمه الإمام أحمد وادَّعى أنهُ عباسي فقبله بيبرس لغرض سياسي ودعا إليه القضاة فى مصر فاثبت نسبه إمامهم وبايعوه بالخلافة ولقبوه المستنصر وكانت العامة تلقبهُ بالزراتيني ثم ثم أرسله إلى بغداد فقتله التتر قبل وصوله. ومات الملك الظاهر بيبرس فى دمشق ودفن بالقرب من الجامع الأموى.

بدأ شأن الخلافة فى الضعف منذ عهد الراضي سنة ٣٢٢هـ الموافق سنة ٩٣٤م عندما فصلت عنها السلطة الزمنية واستبد الملوك والأمراء وأصبح الخلفاء شيوخ زاوية يتبرك بهم بل هدفاً للسجن والقتل فجاءَهم هولاكو وأبادهم وثل عروشهم فنقلوا إلى مصر وزادوا ضعفاً فوق ضعفهم حتى بلغ من الملك الناصر أن نفى الخليفة المستكفي إلى قرية قوص ومن ملوك هذه الدولة السلطان الملك المنصور قلاوون الذي فتح طرابلس الشام واستردها من الفرنج بعد أن مكثت فى أيديهم ١٨٥ سنة ثم خلفه ولده السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذى هدم قبور خلفاء الفاطميين فى مصر وبنى مكانها خاناً دعاه الخان الخليلي بقرب مشهد الحسين وفتح عكا وقتل أهلها وخرَّبها وتنسلم عثليت وفى عصره سنة ٦٩٠هـ خلت سورية وفلسطين من

حظوة عند أسياده فاغدقوا عليه نعمهم وأحلوه صدر مناصبهم وأعلاها فجنحت نفسه للعرش ونهج منهج أسلافه المماليك فاختار حاجي الصغير ابن السلطان شعبان وكفله وناب عنهُ فى المملكة وما زال به حتى خلعه واستوى على عرشه فانتقض عليه الأمراء وبعد عراك شديد تغلب عليهم وشردهم فالتجأ أحدهم منطاش إلى آل الفضلِ عرب الأمير محمود الفاعور واحتمى بهم فدافعوا عنهُ وحاربوا معهُ وأخيراً أخذوا له الأمان وسلموه فخاس برقوق بعهده وفتك به فصفا له الجو وقرت عينه بالملك. وفى سنة ٧٩٦هـ كان ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس شهاب الدين الأمير أحمد بن اليغموري "وله أسرة فى الخليل والشام" فأبطل المظالم والمكوس التي عملها سواه ولما زار الناصر فرج بن برقوق القدس رأى على نيابتها ونظارة الحرمين حاكماً واحداً فلم يستحسن ذلك وجعل لكل منهما مأموراً خاصاً فتعين الأمير ناصر الدين النشاشيبي ناظراً للحرمين فقط وأسرته فى القدس كبيرة ومشهورة.

(٦٨) مجيئ التتر

اشتهر من التتر ثلاثة ملوك عظام الأول جنكيز خان مؤَسس الدولة والثاني هولاكو مبيد مجد العرب وطافئ سراج مدنيتهم ومحرق مكتباتهم ومدارسهم فى بغداد والثالث تيمورلنك ملك سمرقند الذى اجتاح البلاد وفتح خراسان وتركستان والهند وفارس واخترق الأناضول وأسر السلطان العثماني بايزيد ثم انقلب إلى سورية سنة ٨٠٣هـ فأمر فرج بن برقوق سائر النواب

بالتوجه إلى حلب ليمنعوها منهُ ففعلوا ولكنهم عجـزوا عـن رده وصـد غاراتـه فحاربهم وانتصر عليهم وفتح حلب وأمعن فى النهب والفتك وسـفك الدمـاء البريئة وسار إلى الشام فامتلكها وأحرقها ونكل بأهلها وأحرق الجـامع الأمـوي وفتك بالأهالي وعاث في الأرض فسادا.

ولما ولي السلطان الملك الظاهر خشقدم عمر قناة السبيل وأجـرى بهـا ماء العروب إلى القدس ومن ملوك هذه الـدول السـلطان قايتبـاي الـذى عمـر كثيراً وطـالت سـلطنته وقـد حـدث فـى عهـده وقـائع عمومـيـة نذكـر بعضهـا باختصار مفنها:

أنه فى سنة ٨٧٨هـ نشبت فتنة فى الخليـل بـين الأكـراد "الحموريـين" وبين الدارية "التيمية" المتشعب منهم سكان قريتى النبى صالح ودير نظام وتمو نابلس فقتل من الفريقين ثمانية عشر رجلاً. ومنهـا الفتنـة التى حدثـت بسـبب كنيسـة اليهـود وتشـدد متعصبـو المسـلمين إلى أن تفـاقم الخطـب. وفـى سـنة ٨٨٠هـ خيم السلطان على بركة الجاموس قرب الرملـة فسـرق لـه اللصـوص بقجة قماش من الخيمة التى كان نائماً فيها فاستدعى شـيخ بـني صعـب حـرب الجيوسي وحبسهُ ثم غرمهُ مالاً.

ومما يدل على ضعف الحكومة وقتئذ أن حاكم القدس قتـل جماعـة مـن بني زيد فهجـم عصبتهـم وأعوانهـم ونهبـوا المدينـة ودخلـوا المسـجد شـاهري السلاح وهرب من وجههم الحاكم فتمردوا وكسروا بـاب السـجن وأخرجـوا منهُ المساجين.

وسنة ٨٨٨هـ اختلف السلطان قايتباي والسلطان بايزيدالعثماني فجمعوا من فلسطين الجنود "تجريدة" وصرفوا لهم المعاشات فاخذوها ونكلوا عن الحرب.

وفى سنة ٨٩٤هـ حضر أبو العويس أمير عرب الجرامنة "جد العويسات فى بيراما عين والبرج" وطرح مظلمة على الفلاحين فعارضهُ نجم الدين ابن جماعة "من أجداد دار الخطيب" واسترحم من الدوادار(*) أن يمنعهُ فلبى طلبه.

وفى ١٩ ربيع الأول لسنة ٨٩١هـ الموافق ٧ كانون أول تساقط الثلج فى القدس من يوم الثلاثاء حتى يوم الخميس فتراكم كثيراً مثل ثلجة سنة ١٩١٩م وفي هذه السنة حدث خلاف بين حاكم غزة وحاكم القدس وتداخل بينهما السلطان وأصلح ذوات البين وظلت البلاد فى انحطاط حتى التهمها الأتراك العثمانيون.

(*) هو الدمدار "قائد المؤخرة" والبيشدار "قائد الطليعة".

القسم الثالث

فلسطين إيالة عثمانية

الفصل الثالث عشر

(٦٩) تمهيد

ان دولة حكمت فلسطين وخفقت راياتها على ربوعها أربعة قرون لجديرة بأن يخصص لها باباً ندوّن فيه أعظم المواقع وأشهر الحوادث التى جرت فى أيامها ولا بأس من أن نبدأ بحثنا بذكر خلاصة عن أصل هذه الدولة وما وفق إليها من الأعمال الجليلة دون سواها من الدول الأخرى.

أ - حاول العرب فتح القسطنطينية ودك عرش الرومان والقضاء على مملكتهم فسلخوا جزءاً كبيراً من جسم امبراطوريتهم ولم ينفذوا إلى قلبها فبقيت ذات حول وقوة تكافحهم وتنازعهم البلاد ثم طمع سلجوقيو الأناضول فى القسطنطينية وتلاهم التتر فهاجموا الرومان من الشمال والشرق والجنوب وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً فلم يقدروا عليهم فلما نجم الأتراك العثمانيون فتحوا الأناضول وتولوا فى أوروبا وحاصروا الأستانة من كل الجهات وبعد حروب طويلة دامية دخلوها عنوة سنة ٨٥٧هـ وسنة ١٤٥٣م واستولوا على ممالك الرومان فى أوروبا وآسيا.

ب – أصلهم

كان وسط آسيا مهد القبائل التركية ومصدراً للأمم التي كانت تبدو صغيرة ثم تنتشر فتزداد عظمتها كلما نأت عن بلدها الأصلي كحجر يلقى في بركة ماء فتتسع دائرته كلما بعدت عن مركزها أو كصخر انحط من علٍ فكلما طال في جريهِ زادت سرعته واشتد انحداره، أما الأتراك العثمانيون فهم من جيل التتر "القبيلة الطورانية" الذين سكنوا حدود الصين ثم زحفوا إلى تركستان فتجنبهم الأكاسرة وهابوا صولتهم فلما فتح العرب إقليمهم احتك الأتراك بهم واقتبسوا مدنيتهم ودانوا بالدين الاسلامي فى القرن الحادى عشر وأشهر هذه القبائل السلاجقة الذين ينتسبون إلى جدهم سلجوق والعثمانيون الذين ينتسبون إلى السلطان عثمان الغازي وهو الحجر الأول فى أساس دولتهم.

ج – تكوّنهم

فى سنة ٦٨٧هـ وسنة ١٢٨٨م بدأت نواة الدولة العثمانية تتكل فى الأناضول على أصل الدولة السلجوقية ومازال يمتد جذرهم ويبسق فرعهم حتى تغلبوا على اخوانهم واحتازوا الملك دونهم ومدوا ظلهم إلى البلقان وفينا عاصمة النمسا وامتلكوا العراق وسورية ومصر وإيران وشمال البحر الأبيض ولم يقفوا عند هذا الحد كأسلافهم السلاجقة أو الدول الاسلامية الأخرى بل تعدوا طورهم وضنوا على العرب بالخلافة "السلطة الروحية" وتطلعوا إلى اغتصابها منهم. فإن العرب قبلوهم همجاً وهذبوهم وصقلوهم وربوهم

وعلموهم الدين الاسلامى الحنيف وعرفوهم عبادة ا لله عوضاً عن عبادة الأصنام ولقنوهم اصطلاحات علمية وفنية فلم يرع الأجانب لهم هذا الجميل وغلبوهم على تلك المملكة الواسعة التى فتحوها بجدهم ونشاطهم وروحهم الدينية وسلبوهم أياها وهذا يشبهُ ماحدث للرومان مع برابرة الألمان الذين ظهروا من أحراج أوروبا الشمالية فِسطوا على مدنيتهم وانتزعوها من أيديهم.

فاز الترك على العرب بيد أنهم سلكوا شريعة نبيهم ﷺ ودخلوا فى دينهم واقتبسوا تقاليدهم فأصبح الأتراك وهم الغالبون مغلوبين لارتباطهم باللغة العربية الدينية وزيارة البلاد العربية لأداء فريضة الحج فهذه العلائق المتينة ربطت الأتراك بالعرب وأخضعتهم إليهم إلى أن قام الحزب الوطنى فى أنقره وقرر أن تتلى خطب الجمعة فى البلاد التركية بلغتهم فدفنوا بهذا الحكم لغة محمد ﷺ.

(٧٠) نشوء الدولة العثمانية حتى فتحها فلسطين

مؤسس هذه الدولة أرطغرل بن سليمان شاه التركماني سلطان بلاد ماهان قرب بلخ نفر من جنكيز وارتحل إلى بلاد الروم ببعض قبائل الترك فلما انتهى إلى الأناضول رأى جيشين يلتطمان ويتحاربان فعلاً نشزاً من الأرض حركاتهما الحربية ولما آنس من أحد الفريقين ضعفاً وخذلاناً هب بفرسانه لنصرته وأعمل السيف في الجيش المنتصر فهزمه وبدّد جيشه وبعد أن انكشف الغبار علم أن من انجده كان الأمير علاء الدين سلطان قونية(*) الذى شكره

(*) احدى الامارات السلجوقية المتجزئة من مملكتهم بعد انحلالها.

على نجدته وصنيعه واقطعه عدة مدن واتخذه ركنه وعماده في حروبه وغاراته وأغدق عليه النعم ومنح قبيلته لقب "مقدمة السلطان" ولما توفى أرطغرل خلفهُ ولده عثمان وأخذ لقب بك مثل، أمير، لورد، فيكونت، وأجيز له ضرب النقود وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة فعرج إلى قمة الرقي تدريجاً حتى قدم التتر وقتلوا الملك غياث الدين السلجوقي فاتسع المجال لعثمان ولقب نفسه "بادشاه آل عثمان" واتخذ مدينة بكيش هو عاصمة له وخلفهُ ابنهُ أورخان فاستولى على جزء من أوروبا الجندية بمشورة وزيره خير الدين باشا الذى جمع الباب من أسرى الحرب فرباهم تربية أنستهم أصلهم وجنسيتهم وباركهم يخ طريقة البكطاشية المقيم في أماسية وسماهم (بكى جاري) "الجيش الجديد" فتحرف الاسم إلى انكشاري فكان هذا العمل من أكبر العوامل لتثبيت دعائم هذه الدولة الفتية وقد سلك هذه الخطة فردريك الكبير ملك الألمان إذ نظم الجيش فرفع شأن برونسيا وارهب ممالك أوروبا.

ارتقى جيش العثمانيين الجديد "بكى جاري" وزاد عدده فاخترق قرب البلقان ومكدونيا وفتح الأستانة.

وفى عهد السلطان سليم تحالف ملك مصر قنصوه الغوري وشاه إيران إسماعيل واتفقا على محاربة العثمانيين فسار السلطان سليم بجيش إلى بلاد العجم وفتح بعض ولاياتها وأقاليمها ثم انثنى إلى محاربة الملك الغوري فتصادف الجيشان فى مرج دابق "قرب حلب" ولم يصبر المصريون على مدافع الأتراك وانهزموا فقتل ملكهم وأسر الخليفة واستولى السلطان سليم على مدن

سورية ثم تقدم إلى فلسطين فالتقى بجيش طومان باى قرب اللجون فحمل عليهم بجيشه وردهم على أعقابهم واستولى على فلسطين وفتح مصر فقضى على آخر ملوكها وضمها إلى ملكه في سنة ٩٢٣هـ وسنة ١٥١٧م وقسم مصر إلى أقسام ادارية ووزع النفوذيين الأمراء فكان كل منهم رقيباً على الآخر وقفل راجعاً إلى الأستانة مستِصحباً محمد المتوكل آخر خلفاء بنى العباس الذي تنازل للسلطان سليم عن الخلافة وسلمهُ الآثار النبوية البيرق والسيف والبردة وأعطاه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين فصارت الأستانة من ذلك الوقت مقر الخلافة الإسلامية وأصبح كل سلطان عثمانى خليفة لرسول الله وأميراً للمؤمنين فجمع السلطان سليم السلطتين الزمنية والروحية وحصرهما فى نفسه وفى أحفاده من بعده ولم يك عمله هذا حرصاً على الدين أو حماية للاسلام وحسب ولكن أراد أن يستأصل منازعيه ويوحد كلمة المسلمين ويجعل لهم امبراطورية عظمى.

(٧١) السلطان سليمان ومابعده من الأحداث

لو تتبعنا تاريخ هذا الخليفة لوجدناه مملوءاً بالأعمال الجسيمة والمآثر الجليلة الخالدة ولكنا نقتصر على ذكر ما يتعلق بفلسطين فمن مآثره فيها: وأعماله الحميدة سور القدس الذى أنشأه سنة ١٥٤٢م وسنة ٩٤٥هـ ولايزال اسمه منقوشاً على صفحاته ومنها عمل باب قبة الصخرة الغربي وفتح باب السيدة مريم وسد الباب الذهبي "شرقي الحرم" ومنها عمارة بركة السلطان الواقعة على طريق المحطة من باب الخليل وهو الذى نظم القوانين

فلقب بالقانوني وكان سلطاناً عظيماً وادارياً حازماً وبطلاً قديراً وصلت تركيا في أيامه إلى ذرى مجدها حتى أنه هدد المجر واستريا وملك سائر بلاد البلقان وأصبح البحر الأسود بحيرة تركية تحيط به الأقاليم العثمانية من كل جهاته ودخل في طاعته خير الدين باشا بارباروس فولاه قيادة الاسطول وأوقع الرعب في دول أوروبا البحرية. وفي عهده خرج حاكم سورية وفلسطين جان بردي الغزالي فاستولى على قلعة دمشق وأعلن العصيان فأرسل إليه السلطان أحد قواده فرحات باشا وعاجله فأخمد تلك الفتنة وقطع رأس الغزالي.

وفي أواخر القرن السادس عشر فشى استعمال التبغ في سورية ومصر وأقبل الجميع على تدخينه. وفي ذلك القرن استولى الأمراء المعنية على نابلس وأطرافها وعينوا عليها ولاة من قبلهم وسار الأمير فخر الدين إلى نهر العوجاء وحارب بدو الساحل وبدد جموعهم ولكن أهل بلاد حارثة(*) حاصروه في قلعة جنين وأخرجوه منها.

وفي هذا القرن عظم شأن الأنكشارية وأستبدوا بالملوك فأخذوا يخلعون من شاءوا ويولون من أرادوا وفي سنة ١٧٦٤م عصى أمراء جبل نابلس الحكومة فاستنجد والى الشام عثمان باشا الكرجي بالأمير يوسف الشهابي فأمدَّه بجيش كثيف من أهالى لبنان وحاصروا عاصمتهم "قلعة صانور" فلم يستطيعوا فتحها فقال شاعر جرار:

(*) ناحية مؤلفة من ٣٥ قرية تابعة إلى جنين

عرب ودروز أجونا صايلينـــــا　　من العرقوب أجونا صايلينـــــا

....

وقال شاعر اللبنانيين

جينـا بـلاد جـدي ماوصلهـا　　عـرب ودروز والدولـة تصلهـا

عربستان يارب نصلهـــــا　　بحق البيت أو ما زاره صحابـــة

(٧٢) خروج الأمير على بك المصري والشيخ ظاهر العمر

فى أثناء الحرب الروسية العثمانيـة أرسـلت روسـيا اسـطولاً إلى البحـر المتوسط وأثارت الشيخ ظاهر العمر وعلـى بـك المصـري الملقـب بشـيخ البلـد فخرجا على الدولة وحشد على بك الجنود وأرسلها مع محمد بك المكنى "بابى الذهب" إلى الحجاز فاحتل جدة وطرد الشريف من مكة ودعى له علـى المنابر وضرب السكة باسمه. أما الشيخ ظاهر العمر فأن أصله من الحجاز جاء أجداده الزيادنة فى الفتح الاسلامية الصلاحي وكـانت اقطاعـاتهم خمـس قـرى وهـى: بيت أكسا والنبى صموئيل والجيب وبيت نابالا وبيت حنينا فسكنوا فى القرية الأولى ثم رحل جده زيدان ونزل فى شفا عمـرو فأكرمـه محـافظ القلعـة وظـل يتقدم إلى أن تعين ولده عمر على عكا ثم خلفهُ ابنهُ ظـاهر المشـهور فـاتفق مـع المتاولة حكام صور وبلاد بشارة وخالف الدولة فسـير إليـه والي دمشـق جنـداً فاستصرح زميله على بك المصرى وزين لـه الخـروج علـى سـورية والاسـتيلاء عليها فجهز إليـه عشـرة آلاف مقـاتل مـع القـائد إسمـاعيل بـك وأمـره بطاعـة

الظاهر فساروا إلى فلسطين وقابلهم أبناء الظاهر فى يافا باحتفاء وأتوابهم إلى عكا فحاول ظاهر العمر أن يوجههم إلى طريق الحج ليوقعوا بوالى دمشق فأبوا وعاد بهم قائدهم إلى يافا فاشخص على بك المصرى عسكراً آخر بقيادة أبى الذهب وانضم إليه عسكر ظاهر فكانوا ستين الف مقاتل وحاربوا والى الشام فلم يثبت أمامهم وولى هارباً فاستولى أبو الذهب على دمشق واعتزم على أن يمتلك بقية البلاد غير أن القائد الأول اسماعيل حول عزمه وأفسد اخلاصه فرجع إلى مصر موالياً للدولة مغاضباً على بك ومزاحمه فغلبه على أمره والجأه أن يفر إلى ظاهر العمر فى عكا ومن هناك استنجدا الأسطول الروسى فساعدهما من البحر وامتلكا صور وصيدا وطردا الوالي درويش باشا(*) ..

ثم اتفقا على محاربة أبى الذهب ودلفا إلى مصر فقابلهم قرب غزة وحاربهم فكسرهم وجرح على بك فى وجهه وأخذ أسيراً فلاطفهُ أبو الذهب ولكنهُ مات من جرحه. ولما رجع الظاهر إلى عكا مخدولاً عفا عنهُ السلطان وولاه إيالة صيدا وعكا فلم يخلص نيتهِ فخرج إليه أبو الذهب من مصر بعسكر كثيف وخيم حول غزة وحاصر كريم بن ظاهر العمر فى يافا ٦٠يوماً ففتح المدينة عنوة ونهب أموالها وقتل من كان فيها وأقبل على عكا ففر ظاهر منهُ ملتجئاً إلى عرب عنزة.

ولما مات أبو الذهب رجع الشيخ ظاهر إلى عكا واحتلها فسير إليه السلطان العثمانى الأميرال حسن باشا فهدد ظاهراً بالحرب إن لم يؤد ما عليه

(*) من أجداد آل رضوان فى غزة الذين تحدر منهم أكثر من عشرة باشاوات وصدور عظام.

من الأموال فلم يلتفت إلى طلبه بل رده رداً قاسياً فحاصره وضيق على المدينة وضبطها وأسره واحتز رأسه وأرسله إلى السلطان ومن آثار ظاهر العمر سور عكا وسراية شفا عمرو وبعض مساجد وعمارات أخرى.

إن من استقصى حوادث هذا المختصر وجد أن البلاد كانت مضطربة فتارة فى حالة سلم وهدوء وطوراً تهيج فيها نار الحرب والثورة وتكثر فيها الخوارج وما السبب الا تنافر الأمة والحكومة فإذا تفاهما ساد السكون وأمن الناس وإن ساء ظن الأمة بحكومتها اختل الأمن وثارت الفتن ونشأ عن ذلك ما لا يحمد عقباه من سفك الدماء وقتل النفوس البريئة.

كانت حكومة سورية فى القرن الثامن عشر حكومة لامركزية أى اقطاعات أو حكومة أمراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقته فكان مشايخ أبو غوش أو البراغثه يحكمون بنى مالك وبنى حسن وبنى زيد وبنى مرة وبنى سالم فإذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ "العدلية" ويقبلون حكمه لامحالة. ومن خالف عادات البلاد أو أخل بتقاليدهم يسجن فى سجنهم وكان الشيخ أو الأمير يجبى الضرائب ويقدم المقطوع عليهم للوالى ويأخذ الزيادة وإذا حدثت فتنة أو خيف من وقوعها كان يطلب الوالى المعاونة من أمراء منطقته فيخرجون بأنفسهم ومن ورائهم رجالهم وفرسانهم. فالشيخ أو الأمير يحكم مقاطعته كما يحكم الأمير ايالته وكثيراً ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الأمراء والولاة فأدّى هذا النظام إلى انتشار الفوضى واختلال الأمن وسبب للحكومة خسراناً كبيراً فى الأموال والرجال وقد

تنبهت الحكومة لهذه الأضرار الناجمة فعمدت إلى اضعاف قوة المشايخ والأمراء وأيدت الجزار فى عكا وأشارت إليه بابادة المتنفذين ونصر ولاتها المخلصين لكنها لم توفق إلى انجاز هذا العمل إلا سنة ١٢٨٧هـ وسنة ١٨٧٣م حيث ألغت الامارات ومناطق النفوذ وإدارات البلاد بموظفيها. وهذا الاسلوب يشبهُ ما فعله لويس الحادي عشر في فرنسا فانهُ مازال بالأمراء والنبلاءِ حتى قضى على سلطتهم وخلص من نفوذهم الذى كان حاجزاً بينهُ وبين الشعب.

(٧٣) أحمد باشا الجزار

هو رجل بشناقي الأصل من بلاد البوسنة كانت نفسه نزوعة إلى الأعمال الجليلة وتذليل الصعاب فبعثت به الحكومة إلى مصر ليستأصل شوكة المماليك الذين كانوا شبحاً فى حلقها فاتبع سياسة القاء بذور الفساد والفتن بين المشايخ والأمراء وفاز بامنيته وكان طائش السيف ظالماً بطاشا استحل الموبقات وولغ فى النفوس فسخط عليه عامة الشعب والحكام ففر ملتجئاً إلى الأمير يوسف الشهابي ليتبع أمراء سورية بمماليك مصر.

وفى سنة ١٧٧٠م أنيطت به المحافظة على مدينة بيروت فحصنها ومنع أهل الجبل من دخولها وأزمع على العصيان ففطن لذلك الأمير يوسف وباغته وهمّ أن يبطش به فقابله الجزار بالخضوع والطاعة واستمهله ٤٠ يوماً ثم جاهر بالكفران فغلب على أمره ولم يفلح. وحدثت بينه وبين على بن ظاهر العمر وقعات خذل فيها على وفرّض من البلاد فقتل وزالت إمارة أهله واستحوذ الجزار على ماكانوا يملكون من المقاطعات واتخذ عكا عاصمة له

وبنى عليها سوراً ثانياً وجامعاً كبيراً هو خير حسناته وآثاره.

وما فتئ الجزار يقتل ويذبح ويثير بعض المشايخ على بعض حتى أصبح من أكبر ولاة وأبطال سورية فزادت ثقة الدولة به واعتمدت عليه فى تنفذ غاياتها وتكثير وارداتها فازداد بطشه وصنع وتداً "خازوقاً" كان يجلس عليه من خالفهُ لو عانده فأرهب الناس وأخاف أهالى البلاد لأنه كان لايثبت على حال مع صديق أو عدو فبينا نراه اليوم يحسن إلى رجل ويعطف عليه إذا به غداً قد أصبح فريسة لسيفهِ وهدفاً لسهام انتقامه. فيروى أنهُ ذهب لأداء فريضة الحج فبلغه ما جعله يرتاب فى أهل بيته فلما رجع شواهن فى النار ومات الجزار سنة ١٨٠٤م بعد أن بلغ من العمر ٨٤حجة ودفن فى عكا فى الجامع الذى بناه.

مرّ على فلسطين قرنان ونصف وهى نائمة لم يحدث فيها شئ سوى ما انتابها من الحوادث الداخلية البسيطة فأغفلها التاريخ وجاءَت عرضاً فى أخبار غيرها وهيهات أن تكون فلسطين الصغيرة عضواً فى جسم مملكة واسعة الحدود ولها نصيب فى صفحات التاريخ لاسيما إذا خلت من الحروب أو الانقلابات السياسية وتجردت من النهضات الأدبية كظهور نوابغ وعظماء فى العلم والشعر والأدب.

***

الفصل الرابع عشر

فلسطين فى القرن التاسع عشر

(٧٤) بونابرت فى فلسطين

ظلت فلسطين منذ فجر التاريخ والأرياح الآسيوية تقذف إليها أمواج القبائل المتلاطمة غير أن تلك الريح تبدلت وهب عليها من الغرب ريح عاصف فرماها بالاسكندر وبومى وغودفرى وقلب الأسد ونابليون بونابرت أكبر القواد وأشهر نوابغ الحرب الذى ترقى من ضابط بسيط إلى قائد "جنرال" وامبراطور عظيم فحارب ايطاليا والنمسا وروسيا وأسبانيا وزلزل عروش ملوكهم واستولى عَلَى كثير من بلادهم وممالكهم ولم يبق أمام دولة فرنسا إلا انكلترا التى ظلت تناصبها العداء وتحرك عليها الدول فأثارت غضب الفرنسيين وأخذوا يفكرون بالقضاء عليها فلمعت بارقة أمل إلى نابليون وخطر له أن ينشئ حكومة شرقية يزاحم بها انكلترا فكتم مافى نفسه وطلب لزملائه أن يجهزوا له جيشاً ليحتل بهِ مصر مجرى تنفس الانكليز ويسد عليهم طريق الهند ويجز ناصيتهم فجهزوا له جيشاً وأسطولاً واستصحب معه ١٢٢ رجلاً من الاخصائيين فى جميع العلوم لدرس القطر المصرى وتسلل خلسة وهبط مصر فأخذها ونظم إدارتها فاستشاط الأنكليز غضباً وشجعوا الدولة العثمانية على محاربة الفرنساويين واسترجاع مصر ووعدوهم بالمناصرة فأمر العثمانيون الجزار والى عكا بأن يتقدم إلى مصر فذهب وامتلك العريش فاغتاظ نابليون

من ذلك وجعل يعد حملة ليفتح بها فلسطين وسورية وينقض عَلَى الهند فاسترفق بعضاً من علماء الدين الاسلامى ليستعين بمركزهم الدينى عَلَى تنفيذ مآربه السياسية وفى سنة ١٧٩٩م سار الجنرال كليبر Kleber إلى فلسطين فقابل قائد جيوش الجزار قاسم بك خارج العريش وحاربهُ وشتت جمعه وأخذ ذخائره ولحقهُ نابليون باثنى عشر الف مقاتل فاحتل العريش وأمَّن أهلها ثم سار إلى غزة[١] مفتاح فلسطين الجنوبى فتسلمها بلا حرب وأتى بعد ذلك إلى الرملة[٢] فأرسل فرقة من جيشهِ لمهاجمة يافا الغاصة بجنود الجزار المؤلفين من عرب وأتراك ومغاربة وأرنؤُوط وأكراد وجركس فحاصروا المدينة مدة ثم فتحوها فانسحبت الحامية إلى بعض الخانات وأبوا التسليم قبل أن يؤّمنهم عَلَى حياتهم فأجابهم إلى طلبهم القائد الافرنسى فاستأْمن له أربعة آلاف شخص فساقهم إلى المعسكر ولما رآهم نابليون سأل قائده عن هذه الجموع المحتشدة فأخبره أنها حامية المدينة التى سلمت إليه أماناً وقبلهم حقناً للدماء فبهت وحار فى أمره وقال ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد؟ أعندكم زاد يكفيهم الكم مراكب تنقلهم لمصر أو فرنسا؟ ومن يتول خفارتهم إذا أرسلناهم؟ يجب أن تعطوا الأمان إلى الأطفال والنساء والشيوخ لا للرجال الأشداء المقاتلين ثم استشار ضباطه فى قتلهم فخالفوه ولكنهُ أصر عَلَى رأيهِ وأمر بهم فقتلوا رمياً بالرصاص فى ١٠ آذار سنة ١٧٩٩م.

---

(١) ومكث مدة فى بناية آل رضوان "مأوى الدرك" اليوم.

(٢) كان مركز أركان حربه دير اللاتين وقد دخلنا غرفته فوجدناها بسيطة.

وأمر بقتل مرضى جنده وجرحاهم ولم يوار سوآتهم ولعمرى أن هذا لمن أفظع الفظائع التى تنسينا همجية الأشوريين وقساوتهم مع أسراهم وتذكرنا ببربرية جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك واتيلا الذين كتبوا تاريخهم بمداد أحمر وسطروا صفحات أيامهم بأسوأ الذكرى وأوحشها ومهما اعتذر عنهُ التاريخ وسرد له حججاً قاطعة تبيح له قتِلهم ليتخلص من مؤُونتهم أو لأنهُ أسر بعضهم فى غزة والعريش وأطلقهم بشرط أن لايحاربون ثانية فان كل هذه الأعذار لا تبرر عمله.

١- لأنهُ عاش فى القرن التاسع عشر عصر المدنية كما يقال لا فى أيام الهمجية.

٢- ولأنهُ جاءَ من فرنسا مهد المدنية وأم الحرية ذات العواطف البشرية الرقيقة.

٣- ولأنهُ ظهر فى الثورة الفرنسية وكان غصناً من دوحة دعاتها الذين كان شعارهم الحرية والمساواة والعدالة والأخوة.

ولكن ليس من السهل أن نقسو فى الحكم عَلَى نابليون فقط فأنا لو وضعنا فى مركزه لودندورف وجوفر وفوش واللنبى ولم يجدوا من يسوق الأسرى إلى مصر ولم يكن لديهم طعام يكفيهم لجوَّزوا لانفسهم قتلهم واعدامهم وما قتل ٤٠٠٠ شخص فى حكم الطبيعة إلا كجمل دب عَلَى سرب نمل فداسهُ وحطمهُ وأباده.

(٧٥) نابليون والقدس:

عجب رجال الدين من نابليون كيف أهمل القدس ولم يبال بها مع أنها البلد التى يجلها المسلمون والمسيحيون وغاب عنهم أن نابليون ما كان ينظر إليها إلا من الوجهة العسكرية ولذلك لم يجوز لنفسهِ أن يركب بجيشهِ الأهوال قبل أن يمهد السبل ويقضى عَلَى الجزار عدوه العنيد فطلب من حامية القدس تسليمها فأجابته بأن مدينة القدس تابعة لعكا فمتى فتحتها تسلم إليك فتركهم وشأنهم وانصرف لحصار عكا عاصمة فلسطين وحصنها المنيع وبعث بمنشور إلى أهلها مصر نرويه بالحرف الواحد كما ذكره زيدان ونلفت أنظار القارئ إلى أسلوب بونابرت الذى اتخذه لارضاء المصريين والمسلمين وهيهات أن ينجح ساسة الغرب بتملقهم بعد أن أدرك الشرقيون نياتهم ومقاصدهم.

(٧٦) منشور نابليون(*)

بسم الله الرحمن الرحيم سبحان مالك الملك يفعل فى ملكه ما يريد هذه صورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساويين لبندر يافا من الأقطار الشامية.

نعرّف أهل مصر وأقاليمها أن العساكر الفرنساوية انتقلوا من غزة ثالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة فى ٢٥ منه فى أمن واطمئنان وشاهدوا عسكر أحمد باشا الجزار هاربين بسرعة قائلين الفرار

(*) تاريخ مصر الحديث.

ووجدوا فى الرملة ومدينة اللد مقداراً كبيراً مـن مخـازن البقسـماط "الكعك" والشعير ووجدوا أيضاً ١٥٠٠ قربة مجهزة جهزها الجزار ليسـير بهـا إلى اقليـم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومراده التوجه اليها مع العربان الأشـرار مـن سفح الجبل ولكن تقادير ا لله تفسد المكر والحيل وما كان قصده سـوى سـفك الدماء مثل عادته فى أهل الشام وناهيكم ما هو مشهور عنهُ من التجبر والظلم والجور فإنهُ تربية المماليك الظلمة المصريين وفاتهُ أن الأمر لله وكل شئ بقضائه وتدبيره.

وفي السادس والعشرين حلت طلائع الفرنسيين بنـدر يافـا مـن الأراضى الشامية وأحاطوا بها وحصروها من الجهة الشرقية والغربيـة وأرسـلوا إلى حاكمها وكيـل الجـزار أن يسـلمهم القلعـة قبـل أن يحل بهـم وبعسـكرهم الدمار لكنه لخشونة عقله وفساد رأيه وسوء تدبيره لم يرد. وفي ذلك اليوم أى ٢٦ من شهر رمضان تكامل العسكر الفرنسـاوى عَلَـى محـاصرة يافـا وانقسـم ثلاث فرق توجهت فرقة منهن عَلَى طريق عكا عَلَى مسافة اربـع سـاعات مـن يافا وفى سبعة وعشرين منه أمر حضرة سارى عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لعمل متاريس متينة واستحكامات حصينة إذ عرف أن سور يافـا مـلآن بالمدافع الكثيرة ومشحون بعساكر الجزار الوفيرة.

وفى ٢٩ منهُ نـاهز حفـر الخنـادق النهايـة وصـار علـى مسـافة ١٥٠ خطوة من السـور فأمر سارى عسكر أن تنصـب المدافـع عَلَـى المتـاريس وأن توضع أهوان القنابر بأحكام وأمر بنصب مدافع أخرى بجـانب البحـر لمنـع

الصلة بين عسكر البر والمراكب التى أعدها عسكر الجزار فى المينا للهزيمة والفرار ولما رأى عسكر الجزار المحاصرون فى القلعة أن عديد الفرنساويين قليل أغراهم الطمع فخرجوا إليه من القلعة مسرعين ظناً منهم أنهم يتغلبون على الفرنساويين فهجم عليهم الفرنسيين وقتلوا منهم كثيرين وأجبروهم عَلَى الدخول إلى القلعة ثانية وفى يوم الخميس غاية شهر رمضان اشفق حضرة سارى عسكر وخاف عَلَى أهل يافا إذا دخلت عساكره بالقهر والقوة فأرسل إليهم مع رسول خطاباً هذا مضمونه.

"لا إله إلا ا لله وحده لا شريك له بسم ا لله الرحمن الرحيم

من حضرة سارى عسكر برتبة كتخدا العسكر الفرنساوى إلى حضرة حاكم يافا نخبركم أن حضرة سارى عسكر الكبير بونابرته أمرنا أن نعرفكم فى هذا الكتاب أن سبب مجيئه إلى هذا الطرف هو إخراج عسكر الجزار فقط من هذا البلد لأنهُ تعدى بارسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها والحال أنها اقليم مصر التى أنعم ا لله بها علينا فلا تجوز له الإقامة بالعريش لأنها ليست من أرضه فقد تعدى على ملك غيره.

ونعرفكم يا أهل يافا أننا حصرنا بلدكم من جميع أطرافه وجهاته وضيقنا عليه بآلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقنابر وفى برهة ساعتين يخرب سوركم وتبطل آلات حربكم ونخبركم أن حضرة سارى عسكر لمزيد رحمته وحنوّه خاف عليكم من سطوة عساكره المحاربين فانهم إذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر أهلكوكم جميعاً ولذلك أمرنا أن نرسل

اليكم هذا الخطاب تأميناً لأهل البلد ولا سيما الضعفاء والفقراء والغرباء وأن نؤَخر ضرب المدافع واطلاق القنابر ساعة واحدة وأنى لكم لمن الناصحين وهذا آخر خطاب بيننا".

فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة المحمدية والقوانين الحربية فتميز سارى عسكر من الغيظ وهاج وأشتد غضبه وأمر باطلاق المدافع والقنابر ولم يمض إلا اليسير حتى خرست مدافع يافا وانقلب عسكر الجزار فى وبال وخسران وعند الظهر انخرق سور المدينة وارتجع له القوم ونقب من الجهة التى ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء ا لله ولا مدافع وفى الحال أمر حضرة سارى عسكر بالهجوم وفى أقل من ساعة ملكت العساكر الفرنساوية البندر والأبراج ودار السيف فى المحاربين وحمى الوطيس وكثر القتل. وفى يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة سارى عسكر الكبير ورق قلبه لاسيما عَلَى من كان فى يافا من أهل مصر فأعطاهم الأمان وأمرهم بالعودة إلى الأوطان وكذلك أمر أهل دمشق وحلب بالرجوع إلى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمته ومزيد رأفته وقتل فى هذه الوقعة أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزار بالسيف أما الفرنساويين فلم يقتل منهم إلا القليل وسبب ذلك أن سلوكهم إلى القلعة كان فى طريق أمينة خافية عن العيون وأخذوا ذخائر كثيرة وأموالاً غزيرة واستولوا عَلَى المراكب التى فى الميناء ووجدوا فى القلعة نيفاً وثمانين مركباً وقد فات الجزار وعساكره أن آلات الحرب لاتدفع مقاديرَ ا لله فاستقيموا عباد ا لله وارضوا بقضاء ا لله ولا تعترضوا على أحكام ا لله وعليكم بتقوى ا لله وأعلموا أن الملك لله يؤتيه

من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله .

وبعد أن أتم بونابرت أعماله وخططه الحربية سار إلى عكا فوصلها فى ٢١ آذار وحصرها خمسين يوماً وكان الجزار يتعهد الدفاع البرى والأميرال الانكليزى سدنى سميث يتولى الدفاع البحرى فلم يستفد الفرنساويون شيئاً لأن الجنود العثمانية كانت تفد بكثرة عَلَى الجزار حتى غصت بهم عكا واستماتوا فى الدفاع بعد أن سمعوا ما فعله الفرنساويون بحامية يافا فخاب أمل نابليون وجرب أن يستميل إليه الأمير بشير الشهابى أو يؤلف جيشاً من الدروز فلم يظفر بموالاة أحد لأنهم كانوا يخافون بطش الجزار وشدته.

وفى أثناء حصار عكا أرسل نابليون فرقاً إلى الناصرة وصفد وامتلكها وحدثت معركة بين الفرنسيين وجنود الأتراك حول جبل طابور "الطور" فشهد نابليون المعركة بنفسه مع كليبر وهزم العثمانيين هزيمة منكرة.

ذكر المطران الدبس أنهُ أتى قوم من المتاولة إلى نابليون فولاهم قسماً من هذه البلاد وولى الشيخ صالح بن ظاهر العمر مدينة صفد ولكن ثبات الجزار وعناده وشجاعته الفائقة غرست الخيبة فى نفس نابليون فقذف آخر سهم من كنانته وجمع جنوده وخطب فيهم خارج أسوار عكا كما خطب فيهم تحت ظل الأهرام وعلى ثلوج جبال الألب فقال:

"هذه المدينة هى مفتاح الشرق فاعلموا حرج مركزكم ووطدوا عزائمكم عَلَى امتلاكها لأن بامتلاكها تسلمون لدولتكم مفتاح الشرق فندخل

القسطنطينية عاصمة قياصرة الروم ونملك شرقى أوربا وشماليها فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم" فألهب حماستهم ونشاطهم وهجموا مستميتين فاقتحموا الخنادق وثغروا الأسوار وهزموا الحامية ودخلوا البلدة حتى بلغوا سبيل الجامع الكبير وانتزعوا طاسة من طاساته وهى (موجودة فى متحف باريس) فظهر الجزار بنفسهِ وأخذ يحرض جنوده عَلِى الثبات وكان يفتك بكل من يعمد إلى الفرار فاستبسلوا وكافحوا نابليون وجنده وردوهم خائبين بعد ما لمع لهم النجاح وكادوا يظفرون بأمنيتهم. وفى ٢٣ آيار سنة ١٧٩٩ فك نابليون الحصار عن عكا وقفل راجعاً إلى مصر بعد أن اعتذر إلى جيشه بأنه قهر العدو عند جبل طابور وشتت شمل الأتراك وأخذ كل مدافعهم ومؤونتهم ولا يرى من ضرورة لاطالة البقاء فى سورية فعاد خائباً مخذولاً وقد فتك الأمراض والطاعون بعسكره المغلوب وطفق العربان وبعض الأهالى يتخطفونهم ويطاردونهم ويقلقون وقد أظهر نابليون من الشفقة والعطف ما جعلنا نذكر له تلك الشيمة السامية فأنهُ أركب بعض جنوده حصانُه الخاص ومشى عَلَى قدميه. وقد وصل مصر ولم يمكث به طويلاً وبرحها إلى فرنسا وترك القائد كليبر وكيلاً عنه فظلت الجنود الفرنسية تكر وتفر حتى أوائل سنة ١٨٠١م وجلت عن البلاد.

(٧٧) ثور نابلس

كانت مناطق فلسطين الإدارية منذ إبتداء القرن التاسع عشر كما يأتى:

القدس وملحقاتها تابعة لايالة عكا، ونابلس وبلادها ملحقة بالشام فاتفق أن فرض والى الشام ضريبة جسيمة عَلَى أهل نابلس فرفضوا دفعها بجرأَة وقوة فلم يأْبه الوالى لهم بل شرع فى تحصيل الأموال غصباً فثار أهالى جبل نابلس سنة ١٨٢٩هـ وقاموا سلطة الوالى وامتنعوا عن دفع الأموال فطلبت الدولة إلى والى عكا عبد الله باشا أن يمدّ واليها فصدع بالأمر ولقى النابلسيين شمالى فلسطين مستعدين وقد تحصنوا فى قلعة صفد فحاربهم عبد الله باشا وعجز عن اخضاعهم فاستنجد بالأمير بشير الشهابى اللبنانى فأتى برجاله وانضم إليه وحاربوا النابلسيين وردوهم عَلَى أعقابهم فاعتصموا بقلعة صانور الواقعة بين جنين ونابلس وحاصرهم عبد الله باشا وضيق عليهم فكانت النساء تغمر اللحف بالزيت وتشعلها وتقذف بها ليلاً خارج السور كى يبصر رجالهن العدو ويرمونُه بالرصاص .

وفى أثناء ذلك هجمت طائفة من عرب الصقر على عسكر عبد الله باشا لتمنعهم الاستقاء فطاردهم الأمير بشير وهزمهم إلى قرية عجة شمالى صانور وأحرق كثيراً من القرى وأخيراً ضعف المحصورون وذاقوا من العناء والتعب ما زهدهم فى القتال فسلموا . وليس من المعقول أن شرذمة قليلة غير منتظمة ولا مدربة تقدر أن تعصى وتقاوم ولاية عكا التى كانت تمدها وتساعدها الدولة العلية بكل قوتها ولا غرو فان قسماً كبيراً من أهالى البلاد انضم إلى عبد الله باشا وحارب رؤساء الثورة أسرة جرّار الذين لم يكن معهم سوى حزبهم وحسب. ولم يرح عبد باشا البلدة حتى خرب القلعة وقسماً كبيراً من السور ليأمن ويطمئن أنه إذا حدثت ثورة أخرى لايجد الثوار حصناً

القسطنطينية عاصمة قياصرة الروم ونملك شرقى أوربا وشماليها فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم" فألهب حماستهم ونشاطهم وهجموا مستميتين فاقتحموا الخنادق وثغروا الأسوار وهزموا الحامية ودخلوا البلدة حتى بلغوا سبيل الجامع الكبير وانتزعوا طاسة من طاساته وهى (موجودة فى متحف باريس) فظهر الجزار بنفسهِ وأخذ يحرض جنوده عَلَى الثبات وكان يفتك بكل من يعمد إلى الفرار فاستبسلوا وكافحوا نابليون وجنده وردوهم خائبين بعد ما لمع لهم النجاح وكادوا يظفرون بأمنيتهم. وفى ٢٣ آيار سنة ١٧٩٩ فك نابليون الحصار عن عكا وقفل راجعاً إلى مصر بعد أن اعتذر إلى جيشه بأنه قهر العدو عند جبل طابور وشتت شمل الأتراك وأخذ كل مدافعهم ومؤونتهم ولا يرى من ضرورة لاطالة البقاء فى سورية فعاد خائباً مخذولاً وقد فتك الأمراض والطاعون بعسكره المغلوب وطفق العربان وبعض الأهالى يتخطفونهم ويطاردونهم ويقلقون وقد أظهر نابليون من الشفقة والعطف ما جعلنا نذكر له تلك الشيمة السامية فأنهُ أركب بعض جنوده حصانُه الخاص ومشى عَلَى قدميه. وقد وصل مصر ولم يمكث به طويلاً وبرحها إلى فرنسا وترك القائد كليبر وكيلاً عنه فظلت الجنود الفرنسية تكر وتفر حتى أوائل سنة ١٨٠١م وجلت عن البلاد.

(٧٧) ثور نابلس

كانت مناطق فلسطين الإدارية منذ إبتداء القرن التاسع عشر كما يأتى:

القدس وملحقاتها تابعة لايالة عكا، ونابلس وبلادها ملحقة بالشام فاتفق أن فرض والى الشام ضريبة جسيمة عَلَى أهل نابلس فرفضوا دفعها بجرأة وقوة فلم يأبه الوالى لهم بل شرع فى تحصيل الأموال غصباً فثار أهالى جبل نابلس سنة ١٨٢٩هـ وقاموا سلطة الوالى وامتنعوا عن دفع الأموال فطلبت الدولة إلى والى عكا عبد الله باشا أن يمدّ واليها فصدع بالأمر ولقى النابلسيين شمالى فلسطين مستعدين وقد تحصنوا فى قلعة صفد فحاربهم عبد الله باشا وعجز عن اخضاعهم فاستنجد بالأمير بشير الشهابى اللبنانى فأتى برجاله وانضم إليه وحاربوا النابلسيين وردوهم عَلَى أعقابهم فاعتصموا بقلعة صانور الواقعة بين جنين ونابلس وحاصرهم عبد الله باشا وضيق عليهم فكانت النساء تغمر اللحف بالزيت وتشعلها وتقذف بها ليلاً خارج السور كي يبصر رجالهن العدو ويرمونُه بالرصاص .

وفى أثناء ذلك هجمت طائفة من عرب الصقر على عسكر عبد الله باشا لتمنعهم الاستقاء فطاردهم الأمير بشير وهزمهم إلى قرية عجة شمالى صانور وأحرق كثيراً من القرى وأخيراً ضعف المحصورون وذاقوا من العناء والتعب ما زهدهم فى القتال فسلموا . وليس من المعقول أن شرذمة قليلة غير منتظمة ولا مدربة تقدر أن تعصى وتقاوم ولاية عكا التى كانت تمدها وتساعدها الدولة العلية بكل قوتها ولا غرو فان قسماً كبيراً من أهالى البلاد انضم إلى عبد الله باشا وحارب رؤساء الثورة أسرة جرّار الذين لم يكن معهم سوى حزبهم وحسب. ولم يرح عبد باشا البلدة حتى خرب القلعة وقسماً كبيراً من السور ليأمن ويطمئن أنه إذا حدثت ثورة أخرى لايجد الثوار حصناً

واتفقوا عَلَى محاربته ومقارعته فنكث جماعة منهم مالوا مع ابراهيم باشا فساعدوه ودلوه عَلَى الطريق والمياه فعاجل المخالفين قبل أن ينظموا حركتهم وفتح طول كرم ثم نابلس وعطف عَلَى القدس فاحتلها وقد تهافت الأهالى على قتاله من كل جانب فهاجمهم وكسر جمهور القبائل الشمالية عند شعفاط ولكن أهالى الخليل هزموه عندبركِ سليمان وحصروه فى القدس فاستعاد نشاطه وقارعهم ثانية فظفر بهم ودوخ البلاد وقتل من قتل وشنق من شنق وتزلف اليه البعض وهابه السكان فأصبحوا خاضعين لدولته وأوامره يقدمون الجنود ويدفعون الضرائب بلا ممانعة فبنى قشلاق باب الخليل واتخذ القدس له عاصمة ومكث يحكم فى البلاد ١٠ سنوات وفى سنة ١٨٤٠م سنة ١٢٥٦هـ خذلتهُ فرنسا وضغطت عليه دول التحالف فاضطرتهُ للتخلى عن جميع فتوحاته وسمحت له بمصر ولاية ممتازة يتعاقب عليها نسله من بعده بشرط أن تظل خاضعة للاستانة فقبل مكرهاً وتقدم أحفاده إلى أن صاروا ملوكاً.

(٨٠) حرب القرم

طارت شرارة من فلسطين فأذكت حرباً ضروساً بين الدول الكبرى وسلمت هى منها كقنبلة انبعثت من فوهة مدفع فلم تضره وانفجرت فى شرق أوروبا وقفقاسية فخربتهما. وأسباب هذه الحرب كثيرة منها التنافس المستمر بين قسس الأرثوذكس واللاتين وتسابقهم إلى حيازة الأماكن المقدسة فى فلسطين ومن خلفهم روسيا تؤيد الأرثوذكس وفرنسا تعضد اللاتين لا لشفقة انسانية أو عاطفة دينية ولكن لبسط نفوذهما فى الشرق وللتدخل فى

شئون الدولة العثمانية فرجحت كفة فرنسا سنة ١٧٤٠م وفازت بعقد معاهدة مع الدولة العثمانية نصت عَلَى أن لفرنسا الحق بحماية مسيحيي الشرق فاشتد أزر الكاثوليك واستولوا عَلَى الكنائس وتصرفوا بها تصرف الممالك المستقل فاستاء الأرثوذكس وغضبت حاميتهم روسيا وأخذت تسعى بنشاط لالغاء هذه المعاهدة ومحق هذا النفوذ . فلما شغلت فرنسا بحروب الثورة الأهلية دفعت روسيا قسس الأرثوذكس وكهنتهم إلى التحرش بالكاثوليك فتعدوا عَلَى حقوقهم وسلبوهم إياها فامتعضت فرنسا وصبرت كارهة إلى أن تعين نابليون الثالث وفاوض الدولةالعثمانية وكاشفها برد حقوق أهل ملته المغصوبة فألف الباب العالى لجنة من أشخاص مختلفى المذهب وأناط بهم فصل هذا الخلاف بمقتضى المعاهدات الدولية القديمة فاجتمع الأعضاء وتذاكروا مرات ثم قرروا فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٦٨هـ و ٤ شباط سنة ١٨٥٢م أن للكاثوليك الحق فى امتلاك بعض الأماكن المقدسة دون غيرهم فعارضت روسيا وحالت دون انفاذ هذه الاتفاقية وهددت الباب العالى بالحرب إذا هو لم يعدل عن رأيه. وأصرت فرنسا على التمسك بحقوقها فترددت الدولة حيناً ثم جزمت ونفذت مضمون قرار اللجنة الأخيرة. فاتخذت روسيا هذا العمل ذريعة لتطبيق وصية بطرس الأكبر "الاستيلاء على أستانبول والمضايف" وأرسلت البرنس منشيكوف سفيراً غير اعتيادى إلى الأستانة ليخابر المابين فى شأن الأماكن المقدسة فذهب وباشر مناوراته السياسية وطلب بالحاح شديد احترام معاهدة خونكار القاضية بأن يكون لروسيا الحق بحماية جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية فماطله الباب العالى ثم خاشنه فقطع علاقته من حكومة الاستانة

وهددها باحتلال امارتى الافلاق والبغدان "رومانيا" فتوترت السياسة وتحزبت انكلترا لفرنسا وعضدتا الدولة العثمانية فأعلنت روسيا الحرب واجتاز عساكرها نهر البروث واحتلت الولايتين فعلاً فحشدت الدولة العثمانية جنودها وجمعت جمعاً كبيراً من البلاد العربية(*) وبعثت بهم إلى حدود روسيا واشترك معهم جنود الانكليز والفرنسيين واحتدم القتال فنال الفريقان ماينال المحارب ولكن روسيا خذلت وتركت حصونها ومعاقلها.

وفى سنة ١٣٢٤هـ وسنة ١٩٠٦م اختلفت الحكومة العثمانية والدولة الانكليزية عَلَى تعين حدود مصر وفلسطين ثم اتفقتا عَلَى أن يختار كل منهما لجنة تنوب عنها فى فض الخلاف فاجتمع الأعضاء وخططوا الأرض وضبطوا الحدود وأصلحوا ذات البين.

(٨١) نقود وموازين ومكاييل فلسطين

ماعرفنا حكومة كانت معرضاً تجارياً لسلع وبضائع دول أوروبا مثل البلاد العثمانيةفانها كانت مقيدة بسلاسل الامتيازات الأجنبية مغلولة بأغلاف المذاهب الدينية حتى لعبت بها الأهواء وطوحتها المنازع وقذفت بها من عل إلى درك الاستعمار. ومن الدلائل الواضحة عَلَى فوضى الحكومة العثمانية واستعمار أوروبا الاقتصادى لها أنها كانت عاجزة عن نشر نقودها فى مملكتها

(*) كان أهل المدينة أو القرية يذهبون بعيداً وراء الجنود المجندة فيودعونهم بالبكاء والنحيب وحينما يعودون من غيبتهم يعملون لهم الأفراح والولائم والمهرجانات.

ضعيفة عن توحيدها وترويجها بسعرها الفانونى فلذا أخذ يتداولها كل بلد كما يريد وتفاوتت الأسعار وتعددت النقود وتباينت الموازين واختلفت المكاييل وهذا جدول يدلنا عَلَى أسعار النقدين الليرة الأفرنسية والريال المجيدى "التركى" فى أسواق فلسطين.

المدينة	الليرة الأفرنسية	الريال العثمانى "المجيدى"	البشلك
القدس	١٠٩	٢٣	٣
نابلس	١١٨	٢٥	٣،١٣
يافا	١٢٤	٢٦	٣
غزة	٢٢٢	٤٧	٦
لواء عكا	١٠٨	٢٣،١٢	٣،١٦
الناصرة	١٣٠	٢٧	٣

وزد على ذلك أنهُ كان فى بعض القرى أسعار خصوصية للنقود غير داخلة فى ما ذكرناه مما يدل عَلَى أن الحكومة فى واد والناس فى آخر لا يأتمرون بأمرها ولايسيرون سيرها حتى أن الليرة الأفرنسية راجت أكثر من الليرة العثمانية فكان إذا باع أحد دابته أو ساوم على سلعته بليرات انصرف الذهن إلى الليرات الأفرنسية ومن أراد غيرها لزم عليه التعيين وحسبنا شاهداً المتليك الأسود وما أحدثه من الشعب فى القدس فإن بعض التجار امتنع عن قبضهِ فسرى ذلك إلى الجميع ورفضوا استعماله والتداول به فنقصت ٧٠ فى

المائة فأدركت الحكومة هذا الخطر الاقتصادى وخشيت تفشيه فى البلاد الأخرى فتلافتهُ. وضرب اليهود لهم نقداً "تنكة ببارتين ونصف" فراجت بين أهالى القدس وشاعت بين الجميع.

أما المكاييل فليست بأحسن من النقود فانها مختلفة الحجم متعددة النوع وهى: ثمنية، سدسية، ربعية، صِاع، طبة، كيل، كيلة، مد، مسحة فبعض البلاد تستعمل بعض هذه الأنواع وبعضها لايعرفها وقد اتخذت عيارات أخرى والبلاد التى تشترك فى مكيال واحد تختلف فى كبره وصغره فطبة نابلس ثلاثة عشر رطلاً وثلث رطل وطبة القدس ثمانية أرطال وصاع بنى صعب ثلاثة أرطال وصاع بنى زيد ستة ونصف ثم لكل بلاد إصطلاحات واعتبارات أخرى من حيث الكيل فبعضها يهز الصاع ويلبدها ويتفننون فى سمله وطنطرته وبعضها يستعمل كيل المرسل(*) وكذلك الموازين فأنها متباينة جد التباين فالرطل المشهور فى أكثر المدن ١٢ أوقية ولكنهُ فى عكا وبلادها أقتان فقط وامتاز بعض البلدان بأرطال خصوصية لبعض أنواع المبيعات فرطل الدخان ١٦ أوقية والعسل ١٨ واللحم ١٦ أو ١٨ أو ٢١ والقطين ١٨ أو ٢١ وغير ذلك وجرة الزيت متفاوتة أيضاً فهى فى نابلس غيرها فى القدس وفى يافا غيرها فى حيفا وعكا وللقرى عيارات خاصة فجرة الزيت تتراوح بين سبعة أرطال إلى تسعة و ١٠ و ١١ و ١٦ و ١٨ وهلم جرا فالمسافر الذى يطوف فلسطين يفتقر إلى درس طويل واختبار كبير لمعرفة النقد وأسعاره وفهم

(*) بلا هز ولبد بل كما يسع الصاع.

الموزونات والمكيلات فكيف به إذا ساح فى جميع الأقطار العثمانية.

(٨٢) بعض أسواق فلسطين

كان للعرب منذ جاهليتهم أسواق ينتجعونها ويرتادونها فيستبضعون منها مايحتاجون ويعرضون ما كانوا مستغنين عنهُ وهناك كانوا يتطارحون الأشعار ويتناشدونها فإذا ما انقضى زمن الموسم انصرف بعضهم إلى البوادى والمنازل واستأنف البعض الآخر السير حيث المواسم الأخرى وقد أخذ سكان فلسطين أسواقهم عن تلك المواسم الكبيرة وقصروها عَلَى عرض المبيع فقط "أسواق تجارية" فترى الأقوام يتوافدون إليها من الصباح زرافات إلى أن تغص بالجماهير الطالبة والعارضة فيجول الشارى ويتردد بين البائعين وينتقى منهم مايعجبه ويروق له فيسومه ويشتريه ثم ينصرفون قبيل العصر واشهر هذه الأسواق: سوق اللد وتقام يوم الاثنين من كل أسبوع، أسواق الناصرة الرملة وبئر السبع وتقام يوم الأربعاء وسوق بنى صعب وتقام يوم السبت، أما أسواق القدس وغزة ومجدل وعسقلان ويافا والخليل ونابلس فكلها تقام يوم الجمعة من كل أسبوع فلو اعتنت الحكومة بهذه الأسواق الطبيعية ووسعتها ونشطتها وحولتها إلى معارض تجارية وأدبية لاستفادت منها كثيراً.

(٨٣) أقسام فلسطين الادارية

مر بفلسطين أطوار شتى كانت تنفرد بنفسها أو تقتسمها مصر أو سورية ثم لا تلبث أن تنضوى تحت جناح أحدهما أو تنضم سورية ومصر إلى العراق وتصير جميعها كتلة واحدة وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم أما فى القرن

التاسع عشر فقد انتاش فلسطين تقلبات ادارية كثيرة نلخصها كما يأتي:

كانت عكا حاضرة فلسطين الادارية الوحيدة ثم اقتطعت صيدا قسماً منها وبعد حين أخذت الشام نابلس وبلادها وظلت البقية تابعة لعكا ثم التحقت جميعها بالشام مركز الحاكم العام "باشا الدورة" أما النظار والمتسلمون "حكام البلاد" فكانوا وطنيين من فلسطين يحكمون مقاطعاتهم ويجبون الضرائب ويجمعون الجنود ويطوف عليهم "باشا الدورة" فيأخذ منهم ما تعهدوا به. فلما اعتزم السلطان محمود عَلَى الاصلاح الغى فرق الانكشارية(*) وأبادها ومحا الطوائف الأخرى كالسلاحدارية والعلوفجية واستبدل بها فرقاً منظمة وغير العمامة بالطربوش الرومى وتزيى بالزى الأوروبى وأمر باتخاذه زياً رسمياً وعسكرياً. ثم جاء من بعده من الملوك فأدركوا أنهم غرباء فى البلاد العربية وتهجموا عَلَى فلسطين فنفوا بعض النظار "أمراء الأقطاع" إلى طرابزون وحولوا النظارات والمتسلميات إلى مديريات عَلَى رأسها وطنيون ثم ألغيت المديريات وتجرد المشايخ من الوظائف المحلية الاقطاعية واستولى الأتراك عَلَى البلاد فعلاً فأمروا بتخرير النفوس وطوّبوا الأرضين ونظموا إدارة الأمن العام "البوليس والجندرمة" وأسسوا العدلية فكانت محاكم فلسطين تستأنف الحكم إلى عدلية الشام ثم تحولت إلى عملية بيروت وأمتازت القدس فصارت متصرفية مستقلة تخابر الأستانة مباشرة فى الأمور الإدارية وفى إبتداء القرن العشرين تأسس فيها محكمة استئناف فانضم إليها لواء نابلس وظل لواء عكا

(*) له بقية فى فلسطين عائلة أبى جعفر فى الرملة ويوجد عائلات أخرى فى القدس ونابلس وعكا وغيرها.

ملحقاً ببيروت.

ومن ثم حكم العثمانيون البلاد بلا واسطة فأرسلوا مـأموريهم الأتـراك وقبضوا دفة الإدارة واتصلـوا بالشـعب ولكنهـم تقربـوا مـن أصحـاب النفـوذ وراعوا امتيازاتهم القديمة لاستمالتهم فتمـادوا فـى غطرسـتهم واسـتعانوا بقـوة الحكومة وأتخذوها آلة لتنفيذ مآربهم فتسابقوا إلى تقديم الطاعة وترويج أوامـر الحكومة ابتغاء الحزوة عند المأمورين وكان يعد سعيداً من كسب ثقتهـم وظفـر بودهم لأنه يسـتفيد مـن صحبتهـم بغـض أبصـارهم عـن أعمالـه مهمـا كـانت فيبطش ويستبد بالضعاف والفقراء ويغتصب أملاكهـم ويمتـص دمـاءهم ويبـتز أموالهم ويعلو علواً كبيراً.

(٨٤) قيس ويمن وشيء عن الاقطاع

هذا بحث جليل وددنا لو أن فى الكتاب متسعاً فنفيه حقـه ونـأتى علـى تاريخه بالتفصيل ولكـن صـدر الطـرس ضيـق والموضـوع محصـور فـى فلسـطين فلذلك نجمل ما خـرج عنهـا وندمجـه فـى أخبارهـا لئـلاً ينبـتر البحـث وتضيـع الفائدة.

إن هذا الانقسام ظهر بين العـرب قبـل الإسـلام وظـل إلى يومنـا هـذا مصطبغاً بصبغات عديدة وأسماء مترادفعة منها: العدنانية والقحطانية والحجازيـة واليمنية فـى الجزيـرة. والقيسـية واليمانيـة فـى جميـع الممـالك الإسـلامية خـلاً الأناضول وغربها. اليزبكية والجنبلاطية فى لبنان والفقارية والقاسمية فى مصر.

أما أسباب هذا الانقسام فإن أهـل اليمـن كـانوا يدعـون أنهـم أشـرف

عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسى واليمنى.

أما بلاد الخليل فأكثر سكانها قيسية وأمراؤهم دارو عمر مركزهم فى دورة وعائلة العزى فى بيت جبرين وأما دار اللحام فانهم يمنيون. وأمراء اليمنية فى مقاطعة القدس هم دار أبو غوش فى بنى مالك ومركزهم قرية العنب ودار على شيخه فى بنى حِسن ومركزهم المالحة ودار عريقات فى الوادية ومركزهم أبو ديس والقرعان فى البيرة والزيادنة "دار الخطيب" فى بيت أكسا والدباونة فى دير دبوان والبيتونى فى بيتونية ودار عقل فى بنى حمار "حمير" ومركزهم نعلين أما أمراء القيسية فدار سمحان من بنى حارث ومركزهم راس كوكر والعويسات فى بنى عمير ووادى الصرار ومركزهم البرج والبراغثة فى بنى زيد وبنى مرة وبنى سالم ومركزهم دير غسانه ودار الطويل فى البيرة. ثم كان فى المقاطعات الأخرى أمراء ينضمون إلى هذه الأحزاب سياسة ففى ساحل يافا عرب الجرامنة ومقابلهم أبو كشك وفى بنى صعب الجبوسى ومركزهم كور ويقابله البرقاوى فى الشعراويات ومركزه شوفة أما قاسم وريان فكانا يقتسمان بلاد جماعين وجورة عمرة ومركز الأول بيت وزن ومركز الثانى مجلد يابا وفى مشاريق البيتاوى دار الحاج محمد ومركزهم بيت فوريك ويقابلهم بنو شمس فى بيتا أما غور الفارعة فكانت تقتسمه عرب المسعودى والفاعور وكان أمير نصف بلاد جنين "مشاريق الجرار" جرَّار وهو قيسى ومركزه صانور ومناظره الأمير الحارثى فى بلاد حارثة وقبره فى جنين فلما انقرضت ذريته خلفهُ دار طوقان ونازعوا جرار السيادة وبعد أن جاءَ ابراهيم باشا استعلى دار عبد الهادى "قيسية" وشطروا البلاد فانضم إليهم

جوب كبير وهم وجوار من فصيلة واحـدة. وكـان أمـراء غـور بيسـان عـرب الغزاوية والصقر وفى سـاحل حيفـا دار مـاضى وبجـانبهم أهـالى صبـارين ودار الشبلى فى طيرة حيفـا أمـا فـى بـلاد عكـا فكـانوا عـرب الحواسـى "الهنـادى" ومركزهم غابة شفا عمرو ولم يكـن لغيرهم هنـاك عصبيـات قويـة مجتمعـة ولا عائلات كبـيرة بـل كلمـا عظـم شـأن رجـل انسـاق إليـه حزبـه وسـيطر علـى ماجاوره.

هكذا كانت تقسم البلاد وهؤلاء هم زعماء الأحزاب فكان إذا شـجر خلاف داخلى فى منطقة واحدة انضم أبناء الحزب إلى بعضهـم بعضـاً وقـاوموا الحزب الآخر ومـن أحـس فـى نفسـهِ الضعـف استمد مـن الحـزب المجـاور لـه واستنصر بنى قومه عَلَى عـدوه وقـد تفـاقم الخطـب فـى القـرن التاسـع عشـر وتنازع الحزبان فما كان أحدهم يجرؤُ عَلَى المرور بـلاد الآخـر معلنـاً شـعار قومه. فكان إذا خطب اليمانية عروساً قيسية لايذهبون إلى جلبها إلا "بفـاردة" جمع كبير مسلح ولايجوز لهم أن يرفعوا أعلاماً بيضاء أو يلبسون العـروس حلـة (هدماً) بيضاء "شعرا اليمنيين" حتى أنهم أخذوا عروساً يمنية من بلاد يمانية فـلا يسمح لهم أن تجتاز البـلاد القيسية وهـى لابسـة البيـاض وأن امتنـع أصحـاب العرس عن ذلك يعلن الحرب ويستطير الشـر وكذلـك القيسـية فـانهم كـانوا مجبورين على اتباع هذا العرب ولا ينكرون عَلَى البلاد سيادتها وعاداتهـا فـإن من يرفع شعاره فى بلاد جاز له أن يتصرف بها.

وآخر حرب نشبت بين قيس ويمن الحرب التى وقعت فى قرية خربشـة.

عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسي واليمني.

أما بلاد الخليل فأكثر سكانها قيسية وأمراؤهم دارو عمر مركزهم فـي دورة وعائلة العزى فـي بيـت جبرين وأمـا دار اللحـام فـانهم يمنيـون. وأمـراء اليمنية في مقاطعة القدس هم دار أبـو غـوش فـي بنـي مـالك ومركزهـم قريـة العنب ودار علي شيخه فـي بنـي حِسـن ومركزهـم المالحـة ودار عريقـات فـي الوادية ومركزهم أبو ديس والقرعان فـي البـيرة والزيادنـة "دار الخطيـب" فـي بيت أكسا والدباونة في دير دبوان والبيتوني في بيتونية ودار عقل في بني حمار "حمير" ومركزهم نعلين أما أمراء القيسية فدار سمحان من بني حارث ومركزهم راس كوكـر والعويسـات فـي بنـي عمـير ووادى الصـرار ومركزهـم الـبرج والبراغثة في بني زيد وبني مرة وبني سالم ومركزهم دير غسـانه ودار الطويـل في البيرة. ثم كان في المقاطعات الأخـرى أمـراء ينضمـون إلى هـذه الأحـزاب سياسة ففي ساحل يافا عرب الجرامنة ومقـابلهم أبـو كشـك وفـي بنـي صعـب الجبوسي ومركزهم كور ويقابله البرقاوى في الشعراويات ومركـزه شـوفة أمـا قاسم وريان فكانا يقتسـمان بلاد جماعين وجورة عمرة ومركز الأول بيت وزن ومركز الثاني مجلد يابا وفي مشاريق البيتاوى دار الحاج محمد ومركزهـم بيـت فوريك ويقابلهم بنو شمس فـي بيتـا أمـا غـور الفارعـة فكـانت تقتسـمه عـرب المسعودى والفاعور وكان أمير نصف بلاد جنين "مشاريق الجـرار" جـرَّار وهـو قيسي ومركزه صانور ومناظره الأمير الحارثي في بلاد حارثة وقـبره فـي جنـين فلما انقرضت ذريته خلفهُ دار طوقان ونـازعوا جـرار السـيادة وبعـد أن جـاءَ ابراهيم باشا استعلى دار عبد الهـادى "قيسـية" وشـطروا البـلاد فـانضم إليهـم

جوب كبير وهم وجرار من فصيلة واحـدة. وكـان أمـراء غـور بيسـان عـرب الغزاوية والصقر وفى سـاحل حيفـا دار مـاضى وبجانبهم أهـالى صبـارين ودار الشبلى فى طيرة حيفـا أمـا فـى بـلاد عكـا فكـانوا عـرب الحواسـى "الهنـادى" ومركزهم غابة شفا عمرو ولم يكـن لغيرهم هنـاك عصبيـات قويـة مجتمعـة ولا عائلات كبـيرة بـل كلمـا عظـم شـأن رجـل انسـاق إليـه حزبـه وسـيطر علـى ماجاوره.

هكذا كانت تقسم البلاد وهؤلاء هم زعماء الأحزاب فكان إذا شـجر خلاف داخلى فى منطقة واحدة انضم أبناء الحزب إلى بعضهـم بعضـاً وقـاوموا الحزب الآخر ومـن أحـس فـى نفسـهِ الضعـف اسـتمد مـن الحـزب المجـاور لـه واستنصر بنى قومه عَلَى عـدوه وقـد تفـاقم الخطـب فـى القـرن التاسـع عشـر وتنازع الحزبان فما كان أحدهم يجـرؤُ عَلَـى المـرور ببـلاد الآخـر معلنـاً شـعار قومه. فكان إذا خطب اليمانية عروساً قيسية لايذهبون إلى جلبها إلا "بفـاردة" جمع كبير مسلح ولايجوز لهم أن يرفعوا أعلاماً بيضاء أو يلبسون العـروس حلـة (هدماً) بيضاء "شعرا اليمنيين" حتى أنهم أخذوا عروساً يمنية من بلاد يمانية فـلا يسمح لهم أن تجتاز البـلاد القيسـية وهـى لابسـة البيـاض وأن امتنـع أصحـاب العرس عن ذلك يعلن الحرب ويسـتطير الشـر وكذلـك القيسـية فـانهم كـانوا مجبورين على اتباع هذا العرب ولا ينكرون عَلَى البلاد سيادتها وعاداتهـا فـإن من يرفع شعاره فى بلاد جاز له أن يتصرف بها.

وآخر حرب نشبت بين قيس ويمن الحرب التى وقعت فى قرية خربشـة.

وقد أخذت هذه العادة فى الخفاء والانمحاء فلا يمضى عليها فترة من الدهر إلا وتنسى ولا يدرى الرجل أهو قيسى أم يمانى.

(٨٥) الحرية فى فلسطين

تكونت الدولة العثمانية بقوة السلاح وبنيت عَلَى الحروب وأغفلت كل شئ فتقدمهم من كان متأخراً عنهم وعلاهم من كان دونهم فحاول السلطان محمود الاصلاح فلم يتوفق تماماً ولكنهُ أزاح عن أعين المفكرين نقاباً وجاء من بعده السلطان عبد المجيد فنشر خط كلخانة سنة ١٢٥٥هـ وسنة ١٨٣٩م ونظم القوانين والمحاكم والإدارة الملكية وغير ذلك مما تتطلبهُ الحضارة ويلائم حالة الأمة إلا أن إرادة السلطان كانت فوق كل قانون فجاءَ مدْحت باشا بطل الحرية وأبو الدستور ورئيس أحرار العثمانيين وتعهد للسلطان عبد الحميد قبل أن يجلس عَلَى العرش أن يمهد له السبل ليكون سلطاناً بشرط أن يمنح الدستور للأمة ويمتع البلاد العثمانية بالحرية فوعده بتنفيذ ذلك ولما بويع عبد الحميد بالسلطنة أعلن الحرية ونشر القانون الأساسى وأمر بانتخاب نواب عن جميع البلاد فذهب عن القدس العلامة الكبير يوسف ضيا باشا الخالدى وفتح المجلس سنة ١٢٩٤هـ ولكن لم يطب لعبد الحميد هذا العمل وشعر أنهُ مقيد ففضه وأغلقهُ سنة ١٢٩٥م وشرط الأحرار وطردهم ونفاهم وبطش بالمتنورين وساس البلاد بالاستبداد والإرهاب فأكبر ذلك الشبيبة العثمانية الراقية وأبوا أن يخضعوا لسلطة رجل غشوم فعملوا سراً وعلناً وفازوا بأمنيتهم فأعلنوا الحرية مرة ثانية فى عهد هذا السلطان وضبطوا الأمور حذرين من

خداع المستبدين واستمالوا الجيش العسكرى واحتلوا المراكـز المهمـة وأذاعـوا الحرية فى طول البلاد وعرضهـا وكتمـت فـى القـدس حتـى جهـز بهـا الحـاج راغب أفندى الخالدى والمرحـوم حسـين افنـدى سـليم الحسـينى وكـان شـعار الناس قاطبة حرية عدالة مساواة فكثر الفسـاد وعـم التعـدى وضعفـت الادارة الملكية وسادت الفوضـى وضوءلـت هيبـة الحكومـة وطمـح النـاس إلى احتقـار الحكام وجهلوا معنـى الحريـة فظنوهـا الاشـتراكية أو الفوضويـة فكـان الرجـل ينهب مال غيره ويستبد بالضعيف وإذا عنفته أو زجرته قال حرية مساواة.

ثم أمر بانتخاب نـواب عـن البـلاد فذهـب عـن لـواء القـدس المرحـوم روحى بك الخالدى(*) وسعيد أفندى الحسينى وحافظ بك السعيد (يافـا) وعـن لواء نابلس الشيخ أحمد أفندى الخماش وعن لـواء عكـا الشـيخ أسـعد افنـدى شقير وفتح المجلس وبعد حين بـاغتهم السـلطان عبـد الحميـد وفتـك بـالأحرار وأعلن ثورة ضدهم باسم الدين وحاول القضاء عَلَى الـروح الجديـدة فداهمـهُ محمود شوكت باشا الفاروقى واحتـل الآسـتانة فـاجتمع النـواب وقـرروا خلـع السلطان سنة ١٣٢٥هـ وسنة ١٩٠٨م وأمنوا شـر الطاغيـة الكـبرى وجعلـوا مكانه محمد رشاد الخامس وهنالك تكبر الاتحـاديون وتولـوا ادارة البـلاد فقـال بعضهم باستتراك العناصر الأخرى أو إبـادتهم ولعبـت الأيـدى الأجنبيـة فهـبّ رجال العرب وانضم إليهم متعدلو الأتراك فأسسوا حزب الائتلاف وزاحـموا الاتحاديين وحاولوا أن يكثروهم فى المجلسى فطافوا البلاد وخطبوا فلم ينجحوا

(*) كان من علماء الأمة العربية وفضلائها تقلب فى مناصب عالية ولـه مؤلفـات جليلـة بعضهـا طبـع والبعـض الآخر جاهز للطبع.

وذهب عن القدس ثانية روحى بك الخالدى وعثمان أفندى النشاشيبى وأحمد عارف الحسينى (غزة) وعن نابلس حيدر بك طوقان وعن عكا الشيخ الشقيرى فلم تطل مدتهم وحل المجلس وأعيد الانتخاب ثالثة فحاز الأكثرية عن القدس راغب بك النشاشيبى وسعيد أفندى الحسينى وفيضى افندى العلمى وعن نابلس توفيق أفندى حماد وأمين بك عبد الهادى وعن عكا عبد الفتاح افندى السعدى. فتنبه العرب وأدركوا أنهم مغلوبون عَلَى أمرهم والأتراك مسيطرون عليهم فلم يطمئنوا ولم يرضوا عن هذا الجور فهب أهالى سورية مطالبين بالاصلاح على قاعدة اللامركزية أى استقلال داخلى إلى جميع بلاد العرب وجهر بعض النواب والوجهاء بأمنيتهم ونادى طلاب مدارس الأستانة بهذه الدعوة وعقدوا الاجتماعات وأسسوا النوادى والجرائد والمجلات ليدافعوا عن قضيتهم ثم عقدوا مؤتمراً عاماً فى باريس تداولوا فيه أبحاثاً هامة وقرروا قرارات خطيرة وبثوا دعاتهم فى سائر الأقطار والأمصار فكان داعيتهم فى القدس أبو حسين النشاشيبى فأشبع روح الشباب بتعاليمه الوطنية حتى عالنوا الحكومة بأمانيهم وجاهروا ونقموا سياسة الأتراك ووجهوا نظرهم نحو الجزيرة وعلقوا آمالهم بمنقذ العرب السلطان حسين الهاشمى فاستوحشت منهم الحكومة العثمانية وترضتهم وهادنتهم واعتزمت على أن تحدث تغييراً فى قوانين وشكل ادارة البلاد العربية وقد نال بعض رجال العرب مناصب عالية وأمرت الحكومة أن تكون اللغة العربية رسمية فى البلاد التى يكون أكثرها عرباً. وبينما هم يستخلصون حقوقهم تدريجياً فاجأتهم الحرب العامة فأخمدت الجذوة العربية المتقدة فى الصدور المندفعة والأنوف الحمية.

(٨٦) ثورة حوران والكرك

أشرقت الحرية فى البلاد العثمانية فشملت السكان نشوة طيش وتافت نفوس الاتحاديين إلى تجديد دولتهم فى سنة واحدة ليضارعوا دول أوربا العظمى وكادوا يدركون غايتهم لو سلموا من الدسائس الأجنبية وحكموا العقل قليلاً ولكنهم تهوروا وكلفوا البلاد فوق طاقتها فطالبوا البدو بتقييد نفوسهم واجبارهم عَلَى التجنيد وأكرهوهم على دفع الضرائب تماماً فاستاءَ لذلك دروز حوران وشمخوا وتعالوا ونبذوا الأوامر وعصوا الأحكام فانقض عليهم سامر باشا الفاروقى كالصاعقة وأدبهم وأخضعهم ونفى زعيمهم وطرد قادتهم وشيوخهم فأذعنوا مسلمين وسلموا طائعين. وبلغه أن أهالى الكرك قد امتنعوا عن تعداد النفوس وفتكوا بالمأمورين بتحريض عائلة المجالى فزحف اليهم واجتاز شرقى الأردن وأدخلهم فى الطاعة وكتب نفوسهم وعد أغنامهم ونفى زعيمهم توفيق بك المجالى وجعل أرضهم بلاداً عثمانية فعلاً وقسا عليهم ونكل بمن تعدى عَلَى المأمورين واستهان بأوامر الحكومةالرسمية ثم عاد راجعاً. وقد حدث فى هذه الفترة أن اكتسحت النمسا بلاد البوسنة والهرسك وانقضت إيطاليا عَلَى طرابلس الغرب فاعترضها السنوسى وانضم إليه زمرة من أبطال الاتحاديين فأتعبوها وأشجوها.

واجتمعت دول البلقان وحاربوا الدولة العثمانية فهزموها واغتصبوا بلادها المأهولة بالأتراك والعناصر الأخرى وهوت الدولة التركية من شامخ مجدها.

الفصل الخامس عشر

(٨٧) الحرب العظمى فى فلسطين

هبت عاصفة عَلَى العالم فهزت الشرق والغرب وخطفت العقول والنهى وسلبت الألباب والحجى فأصبح المفكرون خاضعين للعاطفة الحيوانية قرمين لسفك الدماء فأعلنت دول أوروبا الكبرى الحرب العظمى والتزمت الدولة التركية الحياد إلا أنها نظمت دوائر الرديف وحولتها إلى شعب أخذ عسكر ووزعت عَلَى جميع القرى مغلفات كبيرة مغلقة وأمرت المخاتير أن لايفضوها إلا متى أذنتهم وفى ٢٨ تموز سنة ١٩١٤م استطار الشر فى الغرب وأعلنت النمسا الحرب عَلَى الصرب ودخلت المانيا لوكسمبرج وأنذرت البلجيك فى ٢ آب سنة ١٩١٤م وفى ٤ منهُ أنذرت انكلترا المانيا ثم أعلنت عليها الحرب وفى ٦ منه أعلنت النمسا الحرب عَلَى روسيا وفى ١٠ منهُ أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا وفى ١٢ منه أعلنت انكلترا الحرب عَلَى النمسا وفى ١٣ منه أعلنته فرنسا على النمسا وفى ٢٠ منه احتل الألمان بروكسل عاصمة البلجيك وفى ٦ أيلول سنة ١٩١٤م اجتازوا المارن.

وهناك أمرت الحكومة العثمانية بالنفير العام "سفر برلك" وجمعت كافة جنودها المعلمين وساقتهم إلى البلاد ذوات المياه وسلمتهم سلاحاً وأخذت تمرنهم عَلَى الأصول العسكرى الألمانى وشكلت لجاناً لجمع التكاليف الحربية والمبايعات وأمرتها بمصادرة جميع مايلزم الحكومة ويوجد عند الأهالى من لباس

ومأكل وحيوان ركوب أو عربة نقل فأخفى الأهلون سلعهم وقطعت عن البلاد الواردات الخارجية فتصاعدت الأسعار ودخل السكان فى أزمة لم يكونوا يتوقعونها من قبل فكنا نرى الحالة حالة حرب لكن الحكومة العثمانية كانت محايدة حتى أتاها نبأ من السير ادورد غرى وزير خارجية انجلترا أنهُ أخذ البارجة "السلطان عثمان" التى تعمل لحسابهم فى مصانع أرمسترنغ الانكليزية فأكدت له تركيا أنها تنوى المحافظة عَلَى الحياد التام وما غرضهم من تعبئة الجيش ألا ليكونوا مستعدين للمفاجآت والطوارئ(*) فأجاب غرى أنهم مضطرون لابقاء جميع البوارج فى مياههم وسيعوضون الأتراك ما لحقهم من الخسارة. وفى ١٠ منه دخل الطراداان الألمانيان غوبن وبرسلو الدردنيل فقبلتهما الحكومة العثمانية وأعلنت فى اليوم التالى أنها ابتاعتهما. وفى ١٦ منه أبلغت دول الاتفاق الحكومة أنهن يحافظن عَلَى استقلالها وسلامة أملاكها من طمع كل عدو إذا بقيت معتصمة بالحياد مدة الحرب وفى ٩ أيلول و ١٨ شوال سنة ١٣٣٢هـ ألغت الدولة العثمانية الامتيازات الأجنبية فاستنكر هذا العمل جميع الدول حتى ألمانيا والنمسا وتحول الدردنيل والأستانة والبسفور بسرعة إلى منطقة ألمانية يسيطر عليها الألمان الذين خلقوا الأسلوب الفنى لجر الحكومة العثمانية إلى الحرب وأوعزوا إلى النسافات التركية فسقطت ثلاث منها فى ٢٧ تشرين أول على ميناء أوديسا وأغرقت سفينة وعطلت باخرة

(*) كان الصدر الأعظم العثمانى مصراً على التزام الحياد ويؤكد كل يوم لسفراء الدول أنه لايغرر بأمته أما وزير الحربية أنور باشا وحزبه فكان همهم حمل قومهم على الانضمام إلى المانيا.

أفرنسية فغضت السفراء وقطعوا علائقهم من الاستانة وطلبوا جوازات السفر حالاً ففاز بعض الاتحاديين بأمنيتهم لاسيما أن جيشهم المدرب قد بلغ مجموعه نصف مليون جندى مسلح وربع مليون فى معسكرات التدريب فأعلنوا الجهاد العام وضربوا الطبل وامتشقوا الحسام. وانقسمت ساحات الحرب فى البلاد إلى أربعة مواضع (١) الدردنيل، (٢) القفقاس، (٣) العراق، (٤) الحجاز وفلسطين. وانا نترك الأقسام الثلاثة لبعدها عن موضوعنا ونتكلم عن فلسطين والثورة العربية الفتية.

تعين أحمد جمال باشا ناظر حربية الأتراك قائداً عاماً إلى البلاد العربية وكان تحت إمرته الفيلق الرابع والجيش الثامن وهو مؤلف من ٤٠ الف مقاتل فتأخر جمال باشا برهة وجاء البيكباشى ممتاز بك[١] "قائد الف" فحشد من قبائل بدو السبع الفين ما بين فرسان وركبان ومشاة واخترق الصحراء الجرداء الخالية من البشر لأن الأنكليز تراجعوا إلى ماوراء القنال ثم ورد أشرف بك[٢] ومعه لفيف من الأفغان والجركس والمغاربة ومتهوسى الوطنية وكان مستشاره الألمانى هلدن غورف وبيده أمر من أنور باشا باعطائه ما يريد ثم التحق بممتاز وأوقعوا بطلائع الأنكليز وناوشوهم مرات فلم يحلوا منهم بطائل.

وكانت الأوامر صادرة بتأسيس مداخر الأرزاق "أنابر" وبناء المؤسسات العسكرية وحفر الآبار وجر المياه وتعمير الطرقات وتشكيل

---

(١) ياور أنور باشا اقتداء بموسى بن نصير لما أرسل مولاه طارق بن زياد إلى الأندلس وفتحها.

(٢) جركسى الأصل ورئيس عصابة فى البلقان ومن أبطال الثورة الأنورية والانقلاب العثمانى وكان ملبوس عصابته الجلد.

"أقوال" قوافل الجمال وغير ذلك نخص كلاً من هذه المواضيع بكلمة عَلَى حدة.

(٨٨) التموين "مداخر الأرزاق"

قبل أن أقدمت الدولة العثمانية عَلَى الحرب أخبرت الأمة بإعلان النفير العام وكانت لتوقع العصيان فأطاعها الأهلون ولبوا نداءها فسرت وعينت قومسيونات "الجاناً" لجمع الذخيرة فصاروا يطوفون الحوانيت ويأخذون منها ما أرادوا ويجمعون الحيوانات والدواب والأرزاق ويقدرون الأثمان ويعطون لأصحاب السلع سندات بقيمتها حتى كثرت لديهم الأرزاق فأمروا بتأسيس مداخر لها فى كل محل وجعلوا المدخر العام فى بئر السبع فكان لايخلو مركز عسكرى أو ملكى من انبار ثم توسعوا فأنشأوها فى الصحراء ونشروها من شمال البلاد إلى قرب قناة السويس.

(٨٩) وسائط النقل "النقليات"

تكدّست الأرزاق فى مخازن الدولة فاحتاجت إلى ماينقلها ويوصلها إلى الصحراء حيث الجبهة الحربية وأنى يتم لها ذلك ولا طرق عربات ولا خطط حديدية تشتبك بها البلاد ولتصل بها الصحراء فاحتاطت لتدارك هذا النقص وجمعت مايربو عَلَى ٤٠ الف جمل غير عجلات النقل وطابور الحمير والبغال والحمالة(*) وقسمتها إلى شعب وطوابير وأقوال مرتبطة ببعضها البعض وربطتها

(*) أشخاص يحملون الأرزاق والأشياء من القدس إلى الخليل والسبع.

بمفتش ورقيب ألماني فكانت تسير هذه القوافل من أقصى بلدان فلسطين إلى جوف الصحراء محملة بالأرزاق والآلات فلم تف بالحاجة واضطرت الحكومة إلى مقاولة المتعهدين لاتمام هذا النقص فقصرت همتها عن ايصال المنقولات فى حينها إلى محتاجيها وقد نكبت بموت كثير من جمالها لاهمال الضباط وقلة أعتناء الأفراد بها فكنا نرى أشلاء الجيف ورممها مطروحة عَلَى جوانب الطرق متعاطفة عَلَى بعضها بعضاً. هنالك أمرت بمد الطرق الحديدية وتمهيد سكك العربات وحصرت مهمة الجمال فى توزيع الأرزاق عَلَى الجنود داخل الصحراء وورد عليها أوتوموبيلات ألمانية ونمساوية ولكن بعد فوات الوقت.

(٩٠) تعبيد الطرق "العمليات"

عجزت الحكومة بواسطة الجمال أن توصل الأرزاق والمعدات الحربية إلى الجند فى وقت الحاجة إليها فأمرت بأنشاء الطرق وجمعت ضعفاء الجنود والعجزة الذين لم يتمرنوا ولم يتدربوا عَلَى حمل السلاح "سلاحسز" وأطلقت سجناء القدس وشكلت منهم طوابير "فرق عمال" وجهزتهم بما يلزم من الأدوات والآلات وأمرت عليهم الضباط المتقاعدين وجعلت بعضهم لتعبيد طرق العربات وبعضهم لمد السكك الحديدية والده قويل وإنشاء المؤسسات فمدوا طريق القطار من العفولة إلى بيرين جنوبى الحفير يقطعها الراكب فى ثمانية أيام. وأوصلوا طرق العربات بكل مركز عسكرى أو نقطة حربية وداومت عملها حتى سئم الجنود وفروا فأجبرت الحكومة أهل القرى عَلَى تقديم عمال إليها وكانت تراقبهم بضباطها فنظمت جميع ذلك وهى عَلَى

وشك الوداع.

(٩١) المؤسسات "الانشاءات"

لما كانت ساحة فلسطين الحربية منحصرة فى الصحراء الخالية من الموارد الطبيعية كالغذاء والمياه والبناء عزمت الحكومة العثمانية على إيجاد هذه الأشياء فحفرت الآبار وجرت المياه فى القساطل "الأنابيب" إلى مسافات بعيدة وبنت أحواضاً لسقى الحيوانات وصنابير "حنفيات" للشرب وبنوا المستشفيات ومستودعات الأرزاق ومحطات للسكك الحديدية وللبريد والبرق(*) ومحلات للضباط.

واستغنوا عن كل هذا فى المدن فتبسطت واستولت عَلَى جميع المؤَسسات الأجنبية وامتلكتها واستعملتها لما يلزمها فأخذت نوتردام والمسكوبية والدومنيكان ومدارس الفرير والمطران والصلاحية. وأسسوا دار الصناعة والإصلاح "معامل" فكان إذا ما تخرب شئ يعمر حالاً أو يعطى عوضه وقد اكتسب الأتراك من الألمان جرأة فعبثوا بأوروبا وافتضوا هيبتها واحتقروا عهودها وداسوا معاهداتها وعاملوا دولها معاملة النظير للنظير.

(٩٢) البعثة الألمانية العسكرية

تسلل بعض ضباط الألمان وتجند من كان فى سورية وانخرطوا فى الجيش العثمانى فرأينا أمرهم وانتظرنا العقبى وسرعان ما رأيناهم قد انضموا

(*) كثرت فى هذه الحرب أسلاك البرق والتلفون والتلغراف اللاسلكى.

إلى قائد الحدود كريس فون كريستين Kress von Kresstein فأعطى كلاً منهم العمل الذى يصلح له وفتح الخواجه فاست مطاعم ومنازل خصوصية لهم يأوون إليها. فلما اتصل الألمان بالأتراك أرسلوا حملات نمساوية وألمانية مؤلفة من طوابير "قطع عسكرية" وفيهم الطيارون المدفعيون والمشاة وسائقو الأتومبيلات فاستقبلهم القائد العام فون كريس وحاشيته بحفاوة وخطب فيهم عَلَى محطة بئر السبع فقال:

أيها الأبطال! أنتم أبناء من احتلوا باريس وشهدوا موقعة سيدان أنتم بأنفسكم قد اخترقتم قلاع البلجيك ودككتم حصونها وتغلغلتم فى أقاليم فرنسا ومزقتم جيش روسيا أنتم الذين جرعتم جميع أعدائكم الهوان وها أنا قد أتيت بكم لانفذ بعزمكم الألمانى فى شريان أنكلترا عدوة الإنسانية ولتنتزعوا من يدها القتال وتشفوا البشرية المتألمة من ظلم واستعمار أنكلترا ... الخ.

ثم ساروا وقد أعد لهم مخيماً فاخراً فكانوا ينامون عَلَى سرر ويأكلون طيب الطعام وأعذب الشراب وكانوا أنى ذهبوا يصحبهم الرخاء وأنى ساروا يوفر إليهم خير المآكل فطمعوا واستطالوا على الأتراك واحتقروهم فحدثت نفرة بين الفريقين كادت تفضى إلى سوء العقبى فأسس الأتراك جميعة فى بئر السبع غايتها مقاومة النفوذ الألمانى فكبحوا جماحهم وخففوا من غلوائهم وظلت الفرق الألمانية والنمساوية تصحب الجيش التركى حتى الانهزام الأخير.

(٩٣) الجراد

لم يكف الناس ما حل بهم من البلايا حتى فاض عليهم طوفان من

الجراد فأكل الزرع والأثمار ورعى العشب وقشر الأشجار ثم غرس فى الأرض وباض وفرّخ فاستعد السكان لدفعهِ وقاوموه ولكن حاولوا عبثاً فانتشر ثانية زاحفاً عَلَى الأرض وطائراً فى الفضاء لايأتى على شئ إلا ذهب به ففزعت الحكومة وعينت جنوداً ومأمورين ملكيين لتلافى ضرره وكلفوا أهل البلاد باتلافهِ فعجزوا عن رد غائلته. وفى الحقيقة أن من كان يراه سابحاً عَلَى الأرض يتوهم أنها مادت به أو أن هنالك بحراً رجراجاً فتضعضعت الحالة الاقتصادية وساءَت الحركة التجارية فزاد الغلاء واشتد الفقر وقحطت الأرض وقاسى الفقير الويل والعذاب.

(٩٤) الحركة الاقتصادية

أعلن النفير العام فانقطعت الواردات الخارجية وغلت أيدى أهالى فلسطين ودخلوا فى الجندية فأهملت الأرض وقلت الحاصلات لاسيما أن الحكومة أخذت تجبى ضرائبها عيناً فتأْخذ من الغلال حصتها وتشترى ثلاثة أضعافها وزاد على ذلك ظلم المأمورين وتقديرهم الجمية بأكثر مما هى ولم تقف أيضاً عند هذا الحد بل صادرت جميع الحاصلات وعينت لكل فرد من الأهالى مؤُونتهِ وبذاره فقط واحتكرت البقية فسئم الزارع ومل الصانع وفرغ حانوت التاجر فعمت الطامة وجلت المصيبة وارتفعت الأسعار أربعة أضعافها وتعددت حوانيت بيع الأثاث المستعمل Second hand فصار كل محتاج يعرض مالديه ليبيعه بثمن بخس يشترى به قوتاً لعائلتهِ والجدائعة وعظمت الرزايا بهبوط أسعار الورق النقدى فإن الليرة العثمانية نزلت إلى ١٨ قرشاً ومع دناءَة سعرها

ورخصه فأنها كانت فى جبهة الأسد "وبها تقضى الحاجات".

(٩٥) الصحة العمومية

قلما تحدث حرب إلا ويصحبها الوباء والعلة أنهُ يقال الغذاء ويفسد الجو والصعيد فتنتشر الميكروبات وتكون الأجسام قد ضعفت عن مقاومتها فتفشى الأمراض وتفتك الأدواء كمَا شاهدناه أثناء الحرب.

فقد احتاطت الحكومة لمنع وقوع هذا العارض وأسست طوابير تنظيفات "كناسة" وأكثرت من الأطباء والصيادلة وأناطت بهم مراقبة الأمور الصحية فهجمت الحميات والأمراض السارية وانتشرت الدُسنتاريا والكوليرا والتيفوس والتفوئيد فحصدت النفوس ونهبت الأعمار وكنا لا نرى غير وجوه شاحبة وأجسام ضعيفة منهوكة القوى.

(٩٦) الأخلاق العمومية

فى خلال هذا الحرب رأينا من فساد أخلاق بعض الشرقيين مازهدنا فى الحياة فأنهم نحروا الفضيلة وأقاموا الرذيلة وتبذلوا مفتخرين بالعيوب والمساوئَ فسخط الفضلاء ظانين أن هذا المرض سرى بين بنى قومهم فلم يتعدهم ولم يتجاوز سواهم فلما أتت الجنود الألمان والنمساوية وجدناهم أحط منا وأجرؤ على ارتكاب الموبقات فحوقلنا ومقتنا أعمالهم وأخلاقهم المنحطة وسلوكهم الحيوانى وتوهمنا أن المرض التركى تمشى فى مفاصلهم وتسرب إلى آدابهم فلما قدمت الجيوش الانكليزية المزيجة من عناصر الأرض وجدناها أدنى وأحط فلا عيب تتوقاه ولا حرام تأباه فعلمنا أن الحرب مفسدة الأخلاق وأى

حرب أعظم من هذا سيما أن سكان المدن ومن جاوروا معسكرات الجنود كانوا أكثر فساداً من سكان القرى البعيدة عنهم.

(٩٧) الديوان العرفي

أعلنت الحكومة العثمانية الحرب وأمرت بتطبيق الأحكام العرفية فى جميع أقطار مملكتهم فكان الديوان مؤلفاً من مجلسين هيئة تحقيقية "اتهام" ومحكمة عرفية فأتخذوا مركزه فى القدس بيت القسيس سايكس قبالة الكنيسة العربية. فكانت جحيم المحاكم وبلية البشر أعضاؤه ضباط عسكريون تربوا عَلى سفح الدماء فهان عليهم القتل وسهل لديهم احتقار البشرية وآلامها. فى حكمه القضاء المبرم والموت العاجل فإذا سبق المتهم إلى الهيئة التحقيقية استنطقه الضرب بالسوط والكى بالنار والتعذيب الشديد فيعترف بالجرم المنسوب إليهِ وإن لم يكن فاعلاً لأن الموت العاجل أخف من العذاب المتطاول فيكتبون إقراره رسمياً ويعتبرونهُ ويحولونهُ بأوراقهِ إلى المحكمة العرفية فإن خالف قوله الأولى نزلوا عليه بالسياط وإن قبله تحكم عليهِ بأقصى درجات العقاب وتحول قرار الحكم إلى الحاكم المطلق جمال باشا السفاح(*) الذى يفعل مايشاء ويختار مايريد فيبرمهُ بلا تردد وكم من ذنوب ارتكبوها وخطايا اقترفوها ابتغاء مرضاة السياسة فأنهم اغتنموا هذه الفرصة وأخذا يطبقون سياسة العسف والقهر فأبعدوا الفرق العربية والجنود السورية عن بلادهم ونقلوها إلى غاليسيا والدردنيل والعراق واستبدلوهم بأتراك وألمان ونمساويين وتمردوا

(*) فى سنة ١٩١٧ ضيقت سلطته وصار جرم الأعداء لاينفذ ما لم يصدق عليه الخليفة.

وجاروا فأمر جمال بمحاكمة أعضاء مؤتمر باريس ومن اشتبه بهم من فتيان العرب الناهضين وشبابهم المتنورين فنفى البعض وساق البعض إلى عالية وحاكموهم وحكموا عَلَى كثير منهم بالاعدام فتشفع فيهم جلالة الملك حسين وطلب العفو عنهم فردت شفاعتهُ ونفذ فيهم الحقكم فاحتقدها وثأر لهم قائلاً:

إذا ما غضبنا غضبة مضريـــــة ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دماً

(٩٨) الثورة العربية

كتم جلالة الملك حسين عضبه وغيظه واستدعى الفرق المتطوعة(*) التى قدمها لجمال باشا بحجة أن يستبدلها بغيرها ودعا إليه ابنه فيصلاً وقطع علاقته مع الأتراك وأصغى إلى مفاوضة الحلفاء الذين قطعوا له عهوداً ومواثيق باستقلال جميع البلاد العربية فأعلن الثورة وعضده قساورة الحجاز وعرب الحويطات فما كاد يبلغ هذا الخبر مسامع العرب حتى انسحبوا من صفوف الأتراك والتحقوا بهم ولم يبق منهم إلا من سدت فى وجهه الطرق فانثلمت الثغور وتعطلت الإدارة وألتحق قسم كبير من الضباط والأفراد بجيش الأمير فيصل وقاتلوا وقتلوا وظلوا يتكاثورن إلى أن ضخم الجيش وسرت الشعلة إلى كل الجهات فاعترف أكبر قائد فى فلسطين بقوله ان أهالى البلاد العربية أشد عداوة لنا من الانكليز.

(*) كانوا يلبسون ألبسة بيضاء وكفافى حمراً وهم أربعة آلاف شخص صادموا الجيش الانكليزى وكانوا ينشدون أهازيجهم العربية ولا يتقيدون بنظام فى الحرب.

(٩٩) الحملات الحربية

كان يجب أن نقدم هذا البحث عَلَى غيره لما له من الأهمية ولكنا فضلنا أن نمهده بمعداته الأولية ليتنبه القارئ أن النصر لايكون بكثرة الجنود فقط بل بما يلزم لها من الذخائر والوسائط النقلية والتغذية والاعتناء الصحى والفن العسكرى.

أعلن الأتراك النفير العام وهم بين عاملين التزام الحياد أو دخول الحرب فما زالت بهم أنور باشا وحزبه حتى حملهم عَلَى اقتحامها فعضدوا الألمان آملين أن يكون لهم النصر فيسترجعوا إمبراطوريتهم العظمى فاستسلموا لهم وولوهم الأعمال وإدارة الأمور فسيطروا عليهم حتى إن جمال باشا بعظمتهِ كان يخشى فون كريس ولم يستطع أن يرد له طلباً فلما اجتمع القواد للمذاكرة أصر عَلَى مهاجمة القنال بقوة كبيرة لاعتقاده أنهُ يدخل مصر بسهولة بناء عَلَى استكشافاته أن قوة الانكليز كان ضعيفة فحالفهُ سعد ا لله بك رئيس أركان حرب جمال باشا وكان رأيه أن يرسل بضعة طوابير لمشاغلة الانكليز ومساجلتهم فقط لأنهُ يرى أن اختراق الصحراء بجيش كبير لايرجى منهُ نفع فاستشاط فون كريس غضباً وأرغم جمال باشا على اتباع رأيه ونبذ سعد ا لله وقوله وفصله من القيادة العامة ثم زحف بقوة مؤلَفة من ثلاثين الف جندى مسلح وكان وراءَهم فرقة أزمير الممتازة فوصلوا القنال وكشفوه وبعد معركة قليلة فشل العثمانيون وعادوا أدراجهم ولكن فون كريس بقى مخيماً فى "الابن" يتردد على جميع مراكز الصحراء ويغير عَلَى الأنكليز ويشاغلهم بأربعة

طوابير فقط وقد استدرج الانكليز مرة وأوقع بهم فى قطية وأسر منهم أميرالاى وضباطاً وجنوداً ولكنهُ لم يعق سيرهم فتقدموا بطريقهم الحديدية ومياههم النيلية إلى أن بلغوا العريش واحتلوها وأخرجوا الأتراك من الصحراء وانقضوا عَلَى غزة فكادوا يمتلكونها ثم خسروا الموقعة واستطال العراك فلم يظفروا بحاميتها وثبتت أمامهم فالتفوا حول جناح الأتراك الأيسر "السبع" وعطفوا عليه فانسحب إلى الوراء وتراجعت القوات إلى الشلالة ثم وادى الصرار وهناك انشطرت إلى شقين أحدهما ارتد لحماية القدس والآخر ساح فى سهول طولكرم فتعقب الأنكليز الشق الأول وأوقعوا به فى بيت عور والنبى صمويل وحصروا القدس ودخلوها فى ٩ كانون أول سنة ١٩١٧م وظلوا يدحرون فلول الجيش إلى أن رسخ عَلَى خط متعرج فخندق الانكليز أمامهم من السلط إلى سنجل ودير غسانه ومجل يابا وحرم على بن عليم وطال بالمقاتلين المقام وهم فى سجال حتى اخترق فرسان الانكليز خط طولكرم واكتسحوا الجيش التركى وأسروا أكثره وقابلهم الجيش العربى فى ذرعاه فاشترك معهم وهجموا على سورية يطاردون الأتراك فأخرجوهم من البلاد العربية وتولى الإدارة فى سورية جلالة الملك فيصل وفى الساحل فرنسا وفى فلسطين انكلترا.

انحسر الأتراك عن بلادنا ولم يتركوا لنا شيئاً من المدنية. حكمونا ٤٠٠ سنة فأين ثكناتهم العسكرية؟ وأين طرقهم العمرانية؟ أين مدارسهم ومعاهدهم العلمية؟ أين آثارهم الفنية وإصلاحاتهم المدينة؟ لاشئ من هذا.

سلم الأتراك للحلفاء مطالبهم فعقدوا المؤتمرات وحكموا عليهم فى مؤتمر سيفر وسان ريمو وفرساى بنزع جميع أملاكهم فى أوربا وإعطائها لليونان وتكون الأستانة والمضايق تحت مراقبة الحلفاء ومنطقة أزمير لليونان ,ضاليا لايطاليا وكليكيا لفرنسا وسلخت عنها جميع جزر الأرخبيل وسائر البلاد العربية والكردية وأجبر تركيا على التنازل عن جميع حقوقها فى كل بلادها المحتلة من انكلترا وفرنسا وإيطاليا وقبلوا ذلك إلا أن البطل التركى مصطفى كما باشا أبى أن يقر الذل فى أمتهِ وانسحب إلى الأناضول والتف حوله خيرة قومه وأصبح جيشه عَلَى قوة مدهشة وساعدته السياسة عَلَى ذلك فأخرج إيطاليا من أضاليا وفرنسا من كليكيا وحارب اليونان وقذف بهم فى اليم واحتل الأستانة وحصن دعوتيها وقبل الحلفاء مندوبيه فى مؤتمر لوزان بعد أن رفضوا وألغى المعاهدات الأولى.

(١٠٠) الهجرة

ماقرب الجيش الأنكليزى من بلاد مستحكمة إلا وظن الأتراك أن أهلها يضمرون لهم سوءاً فيفرغونها من السكان يأمرونهم بالمهاجرة إلى بلاد قاصية فقد هاجروا غزة ويافا وأكثر القرى التى كانت تقع عَلَى خط النار أو بين الخطين خشية اتصال الجواسيس أو نقل الأخبار فلما أتى الأنكليز وجدناهم يعقبون عين تلك السياسة ونفس هذه الإدارة فإنهم ما دخلوا قرية إلا أخرجوا أهلها منها واعتقلوا كثيرين فضاع أثاث الأهالى وفقدت سلعهم وكم من بناء هدم فى سبيل الحرب.

(١٠١) لمحة اجتماعية

لم نحلم بما كان مخبئاً لنا في لوح الغيب فقد جاءَت الحرب وجـاء معهـا الشقاء ففقد من البلاد الكبريت والكاز والسكر والقهوة والأرز وغير ذلـك من الواردات الخارجية فتبرم الناس من ذلك ثـم ألفـوه واستعاضوا عنـهُ بغيره ولكن قلت الضيافات والزيارات وعذر بعضهم بعضاً وقصر اللسان عن اللـوم فبرزت المخدرات إلى العمل وتسابقن في جلب المعاش وإحراز القـوت [إلا أن الفلاح صاحب الحـاصلات ظـل حالـه مستوراً] وقـد كنا نـرى النعـل مرقعـة واللباس مرفواً والطربوش مقلوباً حتى أن المسافر يخلـع نعلـه توفيراً ... ولكـن اجتماع الجنود والأهالي ببعضهـم البعـض أكسبهم فـائدة الاقتبـاس وشـاهدوا الألمان واحتكموا بهـم فنقلـوا عنهـم كثيراً وسـاروا خطـوة واسعة إلى الأمـام فالقروي الساذج الذي عاشر المدني قبس عادته وما حسـن لديـهِ وأبنـاء المدن الصغيرة سرت لهم العدوى لما عاشروا أبناء بيروت ودمشق وحلـب واجتذبوا منهم الحسن ودبت فيهم ريح الحركة من الألمان وكذلك الأنكليز ثـم أبصـروا مساوئ غيرهم فعلموا أنهم بشر ليسوا بخير منهم فلم يفضلوهم على أنفسـهم وطمحوا إلى مساواتهم.

الفصل السادس عشر

الاحتلال البريطانى

(٦١) الإدارة العسكرية

فى أواخر سنة ١٩١٧م اكتسح الجيش البريطانى جنوبى فلسطين واخترق منطقة طولكرم فى ١٩ أيلول سنة ١٩١٨م فقضى عَلَى الجيش التركى وجلت الحكومة العثمانية عن البلاد وقامت عَلَى أثرها حكومة أنكليزية عسكرية دعيت "ادارة بلاد العدو المحتلة" وتعين الجنرال كلايتن Clayton مديراً عاماً لها ثم خلفهُ الجنرال مونى Money فالجنرال وطسن Watson فالجنرال بولز Bols وقد تغيرت هذه الإدارة فى إبتداء سنة ١٩٢٠م إدارة ملكية عَلَى رأسها السر هربرت صمويل مندبواً سامياً لجلالة الملك جورج وعهد إليه تنفيذ وعد بلفور بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود كما قرر مؤتمر سان ريمو فى ٢٠ نيسان من سنة ١٩٢٠م فقدم المندوب السامى وتلا أمر "فرمان" جلالة الملك فى الطور يوم الأربعاء فى ٧ تموز وهذا نصهُ:

إلى مأمور من فخامة جلالة الملك جورج الخامس أن أبلغكم الرسالة الآتية:

إلى أهالى فلسطين

إن الدول المتحالفة التى نالت الفوز الباهر فى هذه الحرب قد أودعت

بلادى أمر الوصاية عَلَى فلسطين لكى تسهر عَلَى صوالحها وتكفى بلادكم العمران السلمى الذى طالما كنتم تنشدونهُ. أنى أذكر بافتخار العمل المجيد الذى قامت به جنودى تحت قيادة الفيلد مارشال اللورد اللنبى بتحرير بلادكم من النير التركى وسأتهلل حقيقة إذا وُفّقت أنا وشعبى أيضاً إلى أن نكون وسيلة لكم لتنالوا السعادة بوجود إدارة حازمة وصادقة. أنى أرغب أن أؤكد لكم أن الدولة ذات الوصاية ستنفذ ما عليها من الواجبات بدون محاباة مطلقاً كما وأن فى عزم حكومتى أن تحترم حقوق العناصر والمذاهب عَلَى اختلافها فى المدة التى يلزم انقضاؤها إلى أن يصادق مجلس عصبة الأمم نهائياً على أمر الوصاية وفى المستقبل عند ماتكون قد صارت الوصاية أمراً واقعاً.

لايخفاكم أن الدول المتحالفة والمشتركة قد قررت أن تتخذ التدابير لتضمن تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين بالتدريج وهذه التدابير لن تؤثر قطعياً على حقوق الأهالى الدينية أو المدنية ولن تنقص من الرقى المنوى لعموم طبقات الشعب الفلسطينى: أنى واثق أن المندوب السامى الذى انتدبتهُ لانفاذ هذه المبادئ سيفعل ذلك بعزم ثابت ونية صادقة وسيسعى لاستعمال كل الوسائل التى تؤول إلى خير واتحاد طبقات الشعب على اختلاف مذاهبه. أنى أدرك جيداً خطورة الائتمان المحدقة بحكومةِ البلاد التى يقدسها المسيحى والمسلم واليهودى على السواء وسأحافظ بكل اهتمام وعاطفة حارة فى المستقبل عَلَى رقى وعمران البلاد التى ينظر العالم إلى تاريخها باهتمام عظيم.

ثم تلاه مرة ثانية على جبل الكرمل فى حيفا وشرع بتطبيق قرار

الحلفاء فجعل لغات البلاد الرسمية ثلاثاً العربية والانكليزية والعبرية واعترف بوجود القومسيون الصهيوني ووظائفه وحاول أن يقنع العرب بأن الصهيونية نافعة ومفيدة فأخفق في سعيهِ وخسرت سياسته وهنا نقول كلمة عن تاريخ الصهيونية.

(١٠٣) الصهيونية

تنتسب الصهيونية إلى صهيون أحد التلال القائمة عليه ببيت المقدس والذى كان علماً للمدينة ثم أصبح مرادفاً إلى فلسطين.

فالصهيونية حركة يهودية غرضها الأجَلُ الرجوع إلى فلسطين لجمع شتات شعبهم المبذور بين جميع الأجناس والطوائف وفى كل بقاع الأرض وهى منطوية عَلَى مبادئ اقتصادية وسياسية ودينية لا محل هنا لاستيفائها.

ان أكبر محرك لإحياء هذه الروح فى نفس اليهود هو توالى اضطهادات الأوروبيين لهم ونفورهم منهم لأنهم يميلون إلى الربا الفاحش ولأنهم مستهلكون غير محدثين ولرغبتهم فى احتكار التجارة ولتعصبهم الدينى وهذه نبذة من صلاتهم اليومية:

" لم يخلقنا الله مثل بقية الشعوب ولم يجعل مقامنا مثل مقام الأمم الأخرى".

وأن رجال الغرب مهما تظاهروا بالتسامح المدنى مع اليهود فإنهم غير راضين عنهم اجتماعياً فقد استوحش منهم الروس وافحشوا فيهم سنة

١٨٨١م فقام نفر منهم ونادى بجمع اليهود فى بقعة واحدة فاستحسن هذه الفكرة كثير منهم ولكنهم اختلفوا فى تعيين المحل الذى يتخذونه وطناً لهم فاقترح البارون هرش أن يكون فى جمهورية الأرجنتين، وذهب زنكويل باستيطان شرق أفريقيا أو أوغندا وحبذ بعضهم الرجوع إلى العراق ومنهم من فضل طرابلس الغرب أو شبه جزيرة سيناء أو نيكاراغوا فى أميريكا الوسطى وظلوا مختلفى الرأى حتى سنة ١٨٩١م إذ نجم من فينا هرزل مؤسس الصهيونية المعروفة الآن وجمع عدداً من كبار مفكرى اليهود وعقدوا مؤتمراً فى بازل "سويسره" وأجمعوا عَلَى اتخاذ فلسطين مهجراً ووطناً فذهب هرزل إلى الأستانة وباشر مفاوضة الباب العالى فلم ينجح إلا بأخذ رخصة بتأسيس مدرسة نيتر الزراعية وشرع بأنشاء بعض مستعمرات "قرى" يهودية وكان كلما اعترضهُ شئ من العقبات والمشاكل اقتحمها. وقد انضم إليه نفر كثير من اليهود بعد حادثة الضابط اليهودى دريفوس فنشط وثابر عَلَى جمع الأموال وبث الدعوة "البروبوغاندا" وأسسوا الشركات المالية ونشروا الروح الصهيونية بين اليهود فاستعد فريق منهم لقبولها وفى أثناء الحرب العظمى نجح الزعيم الصهيونى وايزمان وأقنع وزارة لويد جورج بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود فنطق بتصريحه المشهور وهو:

"تنظر حكومة جلال الملك البريطانية بعين الرضى إلى أنشاء وطن قومى فى فلسطين وتبذل الجهد فى سبيل ذلك عَلَى أن لايجرى مايضر بحقوق غير اليهود فى فلسطين الدينية والمدنية أو مايضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسى فى ماسواها من الممالك".

وإنا ذاكرون هنا الأعمال الكبيرة التى تمت على عهد المندوب السامى وهى: تعيين مجلس استشارى مؤقت مؤلف من العرب واليهود وفتح أبواب فلسطين لمهاجرى اليهود وتأسيس مجلس إسلامى أعلى يدير الأوقاف والمحاكم الشرعية الدينية مؤَلف من رئيس وأربعة أعضاء.

وأنكر العرب السياسة الصهيونية فأسسوا الجمعيات الاسلامية المسيحية فى جميع البلاد واحتجوا عليها وتظاهروا وطلبوا إلى الحكومة تعديل خطتها ثم أرسلوا وفوداً إلى لندن والحجاز وأنقره ولوزان ولندن "ثانية" وقد وجدوا من لوردات الأنكليز وأشرافهم مناصرة وعطفاً.

وقد بذل المندوب السامى وسعه للتوفيق بين العرب واليهود فلم يفلح وهو المشهور باللطف وحصافة العقل. وحدث فتنتان بين المتنازعين الأولى فى القدس والأخرى فى يافا قتل فيهما عدد ليس بقليل فهدأتهما الحكومة بالقوة.

فهذا تاريخ فلسطين وجل ما وقع فيها من الحوادث قد طويناها بعد التنقيح بين دفتى هذا السفر الصغير وا لله ولى التوفيق ..

* * *

المصادر والمراجع

- التوراة
- التاريخ العام – مير
- التاريخ القديم – بورتر
- تاريخ سورية – المطران الدبس
- فلسطين وتجديد حياتها – حنا صلاح
- أبو الفدا
- ابن الأثير
- الأنس الجليل – الحنبلى
- مروج الذهب – المسعودى
- تاريخ الطبرى
- ابن خلكان
- الواقدى
- مقدمة ابن خلدون
- تاريخ التمدن الإسلامى – زيدان
- تاريخ مصر الحديث – زيدان
- تاريخ دول الإسلام – منقريوس
- تاريخ الدول العثمانية – فريد وجدى
- مشهد العيان فى تاريخ سورية ولبنان – مشاقة

- عمرو بن العاص – حسن ابراهيم حسن
- صلاح الدين – أحمد بيلى
- معجم البلدان – ياقوت
- رحلة ابن جبير
- رحلة ابن بطوطه
- محاضرات الخضرى
- أشهر مشاهير الإسلام – رفيق بك العظم

- The works of Josephus.
- Biblical Geography and History - Kent.
- The House of the Seleueids - Bevan.
- Jerusalem Under the High Priests - Bevan.
- The Philistines - Maealister.
- A History of Civilization in Palestine - Macalister.
- The Rise and Fall of the Roman Empire - Gibbon.
- The Hisotrical Geogrphy of the Holy Land - G.A. Smith.
- Palestine under the Moslems - Guy Le Strange.
- The Encyclopedia Britannica.
- The Orient in Bible Times - Grant.

فهـــرس الكتاب

اسم الموضوع	رقم الصفحة

اسم الموضوع	رقم الصفحة

اسم الموضوع	رقم الصفحة

اسم الموضوع	رقم الصفحة

اسم الموضوع	رقم الصفحة

اسم الموضوع	رقم الصفحة

اسم الموضوع	رقم الصفحة

رقم الإيداع	٧٦٩٤/ ٢٠٠١
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 341 -027 -7

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر
ت ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس . ٥٩٣٦٢٧٧